

١٠ قروش
كتابى
حلمى مراد
عدد ممتاز
لمناسبة دخول كتابى فى عامه السابع

كتابى

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية
يصدر أول كل شهر
صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الإغريق

الكتاب الثانى والسبعون (السنة السابعة) مارس ١٩٥٨
الاشتراكات ومجموعة الأعداد السابقة : اقرأ التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول - ١٤ شارع ٢٦ يوليو - بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

[illegible]

محتويات العدد

الموضوع	رقم الصفحة
عزيزى القارىء	٧
الساقية تدور ! .. قصة مصرية بقلم : **يوسف جوهر**	١٣
كيف تتجنب العمل ؟ .. الكتاب الذى يقودك الى العمل الذى تحبه	٣٥
الخطاب .. قصة تمثيلية كبرى للروائى الانجليزى : **سومرست موم**	٥٧
صلاح الدين الأيوبى .. القائد العربى الذى انحنت له جباه أعدائه	٨١
غريزة السعادة ! .. قصة طويلة للكاتب الفرنسى الكبير : **أندريه موروا**	٩٩
هكذا بدأ العصر الذرى .. الكتاب الذى يكشف لك أسرار الذرة	١٤١
المركيز دى ساد .. الرجل الذى ابتدع مذهب التعذيب فى الحب	١٧٣

عين الحسود !

عزيزى القارىء ..

آمنت بالحسد .. و ((العين)) !

بقى أن أعرف : عين من هى التى أصابتنى ، منذ عودتى من الصين واليابان ، فعرضتنى لصنوف من المتاعب ، والنكد، فى صحتى وفى عملى ، لم أعرف لها مثيلا من قبل ! ؟

.. فخلال الشهرين الأخيرين ، انفقت نصف وقتى فى عيادات الاطباء ، أتنقل من طبيب الى طبيب .. كل يوم أشكو من أعراض جديدة ، تثير فى نفسى هواجس منوعة ، تفقدنى طمأنينتى ، وتضيع وقتى ، وتربك عملى !

وهكذا ، ولأول مرة منذ ستة أعوام ، تأخر عدد يناير من كتابى عن موعده نحو شهر كامل !.. وترتب على تأخيره تأخير الاعداد التالية له ، سواء من كتابى أو المطبوعات ، تأخيرا أحسبك لمسته أكثر من مرة ، وان لم تعرف سببه بالطبع .. وهأنذا ، فى سباقى مع الزمن وكفاحى لهذه العوائق ، ما ازال احاول العودة بالسلسلتين الى موعدهما الاصلى ، فى أول ومنتصف كل شهر ..

وكان من الطبيعى أن يزعجنى هذا الارتباك فى عملى ، فينعكس هذا الانزعاج على صحتى من جديد ، فيتزايد ما أشكو منه من أعراض ، ويتفاقم ما يترتب عليها من هواجس ، تختلط فيها الحقيقة بالوهم .. اختلاطا يتعذر معه الفصل بينهما !

فهلا التمست لى عذرا بعد هذا ، اذا آمنت بالحسد .. و ((العين)) ؟

ولكن ، ترى ((عين)) من هى التى أصابتنى ؟

أهى عينك أنت ؟

اذا كنت حسدتنى على رحلتى الى الشرق الاقصى ـ منذ وصفت لك صورا منها فى العددين الماضيين من (كتابى) ـ فقد آن لك أن تكف « عينك » عنى ، فقد قاسيت منذ عودتى منها ما « يكفر » عن متعتها أضعافا مضاعفة !!

وعلى أى حال .. ها أنت تجنى بعض ثمرة « فعلتك » ، فقد كان من نتائجها أن حالت متاعبى الصحية بينى وبين انجاز الفصل الجديد من « رأيت وسمعت لك فى آسيا » ، وهو الفصل الذى اعتدت أن أكتبه بعد الشروع فى طبع بقية مواد العدد الاخرى .. فلم أشأ تأخير صدور هذا العدد أياما أخرى ، واضطررت الى الاستعاضة عن الفصل المذكور بموضوع آخر من الموضوعات المعدة للعدد القادم

والآن ، وبعد أن أثقلت عليك بهذا الحديث « الشخصى » ـ الذى لعلى وجدت فيه شيئا من التفريج والتنفيس عن متاعبى ـ دعنى أقدم لك مواد هذا العدد ، الذى يستهل به « كتابى » عامه السابع ، مجددا لك العهد على مواصلة رسالته الثقافية الرفيعة التى اضطلع بها منذ عدده الأول،ضاما جعبته على الكثير من الشوامخ والاعمال الأدبية الفريدة التى يدخرها للأعداد التالية منه ومن « مطبوعاته »

وأول ما أود أن ألفت نظرك اليه من مواد هذا العدد ، هذا الكتاب الشائق الذى يبسط لك كل ما تود أن تعرفه عن « الذرة »،وعن مستقبل العصر الذرى..وهو كتاب استهل به بابا جديدا للعلوم المبسطة ، أنوى أن أقدم لك فيه ـ فى كل عدد باذن الله ـ كتابا نافعا ممتعا من الكتب العلمية أو الطبية التى لا غنى لمثقف عن الالمام بها

.. والى جانب هذا الكتاب ، تطالع بين دفتى هذا العدد مجموعة منوعة من الملخصات العالمية : فهذه قصة طويلة من روائع « اندريه موروا » ، وهذه سيرة البطل العربى الذى انحنت له جباه « أعدائه » : صلاح الدين الايوبى .. وهذه

مسرحية شائقة من أشهر ما كتب « سومرست موم » للمسرح .. وهذا كتاب جزيل الفائدة من كتب علم النفس ، يعينك على اختيار الاتجاه الذى تصلح له ، من اتجاهات مستقبلك .. وهذه قصة مصرية ذات طابع « واقعى » فريد، للكاتب الفذ « يوسف جوهر » .. وهذه دراسة جديدة للرجل الذى ابتدع فلسفة « السادية » ، أو « التعذيب فى الحب ! » .. الخ

وكل رجائى أن لا تبخل على — بعد الفراغ من مطالعة هذا العدد — بكل ما يعن لك من آراء وتعليقات على مواده وأبوابه ، ودرجة استحسانك أو انتقادك لكل منها .. بالصراحة التى تعيننى على تحقيق رغباتك !

هل أنا « تاجر أدب » ؟

• **وما دمنا** بصدد رسالة « كتابى » و « مطبوعاته »،ونحن فى مستهل هذا العام الجديد ، فهل لى أن احتكم اليك فى هذه المساجلة التى جرت بينى وبين الزميل الاستاذ حلمى سلام — رئيس تحرير مجلة الاذاعة — بشأن العدد الاخير من مطبوعات كتابى الذى صدر منذ أيام بعنوان « ليالى بلزاك » ؟

ولكى تصدر حكمك عن بينة ، أنشر عليك فيما يلى نص ((عريضة الاتهام)) التى وجهها الزميل الى ، على صفحات عدد ٢٢ مارس الحالى من مجلة ((الاذاعة)) .. قال :

« فى الاسبوع الماضى أصدر الزميل الكاتب **حلمى مراد** — صاحب مؤسسة « كتابى » — أصدر مجموعة جديدة من قصص الكاتب الفرنسى الكبير **((أونوريه بلزاك))** تحت عنوان : **((ليالى بلزاك))** . الى هنا ولا اعتراض لنا .. **فحلمى مراد** مفكر قدم ، ويقدم ، للثقافة المصرية .. وللمثقفين المصريين العرب .. خدمات مخلصة ، وغنية ، وصادقة .. ولكن الشىء الذى لم أستطع أن أتقبله من الزميل **حلمى مراد** — وما زلت حتى الآن أنظر اليه على انه أديب ، وليس على انه **((تاجر أدب))** — أقول ان الشىء الذى

لم أستطع أن أتقبله من صاحب ((كتــابى)) .. هو ذلك الاعلان الغريب الذى حاول أن يقدم به ((ليالى بلزاك)) لجماهير قرائه .. لقد حرص **حلمى مراد** حرصا ظاهرا ، على أن يسجل فى الاعلانات التى نشرها فى الصحف عن هذه المجموعة من القصص انها .. ((قصص ماجنــة)) .. ووضح من شكل هذه الاعلانات ان صاحب ((كتابى)) كان حريصا على ابراز العبارة المتقدمة بشكل يستلفت الانظار اليها .. والى ((المجون)) الذى ينسحب على القصص التى يعلنهم بأنه سيقدمها لهم !

وأنا واثق من أن هذه البراعة فى الاعلان عن ((ليــالى بلزاك)) لابد وأن تكون قد أفادت حلمى مراد ((تجاريا)) فائدة كبـيرة .. ولكنى واثق كذلك من أنها قد أضرت به ((ثقافيا)) ضررا كبيرا .. ومن المــؤكد ان ((حلمى مراد)) سيأسف لهذه النتيجة كثيرا .. الا فى حالة واحدة فقط .. وهى أن يكون ((حلمى مراد .. الاديب)) قد استسلم بغير قيد ولا شرط ((لحلمى مراد .. تاجر الادب)) .. وفى ظنى أن هذا الاستسلام لم يقع !

حلمى سلام

.. هذا ما كتبه ((حلمى سلام)) فى مجلة الاذاعة ، وفيما يلى الرد الذى ارسلته اليه ، تفنيدا لاتهامه :

عزيزى الزميل الاستاذ حلمى سلام

((.. قرأت انتقادك الذى وجهته الى فى مقالك المنشور بعدد ٢٢ مارس من مجلة (الاذاعة) ، بشأن ((صيغة)) الاعلان الذى قرأته فى الصحف من العدد الأخير من ((مطبوعات كتابى)) - (ليالى بلزاك) - وقد كان انتقادك منصبا على أن الاعلان المذكور تضمن عبارة ((قصص ماجنة)) مضــافة الى عنوان الــكتاب !

ويفهم من ذلك اننى - والعياذ بالله - قد ((ابتكرت)) هذه التسمية او ((اختلقت)) هذا الوصف ، بفرض الدعاية للكتاب ، وهو أمر لم تتقبله - على حد تعبيرك المشكور - من ((حلمى مراد ، المفكر الذى قدم ويقدم للثقافة المصرية ، وللمثقفين المصريين العرب ، خدمات مخلصة ، وغنية ، وصادقة)) .. والذى مازلت تنظر اليه ((على انه اديب ، وليس على انه تاجر أدب)) !

وردى على هذا الاتهام حقيقة واحدة ، غاية فى البساطة - بحيث أظنها لم تغب عن فطنتك ، وان كانت قد تغيب عن علم القارىء ((غير المدقق)) لانتقادك - وهذه الحقيقة البسيطة هى أن عنوان ((قصص ماجنة)) ليس ((وصفا)) من وضعى وانمــا هــو الاسم الاصلى لكتاب بلزاك - والاصل الفرنسى لهذا الاسم هو (CONTES DROLATIQUES) - ومنعا للبس حرصت على ذكر الاســم الفرنسى بنصه فى جميع الاعلانات التى نشرت

بالصحف ، كما اوردته باحرف كبيرة فى صدر الكتاب نفسه ، واذا كنت قد فعلت شيئا بصدد هذا العنوان ، فهو اننى ـ على العكس مما اتهمتنى به ـ تعمدت أن « أخفف » من وقع هذا الاسم فجعلته ـ فى جميع الاعلانات بلا استثناء ! ـ عنوانا « فرعيا » صغيرا للكتاب ، وابتكرت بدلا منه عنوانا « رئيسيا » آخر أكثر تحفظا ، هو « ليالى بلزاك » .. ولو كنت اقصد الكسب « المادى » او الرواج « التجارى » حقا ، لتركت ـ على الاقل ـ عنوان الكتاب الرئيسى كما وضعه مؤلفه ، أى « قصص ماجنة » ـ وما كان احد ليلومنى لو فعلت ! ـ ولكننى نشرته فى الاعلان بالخط العريض بدلا من أن أقصيه الى ركن جانبى من الاعلان لم يستغرق من المساحة أكثر من سنتيمترين اثنين فقط ، وبخط صغير ، فى حين جعلت عنوان « ليالى بلزاك » باضخم خط ، وفى مساحة بلغت سبعة سنتيمترات !

أرأيت اذن أيها الزميل العزيز ان المسألة لم تكن « براعة فى الاعلان » بقصد الكسب التجارى ، وانما كانت ـ على العكس ـ « تضحية » بالكسب التجارى ، واقصاء للعنوان الاصلى الذى يجلب الكسب ، وابرازا للعنوان « المخفف » الذى هو من وضعى أنا ولا فخر !

وفى النهاية ، أشكر لك عبارتك الأخيرة التى نفيت فيها مظنة ان حلمى مراد الاديب قد استسلم بغير قيد ولا شرط لحلمى مراد تاجر الادب ، اذ قلت : « وفى ظنى أن هذا الاستسلام لم يقع ! »

لم يقع ، ولن يقع ! ـ اطمئن ياصديقى ، وكن على ثقة من هذا ، لسبب واحـد بسيط : هـو أن حلمى مـراد « تاجر الادب » ، لا وجـود له .. فيما أعلم !

وفى رأيى أن يقينك بأن هذا الاستسلام لم يقع ، كان كفيلا بأن يعصمك من مجرد الشك فى وقوعـه ، ووقوعـه من جانب من ؟ من جانب الاديب الذى لولا « هوايته » للادب وايمـانه به ، ما استطاع أن يصدر (كتابى) و (مطبوعاته) ، ولا استطاع الاستمرار فى اصدارهما طيلة هذه الأعوام ، فى وجه جميع العراقيل والمثبطات التى يمكن أن تخطر بالبال ـ والتى تعرفها جيدا أيها الزميل بحكم اشتغالك بمهنة الصحافة والقلم !

ولولا اننى أطلت ، لسقت لك من موضوعات كل عـدد صدر من (كتابى) أو (مطبوعاته) ، أمثلة وأدلة لا حصر لها : على ان « حلمى مراد الأديب » اذا كان قد نجح فى شىء ، ففى الاصرار على اجتناب الموضوعات « الرخيصة » التى تجلب « الكسب المادى » لأنها ترضى عامة القراء .. واختيار الموضوعات الرصينة التى تضحى بالكسب المادى ، لانها لا ترضى الا الصفوة الخاصة من القراء !

بقى لى عليك عتاب أخير : لماذا لا تنشط أقلام النقاد والكتاب عندنا للكتابة عن أديب الا حين يسىء ـ أو تظن انه أساء ـ أما حين يحسن ويجيد ، فانما تكتفى بان تهمله ، اهمالا جميلا ؟ .. ألست معى فى أن مهمة الناقد أو الكاتب فى كل بلاد الدنيا ، انما هى أن يرشد القارىء الى الكتاب الجيد ،

كما ينبهه الى الكتاب الردىء ؟ اذن فلماذا لم احظ ــ أو يحظ (كتابى) ــ منك بـ « لفتة » أو كلمة تقريظ فى مقال من مقالاتك طوال السنوات الماضية التى تقول اننى « قدمت خلالها للثقافة المصرية وللمثقفين العرب خدمات مخلصة ، وغنية ، وصادقة ! » .. ولم تذكرنى فى افتتاحيتك الا هذه المرة ، حين رأيت منى ما اعتبرته اساءة .. أو « تجارة » ؟

لولا معرفتى بك وثقتى فى اخلاصك لفسرت هذه الظاهرة بالنزعة العامة التى غرسها الاستعمار فى الشرق ، نزعة الميل الى الهدم ، أكثر من البناء ! .. لكن هذه النزعة ــ فى ظنى ــ ليست من خصالك

وتقبل يا صديقى تحيات المخلص .

« حلمى مراد .. الأديب ! »

• **والآن** ، ما رأيك أنت أيها القارىء فى هذه المساجلة ؟ .. **ألست ترى معى أن الموقف الذى رأى فيه الزميل « حامى سلام » مبررا لاتهامى بتهمة « الاتجار بالأدب » ، انما هو ــ على العكس ــ أنصع موقف يبرئنى من هذه التهمة بالذات ؟**

ثم ما رأيك الشخصى ، وقد أتيح لك أن تعرفنى عبر جميع الأعداد التى صدرت من « كتابى » و « مطبوعاته » ، طيلة ستة أعوام : **هل أوحت اليك محتويات أى عدد منها ، بأنى حقا « تاجر أدب » ؟**

ان كان جوابك بالايجاب ، فأرجو أن تصارحنى به دون مواربة ــ وأعدك بأنى سأتقبله منك بصدر رحب !

وان كان جوابك بالسلب ، فأرجو أن تصارح به الزميل الاستاذ حامى سلام ــ (وعنوانه : « رئيس تحرير مجلة الاذاعة ، ١٢ شارع يوسف الجندى بالقاهرة »)

والله ولى التوفيق

حلمى مراد


الساقية
قصة مصرية بقلم: يوسف جوهر

- ١ -

كنت أصبو أن أكون محاميا وكان يصبو أن يكون طبيبا . وكنا فى ذلك الحين مانزال تلميذين فى القسم الداخلى بالمدرسة الثانوية . وكنا نتحدث عن هذه الآمال ونحن جلوس عند ساقية تروى حقلا قريبا من المدرسة ، نداعب بأيدينا الماء الذى تسكبه القواديس فى الحوض ونداعب بخيالنا أمانينا ونمد أعناقنا الى المستقبل . فأنا أرجو أن أكون محاميا بارعا «أفك» من المشانق ، وصاحبى « زكريا » يؤكد انه لن يكون طبيبا فحسب ، بل صاحب مستشفى يتوافد عليه المرضى من سائر أنحاء القطر !.. **وكنا نتمادى فى المنى فنحلم بأن لنا زوجات صغيرات جميلات نغدق عليهن الحب ويغدقن علينا السعادة . وان لنا بيوتا حافلة بالانس يزينها أطفال لهم حلاوة الملائكة وبراءتهم ..**

وكانت الساقية تدور ونحن نتحدث وترسها يئن حينا ، ويغنى حينا ويسكت حينا ، كأنه يغافلنا ويسترق السمع ، وعم « منيسى » صاحب الحقل جالس هو الآخر يصغى الى الغلامين اللذين يتحدثان عن المحاماة والطب والحب بصوت يحاولان أن يكون مسموعا له . ثم يسأم الاصغاء فيقوم ليحث زوج البقر المربوط الى الساقية ، ويحكم ربط العصابة على أعينه وهو يغنى مواله المحبوب الذى ما زلت اذكر منه :

« نجمتين فى السما يشهدوا اننى مظلوم ، واحدة فى برج اليمن وواحدة فى برج الروم . جمل الهوى عضنى ، وجات عضته شوم . هاتوا القلم والدواية واكتبوا على نابه . وان رحت قتيل الغرام يلزموا أصحابه ... »

وكنا نسمع صوت جرس العشاء يدوى فى فناء المدرسة

ينادى الجائعين ، فنلقى السلام على عم منيسى الذى عضه جمل الهوى ،وننقده ثمن ماأكلنا من بطيخ أو قثاء ، ونجرى..

كان هذا من عشر سنوات !

* * *

ما أسرع ماتنقضى السنون ! وما أعجب ذاكرة الانسان !! ان تاريخ تلك الايام محفور فى ذهنى كأنه حدث بالامس ! لن أنسى ذلك اليوم الذى حزمنا فيه الحقائب بعد أن أدينا امتحان (البكالوريا) . لقد آن أن نفترق الى حين ، وأعود الى قريتى قرب (نجع حمادى) ، وينصرف صاحبى زكريا الى (السنبلاوين) . نفترق لنجتمع فى اكتوبر فى القاهرة ، لا فى هذه المدينة التى شاءت الظروف أن نتلقى فيها دراستنا الثانوية سويا ونتعارف فيها . ولم نكن قد رأينا القاهرة وانما كنا نسمع عنها . لن أنسى الحديث الذى ملأنا به الساعة التى تسبق قيام القطار الذى سيقلنى ، ونحن نتمشى على أفريز المحطة . لقد تحدثنا عن (الطب) و (المحاماة) وعن ميعاد الكشف الطبى فى المدارس العليا ، وعن المكان الذى سنقيم فيه سويا فى القاهرة .. الخ

وظهرت النتيجة ، وكنت أنتظر برقية من قريب لى فى القاهرة . لكن البرقية لم تصل ، وكان فى قريتنا طالبان متقدمان للبكالوريا ، وسمعت فى منزلهما الزغاريد . فأيقنت أنه « السقوط » ، وكان « بقطر أفندى » الصراف مشتركا فى « جرنال مصر » فذهبت اليه فى الصباح بعد ليلة ساهرة وبحثت عن (نمرتى) بين (النمر) عبثا ، وانكفأت الى منزلى. فاذا بصديقى الناجح الهمام الوفى زكريا فى المندرة .ما كاد يعلم النبأ المفجع حتى أتى من السنبلاوين يؤدى « واجب العزاء » ويخبرنى أنه « الانجليزى » ، وكانت فى عينى صديقى دموع

وهو يوصينى « بالجدعنة » لانى أخذت فى الانجليزى ٩ والنجاح من ١٦ .

غير انى لم « أتجدعن » قط !.. وظهرت نتيجة الملحق . فاذا بالتسعة تنكمش الى ٧ ! وهكذا كنت أول من أخل بالاتفاق . وذهب زكريا وحيدا محزونا الى القاهرة ليلتحق بمدرسة الطب . وأبت أنا الى القسم الداخلى بالمدرسة الثانوية .. **من هذا الوقت كرهنا الانجليز أنا وصاحبى كرها شديدا ، وصرنا من غلاة الوطنيين الثائرين على القوم ولغتهم ، وكان هذا الكره يتزايد ، وكنت أحس بالحسرة كلما وصلنى خطاب من صديقى وقد وقعه : « فلان ، بمدرسة الطب »** . وكان الذى يزيد حسرتى انه ينادينى بكلمة « أستاذ » تطييبا لخاطرى . وكانت حسرتى تذكى حماستى . فاجتزت امتحان البكالوريا فى يسر وسهولة فى العام التالى .

لكن « زكريا » هو الذى أخل بالاتفاق هذه المرة . فقد « بلط » فى مدرسة الطب . ولما مضيت الى القاهرة لالتحق بالحقوق وجدته يعد حقائبه ليغادر القطر الى (ليون) . فقد ضنت عليه مدرسة الطب المصرية بمقعد الا ان أراد أن يكون طبيب أسنان ، ولم يكن قد حلم قط أن يكون طبيب أسنان .

وهكذا قدر لنا أن نلتقى لنفترق ، وودعنى بعد أن وضعنى فى (البنسيون) الذى كان يقيم فيه ، وبعد أن رتب حوائجى فى الغرفة التى كانت له عند « مدام ريشار » . وشدد على ألا أغادر بيت هذه المرأة الطيبة .

وعدت من الاسكندرية بعد أن أركبت صديقى الباخرة ، وفى حجرتى الجديدة أسندت رأسى الى مكتب رصت عليه مجلدات قانونية ضخمة . وخلت هذه المجلدات هى القواعد العتيدة التى ستقوم عليها أعمدة المستقبل الشامخ .. وخنقتنى العبرات ! كنت أود أن يشاركنى زكريا السعى الى المجد والعلا ، وفكرت فى عمق الحب الذى أحبه لى وأحببته له ،

واحسست اننى وحيد ، فشهقت باكيا ، وكنت فى صباى عنيف البكاء عالى النشيج ..

ووضعت على كتفى يد رقيقة ، فرفعت وجهى فاذا ((بمدام ريشار)) وقد انتشرت على وجهها العجوز ابتسامة وديعة .. واذا بابنتها ((مادلين)) قد وقفت على الباب وعلى وجهها اسمات الحزن !

ما أطيب هذه الام والابنة ، وما أقدرهما على مسح الدموع وازالة الهم والشجن . لقد غنت العجوز دورا تغنيه الام لولدها بعد أن شربت كأسا من النبيذ . وأدارت مادلين الحاكى ، وكانت الاسطوانات فرنسية . فلما رات انى لا أتذوقها ذهبت الى الشقة المقابلة واستعارت من صاحبة لها اسطوانات عربية . وعلى المـائدة عرفت ان الام ارملـة مات زوجهـا فى الحرب العظمى ـ الاولى ـ وترك لها ((جاك)) و ((مادلين)) طفلين ، فما زالت بهما تربيهما من ابرتها حتى شب جاك ، وتعلم الميكانيكا ، وصار صاحب ((جاراج)) كبير . لكنه قتل فى ليلة عيد الميلاد منذ عامين فى حادث تصادمت فيه سيارته بقطار عند مزلقان . فلم يعد هناك بد من أن تخرج مادلين لتعلم الاطفال فى احدى المدارس وتعطى دروسا فى البيانو ، ولم يعد هناك بد من أن تؤجر غرفة مفروشة من مثواها ..

وهكذا أخذت الام والفتاة تحكيان لى عن حياتهما وآلامهما لتسليانى ! **وعلى مائدتهما البسيطة ذقت نعيما جديدا ، وعرفت أن حياتنا معتمة تنقصها الاشــعة التى تشرق من عيون السيدات !**

فى هذا البيت الصغير وجدت متعة بريئة هادئة لم أحصل عليها فى بيتى عند أمى وأبى ، حيث اعتدت أن أرى أمى منهمكة فى العجين والغسيل من الصباح الى المساء وأبى منصرفا الى الحديث مع المزارعين فى المندرة أو مع العمدة فى الدوار أو مع الملاحظ فى النقطة . كانت مادلين تعزف ، وتغنى أحيانا ..

وكنا احيانا نلعب الورق ، أو تدير الحاكى ، وكان يروقنى تندرها وحديثها بلغة عربَية متكسرة !

كنت حتى ذلك الحين لا اعرف المراة الا عن طريق الكتب ! وكنت قد كونت لنفسي عقيدة أنه لاتوجد امراة خليقة بالعبادة والعذاب ، فاذا بمادلين تغير عقيدتى وتقنعنى بأن المراة تستطيع أن تكون أكثر من أنثى ، أن تكون العالم بأسره لرجلها !.. كانت ذات جمال رائع ونفس ذكية . كانت تفهم أدق مايجول فى خاطرى ، من تعبير وجهى ، فتكفينى مشقة اخضاع الكلمات العربية لمحصولها من لغتنا . وكانت هادئة الطبع رصينة ، لاتضع مساحيق ولا تبالغ فى التأنق ، ولا تهمل الصلاة فى خدرها أمام أيقونة العذراء وصورة أخيها .

كم كانت مادلين ظريفة عندما كانت تبتسم لى ابتسامة الصباح وهى خارجة الى عملها ! وقد تتلطف فتمد أناملها الى رباط رقبتى فتهذبه وهى تلومنى فى رفق على اهمال زيى ! فى تلك اللحظة كنت أستنشق عن قرب عطر شعرها ، وكنت لا أستطيع ان أتقى لمحات عينيها تنساب فى نفسى كما ينساب البرق فى الافق ، وكان يهب منها نفس خفيف يشملنى لنتصورى ان فيه رائحة الكبد المحترقة !

وكنت ليلة الخميس أسهر كثيرا وأستيقظ متاخرا فى صباح الجمعة . وفى صباح يوم جمعه كنت ممددا فى فراشى وأنا مستيقظ — ولكن مغلق العينين — وكنت افكر فى مادلين ، واحسست وقع اقدام فى الحجرة ، فرفعت جفنى قليلا فاذا بها مادلين ، وكانت تتقدم على أطراف قدميها ، واذا بها تقف عند سريرى وتسند جبينها الى عموده وتحدق فى وجهى وعلى محياها التعبير الذى ينشده الفتى فى الفتاة . وفتحت عينى فجاة فاذا بها تجفل وتمضى لاتلوى !

اذن فبنفس مادلين مابنفسى ! اذن فلأجترىء على شفتيها وأذق منهما طعم القبلة التي طالما قرات عنها وحلمت بها !

ان مادلين تعود فى الساعة الثالثة . فيجب ان ارتدى ملابسي وأكون على استعداد من هذا الوقت ، حتى اذا دق الجرس هرعت الى الباب وقد عقدت الكرافتة فى الجانب الايسر من عنقى .. وهى لاشك سترتاع وتندفع لتصلحها ، وسترفع وجهها نحوى ، فأهوى بفمى على فمها .. وأختطف منه ابتسامته الهائمة وأطفىء ظمئى . وليكن مايكون !

ودق الجرس .. واندفعت الى الباب ، وفتحته .

لكن مادلين لم تكن وحدها !

كانت معها فتاة مصرية ، وابتسمت المصرية وهى تنقل نظرها بين رباط رقبتى ووجه صاحبتها ، وقهقهت الفرنسية عاليا .. وتصبب جبينى عرقا .

ـ هذه « فكرية » التى حدثتك عنهـا ، اتت اليوم من السفر .

وكانت مادلين قد حدثتنى فى الواقع من قبل عن صديقتها العزيزة « فكرية » التى تسكن الشقة المقابلة ، وعن والدها سعيد « بك » المفتش بوزارة الزراعة ، وعن الاخوة الصغار الذين تتولى فكرية العناية بهم بمساعدة مربية ، منذ ماتت امها ..

وكانت مادلين قد اطرت جمال صاحبتها كثيرا ، فلما رايتها عرفت انها لم تكن مبالغة ، وكانت فكرية بين الحين والحين ترفع عينيها نحوى . وفى تلك اللحظات استطعت ان اقابل نظراتها . فاذا بهذه النظرات تهزنى من اعماقى ، واذا فى عينى هذه الفتاة الجنة والجحيم !

وضمتنى حجرتى فى الليل ، واخذت أفكر ، وشعرت بشىء فى اعماقى يقول لى ان اللحظة التى فتحت فيها الباب كانت من اخطر لحظات حياتى ، وان القدر الذى دفع بفكرية أمامى فجاة قد قضى بلفت قلبى الذى كان يجرى نحو مادلين لفتة شديدة غامضة النتائج ، وخلت ان الماضي بحسناته وسيئاته

قد انمحى ، واننى لا أعرف شيئا فى الوجود غير .. عينى « فكرية » !

ومضت الايام ، وكانت فكرية تزور صاحبتها كثيرا ، وكنت القاها واتحدث اليها ، وعرفت مادلين بفطنتها ذات نفسى ، وخيل الى انها صدمت وحزنت لما عرفت ، لكنها كانت ذات كبرياء . فاستعادت توازنها سريعا ، وادهشنى انها تمهد لى السبيل الى قلب فكرية !

ولم تقم فكرية فى الطريق الى قلبها عقبات كثيرة !

فى ذات مساء ذهبت الى السينما فى صحبة مادلين وأمها وفكرية . وجاءت جلسة فكرية الى جانبى ، وكان موضوع الرواية يبعث على الحزن ، فلما بلغ قمة التأثير رأيت فكرية تسند رأسها الى كتفى وتجعل شعرها الحريرى يلامس خدى ، فتناولت كفها وأبقيتها فى كفى .. فلم تسحبها !

وأضىء النور ، فرأيت عينيها مخضلتين بالدمع ، وقرأت فيهما اننا .. قد تفاهمنا !

عبثا حاولت أن أنام تلك الليلة .. ودقت الثانية بعد منتصف الليل ، وكانت دقاتها لم تفتنى منذ العاشرة ، فيئست وذهبت الى الشرفة . فاذا فكرية واقفة فى نافذتها . وارتدت وكل منا يحاول أن لا يراه صاحبه !

كان الصباح صباح أحد ، وخرجت مادلين وامها الى الكنيسة ، ولم أجد فى نفسى الرغبة فى الذهاب الى المدرسة فجلست فى الشرفة .

ودق الباب ، فاذا بفكرية فى ثوب بسيط من ثياب المنزل ، تسأل فى تردد عن صاحبتها — وكنت واثقا أنها تعرف أن صاحبتها فى الكنيسة ! — ثم استأذنتنى فى أن تدخل لتختار بعض اسطوانات مادلين . وكان واضحا من اضطراب أناملها وهى تقلب الاسطوانات انها ليست جادة . وحاولت أن انتهز الفرصة وأن اقول شيئا ، لكن شجاعتى خانتنى ، واضطرت

هى ان تحمل ما اختارت وأن تمضى الى الباب ، وعنده مدت يدها مودعة . غير أننى لم أترك يدها ، وسألتها من حلق جاف: « ليه كنت سهرانه امبارح ؟ » ، فابتسمت وأجابت : « وليه كنت سهران ؟ » ، ونظرت فى عينيها . كان واضحا أنهما تقولان: « انى لك »

وأغلقت فمها بقبلة ..

قبلتنى الاولى على فم امرأة ! القبلة التى كنت أقدر انى سأضعها على شفتى مادلين !

لكن لماذا ارتجفت وارتعدت ! ماهذه القشعريرة التى سرت فى بدنى ؟! وكيف تشعل القبلة الحمى فى جسد فتى صحيح فيضطر ان يلجأ الى فراشه ويتدثر بغطائه وقد تصبب جبينه عرقا ! .. الان اعرف سر الرعدة والحمى ، واعلم لماذا انكفأت ابكى . هذا الشىء الذى يغفو ويستتر فى أعماقنا ثم يصحو ويباغتنا .. الضمير ! **ماكان امر هذا الانتصار ! لقد شعرت أننى فقدت طهارتى وسقطت من سمائى وصرت خاطئا . كان ضميرى يقول لى انى دخلت الجحيم من فم فكرية !**

مازلت الى الآن ـ وقد مضت تسع سنوات ـ أذكر الحزن الذى سببته لى هذه القبلة..



وما زلت اذكر كيف مات رأيى فى الطهارة رويدا رويدا . وكيف صرت أحزن ان مر يوم لا اقبل فيه فكرية قبلات جنونية هائمة. لقد صارت هذه القبلات « الخبز » الذى أحيا به !

وعلى هذا الخبز عشت ثلاث سنين . كان لحجرتى باب على السلم ، وكانت فكرية تأتى الى فى الليالى التى يغيب فيها

والدهـا وتطعمنى من خبزها وحنانهـا كطفل رضيع .

وكنا نتحدث عن المستقبل والسعادة الآتية وجنة الزواج . لقد بقيت سنة وأحصل على الليسانس ، وأصير رجلها !

لم نترك شيئا الا تحدثنا عنه : الاثاث ، نظام البيت ، البيانو طراز الغرف ، الالوان . هل سأسمح لها أن تضع أصباغا .. طالما الحت على أن أحكى لها عن أمى واصفها لها . طالما تمنت أن يحضر أبى من الصعيد لزيارتى لتراه ولو من بعيد ..

.. وليت السماء لم تجب هذه الامنية !.. كنت ذات مساء عائدا من السينما فى صحبة الفتاتين . وكنا قد سمحنا لانفسنا بشىء من الجعة . وكان الطريق أمام المنزل خاليا فأخذنا نعدو : مادلين فى يمينى وفكرية فى يسارى . فلما اقتربنا من الباب رفعت وجهى الى الشرفة فاذا بأبى واقف فيها ! ولم يكن قد أنذرنى أنه قادم !

ولم تخف عليه رائحة الجعة ! وسألنى فى برود عن الفتاتين، ثم لم يزد على أن قال : « **يا خيبـة أملى . لم أكن أعـلم انك « خسرت » فى مصر !** »

— ٢ —

أمضى ليلته على السرير الى جوارى ، لكنه لم يحدثنى بكلمة واحدة . وفى الصباح رفض أن يمس طعام الافطار . وقال لى وهو يضع عباءته على كتفه : « بقيت ثلاثة أيام على اجازة عيد الفطر . تعال الى البلد فى الحال فقد عزمت أن أعقد لك على ابنة عمك (صديقة) قبل أن تضيع .. »

ولم أتردد فى أن أجيب : « لا أستطيع أن أتزوج صديقة » .. وهنا ثار . وكان (لاروس) على مقربة منه فتناوله وقذفنى به ، وهو يصيح : « طبعا ده اللى كنت انتظره . حضرتك داير مع بنات الافرنج . انى منتظرك فى أجازة عيد الفطر فان

لم تحضر فاياك أن ترينى وجهك مرة ثانية . ولن يصلك منى مليم واحد ! » وخرج ..

* * *

لم أكن قد فكرت من قبل فى « صديقة » تفكيرا جديا . لا لانها كانت قبيحة ، بل لانها كانت فى الثالثة عشرة ، وكانت صغيرة القد ولم أكن اشتهى أن أتزوج لعبة . وكان عمى أغنى منا بكثير . وكان أبى يعتمد على الاطيان التى يستأجرها منه . وكنت اشم رائحة هذه الكبرياء فى معاملة ابنته لى .. ولم يكن أبى فى الحقيقة يرمى أن يزوجنى صديقة بل أن يزوجنى الارض ! فقد كان لها أخ وحيد مريض بالسل يقضى أيامه فى مصحة حلوان . ولم أزره مرة الا لمح لى فى حسرة انه ذاهب وانى سآخذ الارض مع أخته ! وهذا مانفرنى من هذا الزواج وجعلني أجيب أبى من غير تردد أنى لا أستطيع أن أتزوج صديقة .

وزنت كل شىء فى نفسى ، ثم صممت الا أسافر الى البلدة مهما يحدث . وبقيت فى القاهرة معذبا تنهال على نفسى مطارق ذات أسماء متعددة : غضب أبى ، حب فكرية ، لن يرسل مليما واحدا . التخلى عن الفتاة التى وعدتها بالزواج ولوثتها بقبلاتى !

وكنت أعرف أن أبى رجل عنيد وانه تعود أن يطاع ، فكررت يدى على الجنيهات القليلة التى لدى ، وبعت ساعتى الذهبية ، ووطنت نفسى على اتخاذ « ساندوتش الفول » طعاما أساسيا . وكان القسط الاخير لحسن الحظ قد دفع فأيقنت انى أستطيع أن أقاوم بقية العام . وكان قد بقى على الامتحان ثلاثة شهور .

وانقطعت رسائل أبى . واخذت أعيش عيشا مريرا حتى ظهرت النتيجة ، فاذا بى منقول الى السنة النهائية ، واذا بى من أوائل الناجحين .

وكنت احسب ان أبى سيرق لى لما يرى تفوقى ، لكن كل املى فى صفحه قد تلاشى . فقد وصلنى خطاب من أمى بخط مأذون القرية تنبئنى فيه ان عمى عرض على أبى يد ابنته لى ، لان خاطبا غريبا جاءها ، وأن أبى عز عليه أن يعرف عمى أنه لايستطيع أن « يحكمنى » فسكت . واعتبر عمى السكوت رفضا ففضب وزوج ابنته لحكيم مستشفى الانكلستوما ، وانه انتهز فرصة خيبة المحصول فتذكر مديونيته فى بضع مئات من الجنيهات ورفع الدعوى ، واخذ حكما ، وبدأ ينزع الملكية !

.. ويستنزل المأذون — سامحه الله — على رأسى بلسان أمى غضب الارض والسماء ويذكرنى بسقر وعذاب السعير !

* * *

وانقضت الاجازة المدرسية . دون ان يتذكرنى ابى بقرش . وايقنت انه قد نبذنى وانه لن يرسل أقساط المدرسة . وفكرت فى الموت ، غير أن الامل عاودنى لما أعفتنى المدرسة من المصروفات . ولم تكن فكرية تخفى شيئا من حالى عن مادلين ، فاذا بمادلين تجاهد حتى تجد لى سيدتين أعطيهما دروسا فى اللغة العربية لقاء أجر لابأس به .

ولقد افتديت بكل ما استطيع مقامى الى جوار فتاتى ، لكننى كنت انحدر الى البؤس انحدارا سريعا . ولم يكن من المروءة ان ابقى فى الغرفة التى تؤجرها مدام ريشار لتعينها على العيش . فأجمعت أمرى وأخبرت مادلين ذات مساء انى راحل فى الصباح ..

ما أنبل هذه الفتاة ، وما أرحم قلبها ! لم اكد أتهيأ للنوم تلك الليلة حتى سمعت نقرا على الباب ، ودخلت مادلين وفى يدها النقود التى تركتها على المائدة وفى عينيها دموع ! لقد بكت وهى تتوسل الى ألا اذهب ، لانى رددت لها راحة الفؤاد التى فقدتها بفقد أخيها . كم حاولت أن تقنعنى بالبقاء . ان



لها نقودا فى البريد تستطيع ان تقرضنيها لاسد منها حوائجى وادفع منها اجر الغرفة لامها ، ولن يعـرف أحـد ! .. حتى فكرية !

لكنى لم اكن استطيع البقاء . وقنعت بغرفـة رطبـة فى حى فقير . وكنت سعيدا فى هـذه الغرفةالضيقةالتى وسعتآمال الحب واطماعالمستقبل .كانت فكرية توافينى وتأسو بيديهـا الرحيمتين جراح قلبى . وانصرفت بكل قواى الى الدرس ، لانجح وامسح عنوجهها بسمته المحزونة .وصار حبهاوحنوها سلاحى فى كفاحى !

كنت أحيانا أمل العمل وافتر . ثم كانت تأتى فجأةوتسكب نور عينيها فى عينى فأشعر أن صدرى يضىء ، واحس كأن قلبى طائر يصدح ويغنى ، وتمتلىء نفسى بحب الحياة . فى تلك اللحظات كنت أحس أن سعادتى ترهقنى واننى عاجـز عن شكر السماء ، فتنحدر من عينى دموع من فرط الحنان والشكران . وتنطلق نفسى الى العلا تنشد نجمها بين المع النجوم ..

وفجأة تحطمت القيثارة ..

كانت فكرية تأتى كل أسبوع . لكن هاهوذا شهر يمضى . لم تأت ولم ترسل حرفا ! .. وذهبت اسأل مادلين فعلمتمنها ان فكرية قد « عزلت » وانها لم تترك عنوانها الجديد .. فنزلت يائسا ، شاكا فى صدق مادلين !

وانقضت شهور وانا انتظر فكرية عبثا . وأيقنت .. انها الخديعة .

وذات مساء ..

كنت واقفا فى شارع عماد الدين عند سينما النصر فاذا بها قادمة تتهادى وذراعها معلقة فى ذراع شاب أنيق . جميلة فاتنة كما هى . لايبدو فى وجهها ولا ظل الهم الذى أعانيه ، بل ينطق بأنها شديدة الاقبال على الحياة . فقد اذاعت فيه الاصباغ بجرأة لم اعهدها فيها من قبل !

واضحت مسرفة فى التبرج !.. وأطفئت الانوار ، واستطعت ان اجلس خلفها ، فاذا بضحكاتها الناعمة تنطلق من صدر مطمئن مفعم بالسعادة . واذا بها تميل على صاحبها وتسكب فى اذنيه من صوتها الموسيقى وهمسها المعبود .. ويدها تغطى يده ، ورأسها يميل الى كتفه ، وشعرها الحريرى يلمس خده !

فكرت ان افاجئها ، لكنى وجدت شفتى تختلجان ولا تضبطان كلاما ، واجزاء وجهى ترتجف ، فتماسكت .. وانسللت الى الخارج .

* * *

كنت احسب ان « صنم » فكرية سيتحطم فى نفسى بعد هذه الضربة . وان اياما قليلة ستمضى ثم ينجاب شبح الماضى فاذا بى احس ان جذور آلامى تتعمق فى صدرى ! واذا بحبى حى جديد لم تبله الايام ولم يطفئه الدرس والتأمل والتأسى بأن الحب دائما تجربة غير ناجحة ولا موفقة ! عشت فى دنيا غريبة غير دنيا الناس ، أصارع اشجانى وادافع خيالاتى واتملق احلامى ! اينما ادرت بصرى كان يباغتنى وجهها !.. واتلفنى شوقى ، واضلنى اساى وهواى ، ويئست من نفسى ، واسلمت قيادها للاحزان .. ومضيت فى دراستى ولكن بغير روح . كنت اقرأ ، ثم استعيد ماقرأت ، فاذا بيد خبيثة قد مسحت

عن ذهني كل شيء ، واذا بي صاحب ذاكرة مطفاة وفهم مريض. كنت أعتقد أنني سأخفق في امتحان الليسانس ، لكن حدثت الاعجوبة . ونجحت !

واذا بفكرية في حجرتي !.. قالت :

« كنت أقرأ (الاهرام) ورايت اسمك بين الناجحين ، وذكرت الماضي فجئت اهنئك . لطالما حلمنا سويا بسعادة الليلة التي تحصل فيها على الليسانس . وتواعدنا ان نقضيها متعانقين. وها أنا أبر بوعدي . لقد خنتك ، خنتك ، لكنني لك الليلة . الليلة فقط . وغدا لغيرك . لم أجيء لاخدعك .. انني مخطوبة .. »

ودنوت منها ولطمتها على وجهها ، على خديها ..

ووقفت تبكي وهي خافضة الرأس . ووجدت لذة في بكائها . لقد ظللت طويلا مهملا مظلوما ، فاشتقت أن أكون ظالما !

وكنت أنظر الى وجهها وهي تنتحب وصدرها يعلو وينخفض، وكنت أحاول أن الون نظراتي بالاحتقار والازدراء . لكنني لم أستطع ! وجدت غضبي ينجاب شيئا فشيئا . لقد كرهت الناس ونفسي ، لكني لم أكرهها ! هذه الغرفة لم تصبح حقيرة رطبة ضيقة الا يوم فارقتها !

وأنت روحي أنينا عاليا ! هذه خلاصة النبل والخير التي خلتها في الدنيا ، تتكشف حقيقتها فاذا بها غادرة ، أحبت ثم خانت !

هذه هي الفتاة التي احببتها حبا دمرني .. التي وهبتها قلبي ، ووضعت فيها أملي ، وأودعت عندها رجاء شبابي ، ومنحتها من نفسي كل شيء حتى لم أعد شيئا .. تأتي لتسخر مني ، لتقول لي أنها لم تعد لي !.. فلماذا اتت ؟

وهممت أن أطردها . لكنها القت بنفسها على وأحاطت عنقي بذراعيها ودفنت وجهها في صدري وهي تجهش : « **قبلني .**

قبلني فى فمى . انزح قبلاتك القديمة التى سكبتها فى روحى . لقد احسست ان نفسى ممتلئة منك فأتيت اليك لتفرغ ما بنفسى من هواك . اريد أن أذهب الى الآخر فارغة . ولن أعود اليك . انا مجنونة . خطيبى غنى ووجيه وجميل وعنده سيارة . باعنى أبى للمظاهر ورضيت انا . لكن كن لى الليلة . ان ابى مسافر ، كن لى ، ودعنى . ثم عد الى سمائك ! »

وحاولت أن أبعد ذراعيها . حاولت بفكرى فقط . لكنى لم أبد حركة ! احسست أن هذين الذراعين سلاسل قوية لاتقاوم . ارتددت الى السحر القديم ! .. وتساقطت دموعى فوق دموعها عندما اطللت على روحها من عينيها . كانت شاعرة انها آثمة ، ورحمت ضعفها ، وفهمت رغبتها فى أن تكون لوقت قصير محبة محبوبة ، حبا صادقا !

وكاننى سكرت من النظر فى عينيها ، وكان سكرى انسانى خطيئتها ، فرحت أنشد بين احضانها حلمى الذاهب وأملى الذى خاب . فلما وقع صدرى على صدرها الذى كان عش احلامى حنوت عليه كما يحنو الطائر على وكره المهدم . أحسست أن هذا الصدر هو فردوسى المفقود يرفرف فيه شبابى بأجنحة متكسرة توشك أن تتساقط . وحلمت اننى أمسك تلك الاجنحة وأسمع حفيفها واذوق حلاوة الامانى لآخر مرة ، فمضيت أشدد الضغط على صدر التى احببتها ، واجمعه بين ذراعى ليتذوق قلبى عن قرب حفيف الاجنحة الذاهبة ، ولتستروح نفسى الولهانة النسيم الذى تتخبط فيه تلك الاجنحة ويتدفق مع انفاس فكرية ..

هيه .. لقد ظفرت بساعة سعيدة كلها تذكارات ، عذوبتها فى مرارتها .. خدعنا الزمان وعشنا فى الماضى ، أم الزمان خدعنا واوهمنا اننا فى صباح حبنا لا فى مسائه! لست ادرى !.. وان كنت أدرى اننا تواعدنا أن نلتقى وكل يرى فى عينى صاحبه أن هذا لن يحدث ، لان الكاس التى كنا نشرب منها قد تصدعت،

واعطت في تلك المرة الاخيرة خمرتها الاخيرة . حتى فى هذا اللقاء الاخير كانت الخمرة تنساب من شقوق الكاس . وعندما سحبت يدى من يدها وهى تغادر غرفتى احسست ان الكاس قد انشطرت !

* * *

ومضت سنون لم ار فيها فكرية ولم أسمع عنها . وكنت قد وفقت فى المحاماة وافتتحت مكتبا فى القاهرة . وذات مساء دخلت مكتبى فوجدت سيدة فى انتظارى ، واذا بهذه السيدة فكرية ! وفي يدها ابن فى الرابعة ! وطالعت فى وجهها انها .. غير سعيدة !

قالت : « لو كنت املك اجر محام لما جئت لك . لا حق لى أن اظهر فى حياتك ، لكننى لم اجد مفرا . انت المحامى الذى يرضى أن يدافع عنى بغير أجر . لقد خاصمنى زوجي وطردني وطفلى . وقد استصدرت عليه حكم نفقة من المحكمة الشرعية منذ سنة ونصف . لكننى لم استطع التنفيذ . ولما رأى أن النفقة تجمدت باع عقاراته بيعا صوريا حتى لا افكر فى نزع الملكية . وقد لجأت اليك لترفع دعوى بابطال البيع . ان لم يكن من أجلى فرحمة بهذا الطفل الجائع . لقد مات ابى وليس لى نصير .. »

ورفعت القضية ، وترافعت ، كانت موكلتى واقفة الى جانبى وزوجها واقف الى جانب محاميه . ولم اكن قد توقعت قط ان القدر سيجمعنا على هذه الصورة فى ســـاحة القضاء ، فاضطربت ، وابتسم القاضى من اضطرابى . وتغامز زملائى وانا أتكلم . وهمسوا فى أذنى انى معذور ، فان جمال موكلتى يهز الاعصاب ! .. واجل القاضى النطق بالحكم اسبوعا . وفى اليوم المحدد حكم لمصلحة فكرية !

وفي المساء ، ذهبت الى مكتبى فوجدت الزوج ينتظرنى !

واذا به يرجونى ان اتوسط فى الصلح بينه وبين زوجه على ان تتنازل له عن متجمد النفقة . لكنى رددته ، فثار وصاح بى ان موكلتى لا تستحق اشفاقا ، وان لها عشاقا ! ورمى على المكتب حزمة من الرسائل وهو يقول : « طالع غراميات موكلتك ! »

ونظرت فى هذه الرسائل فاذا بها جميعا من خط يدى ! الكتب التى ارسلتها الى فكرية فى شهور الصيف أثناء وجودى بالريف ! فلاحظت له أنها رسائل قديمة يبدو انها سطرت قبل الزواج وقبل أن تعرفه فأجاب فى صرامة ان كاتبها لم يضع لها تاريخا ، وانه يستطيع ان يستعملها ضدها ، وان سبب الخصام انه فاجأها وهى تقرأها ولم يحجم عن التشهير الا رحمة بالغلام ..

وكان يتحدث وكنت افكر : **هل رحم هو غلامه أم أن الله رحمنى !؟ ماذا كان يحدث لو اطلع الزوج محاميه الذى يعرف خطى على هذه الرسائل . او نشرت هذه الرسائل أمام منصة القاضى ، لو صرخت فكرية ولم تحتمل ، وباحت ! !**

وفى هذه اللحظة ، والرسائل منشورة أمامى ، والزوج يرغى ، دخلت فكرية تسأل عن الحكم ، ولم تكن قد عرفته ، ولاحت منها التفاتة الى المكتب فرأت الرسائل وعرفتها ، وفهمت من تعبير وجهها انها تصورت ان الامر قد افتضح فوقفت مصعوقة حائرة ، كظبى حاصره صياد ! ولا ادرى كيف بادرتها قائلا : « يؤسفنى ياسيدتى ان اخبرك ان الحكم صدر ضدك . رفضت دعواك . لكن زوجك رجل كريم . لقد اتى يطلب منك ان تعودى اليه . وان تستأنفا الحياة مع ابنكما . وقد احضر لى هذه الرسائل كى أمزقها دليلا على انه سينسى كل شىء بشأنها على اعتبار انها وصلتك قبل الزواج من شاب طائش »!

وكنت أمزق الرسائل وانا اتحدث . والزوج ذاهل .. ولكنه على كل حال خرج راضيا وابنه على ذراعه وزوجته

وراءه . بل انه كان مسرورا ، لانه افتدى بهذه الوســـائل متجمد النفقة !

وكنت أظن انى لن أرى « فكرية » مرة اخرى

غير أنها عادت بعد شهر ..

وكانت هذه المرة ترتدى ثوبا أسود . .وحدثتنى ان زوجها كان يخطو من عربة الى عربة والقطار سائر فسقط بين العربات ومات .. وانها أتت الى لانصفها من أخوة زوجها واصـون حقها فى الميراث ..

* * *

ومنذ أيام ..

قصدت الى المدينة التى تلقيت فيها دراستى الثانوية الى جانب صديقى (زكريا) لاترافع فى قضية . **وفى الغروب حملتنى قدمى الى حيث توجد الساقية التى كنت أجلس عندها مع صاحبى منذ عشر سنوات .. فاذا بها باقية كما هى !** واذا كل شىء كما كان ، الا ذقن عم « منيسى » التى صارت صـافية البياض بعد ان كان لونها لا الى البياض ولا الى السواد . وجلست انظر فى المـاء المتساقط وأحدق فى القواديس وهى ترتفع وتنخفض ، وقد نما عليها الطحلب وصارت لها كسوة خضراء ! واخذت اصغى لصرير الساقيـة ! وسمعت جرس العشاء ينادى الجائعين من تلاميذ القسم الداخلى . فذكرت زكريا ، واحسست انى جائع ، وودت لو اجرى نحو المدرسة كما كنت افعل فى الماضى .لكننى ذكرت الشارب الذى يثقل شفتى ، واحسست ان العشر سنين تسقط كلها أمام ناظرى وتكون حائطا يفصلنى عن صباى . وانصرفت أحدق فى زوج البقر وقد عصبت أعينه واخذ يدور ويدور !.

هل كنا أحسن حالا أنا وصديقى زكريا من هـــذا البقر الاعجف المعصوب العينـين ! الم يـكن « الآتى » محجوبا عن

أعيننا ! أكنت أعرف أننى سألتقى بمادلين وبفكرية ! .. وان زكريا سيذهب الى فرنسا ويعود بعروس من عرائس السين تموت على ضفاف النيل بعد سنة وهى تضع ابنها البكر الذى كان برا بها ففاضت روحه مع روحها !؟

كان صاحبى زكريا ما يزال جالسا معى عند الساقية . كأن حديثه مايزال مخزونا فى جو هذا المكان : **« سأصير طبيبا عظيما وسيكون لى مستشفى اسمه مستشفى الدكتورزكريا. وسنأتى الى هذا المكان فى صحبة زوجاتنا ، من أجل الذكرى ، زوجتى فى ذراعك وزوجتك فى ذراعى واطفالنا امامنايمرحون. أول أبنائك يحمل اسمى واول ابنائى يحمل اسمك .أولى بناتى باسم زوجتك وأولى بناتك باسم زوجتى . سنكون سويا دائما . لن نفترق . هذا عهد ! »**

مسكين زكريا . لقد قدر لكن الاقدار ضحكت . هاهى ذى عشر سنوات قد مضت وليس له زوجة . وليس لى زوجة. وليس لنا ابناء . ولم «افك» انا حبلا واحدا عن رقبةمشنوق. ولم يصر صاحبى طبيبا عظيما ولا صاحب مستشفى ! كل زبائنه من الخيل والبغال والابقار التى تملكها وزارة الزراعة، فقد لعب فى فرنسا وعاد طبيبا بيطريا فقط ، ووظف فى الحكومة وألف القعود ، ولم يعد الغلام النحيل الجميل بل اكتنز جسمه شحما ولحما ، وتدلت تحت ذقنه حقيبـــة تحوى أقة من الدهن .. كم أشفق عليه كلما زرته فى محل عمله فوجدت العرق يقطر من وجهه ومن حوله « الجـــداوى » وادوات « التطبيق » . وكم ادهش كلما دخلت عليه فى بيته فوجدته «يهوم» فى كرسيه او يقرأ فى كتب صفراء حواشيها أطول من متونها . يحدثنى عن النخشبندى والقلقشندى ، ويحاول جهده ان يفر من حاضره ويدفن حياته فى مجاهل يختفى فيها عن ذكرى زوجته الغزيزة الراحلة ..

عند الساقية اخذت الذكريات تساقط شجنها فى قلبى كما

تساقط القواديس ماءها فى الحوض . وظللت أصغى لقلبى وهو يمتلىء . فلما طفح بالهم وفاض الهم فى نفسى وقفت ، وقفلت راجعا ..

وألقيت نظرة ورائى وانا أسير ، فرأيت عم « منيسى » واقفا يغنى مواله القديم « جمل الهوى عضنى ، وجات عضته شوم » وهو يحكم وضع العصابة على أعين بهيمته ..

والترس يصر كانه يحكى قصتنا ساخرا ..

والساقية تدور ..

... ...

قلت لمحدثى « الاستاذ بهجت » وهو يرفع كأسه الى شفتيه : « انها تدور فى رأسك ! »

وناديت جارسون « الكازينو » لادفع له الحساب . لكن بهجت طلب كأسا أخرى . فلما ذهب الساقى ليحضرها سألته: « ومادلين ؟ ماذا جرى لها ؟ »

قال « صه ! »

وكانت تمر امامنا وقتذاك غادة تدفع امامها عربة طفل . فلما اجتازت رفع كأسه الى فمه واجابنى من وراء الكأس وهو يبتسم : « انها هى . انها زوجة صاحب الكازينو ! »

ففهمت سر اقباله على الشراب ، وسر حبه لزكريا ، وسر تردده على هذا الكازينو بالذات ..

حوافز الحياة



النفس والجنس .. والمجتمع ..

عزيزى القارىء ..

فى هذا الباب قدمنا لك فى الاعداد الماضية ، الكتب الآتية :

• كيف تصارح اولادك وبناتك بالحقائق الجنسية • طريق السعادة الزوجية • مركب النقص • حواء الجديدة • كيف تقهر الخجل • كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة • فنون الحياة : فن الحب ، فن الزواج ، فن الحياة العائلية ، فن الصداقة ، فن العمل ، فن الزعامة ، فن التفكير ، فن الاستمتاع بالشيخوخة • غزو السعادة • التحليل النفسى فن الحب (لأوفيد) • الانتصار على الخوف • عش بحكمة تعش سليما • كيف تتجنب متاعب الأعصاب المرهقة • تاريخ الغزل • كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة • اتح لعقلك حياة جديدة • دنيا الحب والسعادة حب وجنس وخيانة • السلوك الجنسى عند الرجل • فى بلاد العراة • السلوك الجنسى عند المرأة • ارادتك ملك يديك

واليوم نقدم لك كتابا جديدا :



كيف نتجنب العمل؟

الكتاب الذى يجعل من عملك هواية

تستطيع أن تتفادى العمل وتحظى بأرقى المناصب !

• ان تفادى العمل وتجنبه ، رغبة تستهوى الغالبية العظمى من الناس .. كما يستهويهم - فى الوقت نفسه - المجد والمناصب الرفيعة !.. وفى الكتاب الذى نقدمه اليك فيما يلى ، والذى ترجم الى عدد من اللغات - بينها اليابانية والهندية - يحاول الدكتور « وليم رييللى » - العالم النفسى والباحث الاجتماعى الانجليزى - أن يبين لك كيف تتفادى العمل .. بالعمل !

وليس فى هذه العبارة مغالطة ما .. ولكنا لن نفسرها لك هنا، بل نؤثر أن نترك لك مهمة البحث عن تفسيرها ، فى سياق هذا التلخيص الوافى ، الذى نرجو أن يساعدك على أن تشق طريقك - بخطى واثقة معتدة - الى النجاح ، والى أرقى ما تشتهى من مناصب ..

فتعال معى نسعى الى أرقى المناصب وأكثر الاعمال نجاحا .. بدون أن « نعمل » !

• **فكرة** مضحكة تلك التى يعتنقها معظم النـاس ، والتى تزعم ان كل مايدر دخلا هو عمل .. وكل ماعدا « العمل » لهو .. فما أبعد هذه الفكرة عن المنطق السليم !

كان لى صديق يعمل مهندسا لقاطرات السكة الحديدية ودائما ماكان يجد لذة كبيرة فى ركوب القاطرة وممارسة عمله فيها .. فاذا ما عاد الى بيته ودعته زوجته الى زيارة بعض الاصدقاء ولعب الورق معهم ، شاع فى نفسه السأم ، وحاول التهرب من الزيارات واللعب ، اذ كانت - بالنسبة اليه - عملا أكثر ارهاقا ومضايقة من وقوفه فى القاطرات !

ولعل فكرة ارتباط العمل بالدخل ، هى السبب فى كل مايلاقيه الناس فى أعمالهم من ملل وكراهية . وقد دلت دراساتنا على أن معظم الناس لايشعرون بمتعة فى اداء أعمالهم، بل انهم يتمنون أن يتخلصوا منها ليمارسوا سواها !.. فما

رأيك أنت فيما تمارس من مهنة أو حرفة : أتراها عملا فرض عليك اداؤه ، أم هى هواية ممتعة لك ؟ . . اذا كانت عملا ، فمن الحكمة ان تتخذ خطوة ايجابية نحو هجرها ، فان حياتك أقصر وأثمن من أن تبددها فى العمل . ولا تجعل من نفسك سمكة موضوعة فى قدر فوق النار ، ترتفع بها الحرارة تدريجا وهى لاتجد من نفسها الارادة الكافية لتقفز من القدر ، فلا يلبث أن يأتى عليها وقت تعجز فيه ـ مرغمة ـ عن القفز ، فتموت !

ومن الخطأ مايعتقده الكثيرون من أن الانسان اذا مابدأ فى نوع معين من العمل فانه لا يستطيع أن يغيره . فالواقع انك تستطيع أن تغير عملك بعمل آخر يتلاءم مع طبيعتك ، مهما تكن ظروفك .. ومهما يبلغ بك العمر ، فسوف تجد الفرص سانحة ـ على الدوام ـ للاندماج فى المحيط العملى الذى يروق لك . ولن تشعر بأن حياتك قد بدأت فعلا ، الا عندما تمارس العمل الذى تشعر برغبة حقة فى أدائه . فالطبيب الذى لمس نبض الحياة ، وشهد سكون الموت ، لايشعر بأنه مقبل على عمل ، عندما يحرم نفسه من حفلة ليتولى عملية ولادة . والنجار لايشعر بأنه يعمل ، عندما يعكف على صنع قطع من أثاث يعجب بها . والام لاتشعر بأنها تؤدى عملا ، حين تعنى ببيتها وأولادها ، بل انها تقول : « ان ماتؤديه لاولئك الذين نحبهم ، لايعتبر « عملا » ، مهما يكن شأنه !.. وانى لاعتز بأسرتى الصغيرة ، وما أتعبتنى رعاية أفرادها يوما ، فكل ما أبذله لهم متعة ولهو لى ! »

والواقع أن المرء اذا ما وجد نفسه فى عمل يكرهه ، فانه لايلبث ان يبدى نفوره منه ، بان يصدر فى تصرفاته عن ضيق واكتئاب .. وبان يشعر بالتعب يدب اليه سريعا ، ويصبح فريسة لسوء الهضم ولاضطراب النوم . فاذا استمر فى كتمان

ضيقه ، انقلب الى متمرد ، متذمر ، يضيق بالناس ، ويكره الدنيا .

فما أبعد الفارق بين ابتهاج المرء اذ يمارس عملا يحبه ،وبين تجهمه اذ يمارس عملا يشعر بأنه مكره على أدائه !

كيف تتفادى العمل ؟!

• **والواقع** أن الدنيا لاتلبث أن تصبح أكثر بهجة واشراقا ، لو ان كل امرىء عمل فى الجو الذى يستهويه ، وفى المحيط الذى يحلو له . ذلك لان الناس يغدون ـ بهذا الوضع ـ أكثر انتاجا ، وأعظم مقدرة على التجديد والابتكار

وفى وسعك أن تتجنب ((العمل)) ، اذا أنت مارست ماتحب . لان العمل ـ فى هذه الحال ـ يصبح ((هواية)) ممتعة .. لذلك كان حتما على المرء أن يتبين ـ أولا ـ نوع العمل الذى يهواه ويحب أن يؤديه !

ولست أقصد ـ بهذا الحديث ـ الرجال وحدهم ، وانما أقصد النساء كذلك . فالمرأة فى حاجة الى العمل هى الاخرى، لتكسب شخصيتها قوة تنبو بها عن الركود الذى تركن اليه النساء اذا لم يؤدين أية أعمال . وحسب المرأة أن تنخرط فى سلك عمل بسيط تؤديه خارج البيت ـ ولو لم تكن بها حاجة مادية اليه ـ فان ذلك يكسب شخصيتها توازنا قد تفتقده فى حياة الخمول

فماذا تريد أن تعمل ؟.. ما الذى تحب أن تعمله ؟

ان الاجابة عن مثل هذا السؤال ، تتوقف ـ الى حد كبير ـ على سنك وتجاربك . فاذا كنت لاتزال فى مرحلةالدراسة ، ولم تتكون عندك بعد رغبة مسيطرة فى عمل معين بالذات ، فخليق بك ان تتريث قبل أن تبت فى الامر . وافتح عقلك ، وتحدث الى من يكبرونك سنا ، ممناوتوا الخبرة والتجربة. ومن كل هـذا تستطيع ان تخرج بفكرة عامة تساعدك على

أن تختار نوع الكلية التى يحسن بك أن تلتحق بها . أما اذا شئت أن تبحث عن مورد للرزق ، فستجد أن هذه الفكرة العامة تساعدك على اختيار نوع العمل الذى تمارسه .

أما اذا كنت رجلا ، ذا مسئوليات عائلية - أو كنت امرأة ممن هبطن الى ميدان العمل - فعليك باعادة تخطيط حياتك العملية ، بحيث تغدو أبهج مما هى ، وأكثر تمكينا لك من أن تستغل مواهبك وامكانياتك !

واذا كنت أما لاطفال صغار ، فغالبا ما ستكونين مثقلة بالاعمال .. ولكن هذا لايمنع من أن تفكرى الآن فى أية هواية تستطيعين أن تشرعى فى ممارستها ، وأن تفيدى منها كمصدر للكسب ، اذا كانت أسرتك فى حاجة الى معونتك

وبوجه عام ، فمن الافضل أن تبادر - مهما تكن سنك أو ظروفك أو تجاربك - الى البحث عن العمل الذى تحب أن تمارسه حقا ، وأن تشرع فى أدائه . فهذه هى الطريقة الوحيدة لاى امرىء كى يتجنب العمل !

هب أنك كنت فى بحبوحة - من الناحية المالية - وكنت حرا تماما فى أن تفعل ماتشاء ، فما الذى تفعله ؟.. وما العمل الذى تمارسه ؟.. انك لاتملك أن تقول : ((لا أحب أن أودى عملا !)) ، اذ ان الفراغ - فى الواقع - أشد ارهاقا من العمل ! ولقد يخطر ببالك أنك لم تؤت أية فكرة عما ينبغى عمله ، ولكن ثمة فكرة لدى كل امرىء منا ، تظل دفينة متوارية ، ثم تطفو على السطح عندما يستعرض المرء تجاربه وذكرياته ، ويتعرف ماكان يحب وما كان يكره من تلك التجارب والذكريات . فمن المحتمل انك انشأت أو ابتكرت أو كتبت - فى يوم من الايام - شيئا كان فذا ، بعث السرور الى نفسك ، وبث فيها الثقة والاعتداد . وعلى ضوء هذا الشىء تستطيع ان ترى طريقك

ومن ثم نرى انه من المفيد ان تلقى نظرة على ما مارست

ـ فى الماضى ـ من أعمال ، وما كانت تتطلبه هذه الاعمال من واجبات ، ومدى ماكنت تستشعره نحوها .. ان ساعة واحدة تخلوها الى نفسك يوميا ـ لعشرة ايام ـ فتستعرض خلالها هواياتك وأعمالك وميولك المهنية السابقة ، خليقة بأن تكون عظيمة النفع لك ، فى اختيار العمل الذى يناسبك .

الفرص لاتضيع أبدا !

• **وما أن** تهتدى الى النواحى العامة التى تلذ لك ، حتى تصبح مهيئا لان تستعرض الجهود التى تستطيع أن تبذلها فى هذه النواحى .. فاذا انتهيت من كل هذا الى عمل معين ـ وليكن منصبا محددا تشعر بميل من نفسك اليه ـ فلاتتخاذل، ولا تقل : « آه ، لقد فاتت الفرصة ! » .. أو « لقد كبرت الآن وأصبحت أبا لاولاد ، فليس من الحكمة أن أبدل العمل الذى ظللت أمارسه طويلا ! » . لا ، ان مثل هذا التفكير يثير الصعاب أمام أعيننا ، ويثقل ارادتنا ، وقد يدفعنا الى العدول عن المحاولة . ولكن الاجدر بك ـ اذا ماكونت فكرة محددة عن العمل أو المنصب الذى تشتهيه ـ أن تتصل بالمسئولين لتعرف المؤهلات التى يتطلبها ، والمرتب ، وغير ذلك . ثم ناقش ـ على ضوء هذه البيانات ـ مدى الفائدة التى تستطيع ان تجنيها من هذا العمل الجديد

على أن خير نصيحة يحسن بك ان تذكرها ـ فى هذا الصدد ـ هى أن تعمل على انتقاء الاعمال التى ينتظر لها رواجا ـ أو المناصب التى يرتجى أن تزداد أهميتها ـ فى الاعوام القلائل المقبلة ، لان فرص التفوق فيها أكثر مما فى الاعمال المألوفة ، المزدحمة ، التى استنفدت خيراتها جحافل العاملين فيها !

وهناك آلاف من ميادين العمل التى لم تمس بعد ، وانما هى فى انتظار من يكشفها .. فى انتظار العقل المتطلع ، كى يرتادها . ولكنا لانفطن الى وجودها ، لان معظمنا يسير حيث سار من سبقوه ، وحيث يسير الآخرون ، فى الطرق المألوفة .. فالواحد

منا يقول : « أظننى سأعمل بالتجـارة » .. « أرى أننى سأشتغل بالمحاماة » .. « أحسبنى سأدرس الهندسة » ! **ذلك لاننا لاندرك أن لكل نوع من المهن والحرف الكبرى ،فروعا عديدة .. وأن ثمة فروعا اخرى ـ فوق ذلك ـ تتطلب الوانا متباينة من الكفاءات ، وتؤدى الى آفاق واسعة فى المستقبل . ونحن نسير كالعمى فى المسالك المطروقة ، بدلا من أن نبحث عن ميدان جديد يلائمنا**

ان معظمنا يتصرفون ـ حين يختارون وظائفهم واعمالهم ـ وكأنهم لم يؤتوا شيئا من الذكاء أو سعة الفكر . ان كل قادر على القراءة يستطيع أن ينقب فى الكتب عن مادة ترشده الى مايحتاج اليه ليشق طريقه الى حقل جديد . وأولئك القادرون على الكتابة ، يستطيعون ان يتصلوا بالقادة ـ فى الميدان الذى يروقهم العمل فيه ـ ليتعرفوا على المسائل التى يستطيعون أن يتفرغوا لحلها ودراستها . فاذا وفقت الى ناحية جديدة ، لم يطرقها أحد من قبلك ، فان كل ماتعمله سيكون جديدا .. وسرعان ماتكتسب شهرة ومكانة كبرى ، فى هذه الناحية .

حاول أن تعرف مواهبك أولا

• **ومن** القواعد المسلم بها ، أن مواهبك الطبيعية تتجه فى نفس اتجاه ميولك . وبمعنى آخر : كل امرىء يؤتى ـ عادة ـ الامكانيات التى تساعده على النجاح فى العمل الذى يشعر بشغف نحوه . ولكن من المستحسن أن يستعرض المرء مؤهلاته ومواهبه ، ويفحصها ، ليستوثق من استعداده .. فالمشغوف بالغناء لن يصلح لان يكون مطربا ، مالم يؤت الصوت المناسب .

ومن أهم مايجب أن يراعى ، هو الحذر من الخلط بين المواهب الاصلية وبين التعلم والمران . فالمشغوف بالغناء ، قد يكون مؤهلا بطبيعته للغناء ، ولكن صوته فى حاجة الى مران

ومن العوامل التى يجب مراعاتها ، أننا أحيانا قد نسىء

تفسير تجاربنا الماضية . وأذكر - بهذا الصدد - أن شابا أعرب لى مرة عن رغبته فى أن يكون مندوبا لبيع السلع ، ثم أردف : « ولكننى أدرك أننى لا أفلح فى البيع ! » . ثم راح يروى لى عن تجربة له سابقة فى هذا الميدان ، باء فيها بالخذلان . فلما حللت تلك التجربة ، تبينت أنه عين يوما فى العمل ، كبائع يتنقل من باب الى باب ، وهو أسلوب لم يكن يؤمن بجدواه ، ولا باستعداده لان يؤديه ، فضلا عن أنه لم يؤت مرانا فنيا فى هذا المجال ، مما حدا بالمشرف الذى كان يرأسه ، الى أن يقول له : « انك لم تؤت الموهبة التى تمكنك من النجاح فى ميدان البيع ! » .. ومن العجيب أن هذا الشخص نفسه ، أصبح اليوم رئيسا للمبيعات فى احدى المؤسسات الصناعية الكبرى ، بعد أن قضى عامين فى الدراسة والتدرب على أساليب البيع وفنونه .

ومن هذا نرى أن الموهبة قد تكون موجودة ، ولكنها دفينة ، فى حاجة الى أن ننتزعها من مخبأها وأن نصقلها ونجلوها .. بالدرس والمران

وفى كل تجارة ، أو فن ، أو حرفة ، أو مهنة ، توجد أربع مهام كبرى ، يمكن أداؤها :

١ - **مهمة ابتداعية** : كالاختراع ، والكشف ، والابتكار ، وانتاج آراء جديدة

٢ - **مهمة ادارية** : كوضع السياسات والخطط لادارة ومراقبة مشروع أو مؤسسة بأسرها

٣ - **مهمة تنفيذية** : وتتمثل فى تنفيذ الخطط والسياسات ، فى فرع أو عدة فروع من المؤسسة

٤ - **خط السير** : وذلك بأن يرسم المرء لنفسه طريقا خاصة لتنفيذ عمله ، دون أن يتحمل مسئولية أعمال سواه

فاذا كنت من المفكرين ، الذين يعنون بتحليل العمل وتدبر نتائجه ، قبل الشروع فيه ، على أسس من المنطق السليم ،

فأنت من الرواد الذين ينتظر أن ينجحوا فى « المهمة الابتداعية»
.. أما اذا كنت تحب كثرة العمل ، والتنظيم ، وتوجيه الغير فى سعيهم لتنظيم أعمالهم ، فأنت مرشح لان تكون « مديرا » .. على أن هناك أشخاصا ينفرون من تحمل المسئوليات ، ويميلون الى العمل « الروتينى » ، الذى ينفذون فيه مايوجه اليهم من تعليمات .. ومثل هؤلاء ، يوفقون فى « المهمةالتنفيذية»
.. ومن الطبيعى ان يكون لكل فرد نصيب من الصفات التى تؤهله لاحدى هذه المهام ، ومن ثم فعليه أن يرسم لنفسه « خط سير » يمكنه من أداء عمـله بدقة تضمن له التفوق

عرفت يوما شابا شغف بالكتابة والتاليف ، ولكنه لم يكد يعمل فى الصحافة ، حتى تملكه الضيق من هذه المهنة ، فكرهها . ولم يكن ذلك لعدم تمكنه من فنون الكتابة ، وانما كان تطوره راجعا — على مابدا لى — الى أنه انما كان يميل الى الكتابة البطيئة على هواه — كالتأليف الادبى — ومن ثم فانه لم يرتح الى عمله الصحفى الذى كان يقتضيه انتاجا سريعا . وقد اقنعته بأن يعمل مدرسا . وان يمارس الكتابة فى أوقات فراغه، فلم ينقض عامان حتى كان قد أخرج كتابين ناجحين !

وهناك نقطة هامة أخرى يجب أن تراعى عند تحديد نوع العمل الذى تحب القيام به .. تلك هى نوع العلاقات التى يحتاجها ذلك العمل . فهناك أعمال تقتضى الاتصال بأناس كثيرين من طبقات خاصة ، واعمال اخرى لا تقتضى الاتصال بأحد .. وعليك أن تحدد أى النوعين يلائمك ، على ضوء ميولك الاجتماعية واستعداداتك

* * *

• **اما** وقد حددت الميدان الذى تريد ان تخوضه ، وجمعت المعلومات عن الوظيفة التى تريدها ، فخذ رقعة من الورق ، واقسمها الي قسمين ، واكتب فى أعلا أحدهما « ميزات » ،

وفى أعلا العمود الآخر : « عيوب » . ثم اثبت ماتراه - على ضوء آرائك - من « عيوب » و « ميزات » للعمل الذى تبغيه. ولا تهمل هذا الاجراء ، لان عدم تدوين الافكار قد يؤدى الى التبلبل والخلط ، مما لاتفطن الى نتائجه الا بعد أن يحيق بك ضررها . فضلا عن ان كتابة هذا الجدول تبعث فيك الثقة بنفسك ، والاطمئنان الى القرار الذى تتخذه لتحدد مستقبلك. فاذا افترضنا انك تميل الى المحاماة - مثلا - فليكن جدولك على هذا النحو :

ميزات :

١ - المحاماة تسمح لى باستغلال موهبتى فى الخطابة
٢ - انها تجعل مني رجلا مرموقا ، وتزيد من دخلى
٣ - تتيح لي حرية التصرف فى شئونى ، وتشبع حبى للمغامرة

عيوب :

١ - قد يقتضى الاستعداد لها اربع سنوات من الدراسة
٢ - ليس لدى مال كاف للاستعداد
٣ - قد يسخر الناس منى اذا فكرت فيها وانا فى هذه السن

فاذا ماوضعت أمامك مثل هذا الجدول ، فسيغدو من السهل عليك أن تحدد - وأنت مطمئن النفس - الطريق الذى يجب عليك السير فيه . وهنا قد يقف أمامك حائلان : الزمن، والنقود .

ولكن .. لابأس ، امض فى القراءة ، فقد تجد حلا !

ماذا يقعدك عن التنفيذ ؟

• ما من شاب تصادقه الا ويقول لك انه سيفعل فى مستقبله كذا ، وكذا .. الى آخر ماهنالك من الآمال . وما من شيخ

أوشك على نهاية العمر ، الا وتسمعه يحدثك عن آمال صباه التى لم يحقق منها شيئا . ولكن .. ما الذى يقعد الناس عن تنفيذ أفكارهم ؟

تتلخص الاسباب فى ثلاثة عوامل أساسية :

١ - « لا أملك الوقت »

٢ - « لا أملك النقود »

٣ - « لايريدنى أهلى على أن أفعل ذلك »

فاذا كانت مشكلتك هى « **الوقت** » ، فلتقل لى : اى شىء تملكه فى حياتك أثمن من وقتك ؟.. ومع ذلك ، فان هذا الوقت ملك للجميع ، رغم أنه أثمن مافى الحياة . فهو فى متناول جميع الناس ، والكل متساوون فى ملكيته .. ان كل انسان - على ظهر الارض يملك فى يومه أربعا وعشرين ساعة . **لكن الامر ليس أمر الملكية فحسب ، بل هو : كيف تنفق هذه الساعات الاربع والعشرين ؟ ان أقصى مايستنزفه عملك من وقتك ، هو ثمانى ساعات فى اليوم . كما أن نومك يستغرق منك ثمانى ساعات أخرى . ومن ثم يتبقى لديك فى اليوم الواحد ثمانى ساعات أخرى ، فماذا تراك تفعل فيها ؟** ان كثيرا من الناس يبددون هذه الساعات الكثيرة فى .. لاشىء . فقد يقف الواحد منهم ساعة كاملة فى انتظار القطار ، دون ان يخطر بباله أن فى استطاعته أن يقرأ - فى هذه المدة - كتابا نافعا يزيد من حصيلة دراساته .

وانى لاعرف صديقا ذهب الى فرنسا للسياحة ، فقضى فيها عاما كاملا . حتى اذا عاد : سألته : « لماذا لم تتعلم الفرنسية هناك ؟ » . فقال : « لم أجد الوقت ! » . بينما ذهبت فتاة الى هناك لمدة شهرين - فى عمل كان يقتضى منها أن تعمل اربع عشرة ساعة فى اليوم - ومع ذلك فانها وجدت من الوقت ما اتاح لها أن تتعلم الفرنسية . ولقد ألفت أنا عشرة كتب

— فى خلال عشرين عاما — دون ان يستغرق منى ذلك أكثر من ساعة واحدة فى كل يوم !

لكن أهم شىء أنصحك به فى هذا السبيل ، هو أن تركز جهودك فى شىء واحد لاغير .. فان تشتيت الجهد فى أعمال كثيرة مختلفة ، هو المضيعة الحقيقية للوقت !

* * *

• **اما** اذا كان المال هو العائق الذى يقف فى سبيلك ، فدعنى أؤكد لك أن النقود دائما .. **فى المرتبة الثانية بعد الرغبة الحقيقية للانسان !**

لقد استطاع « جورج واشنطن كارفر » أن يصبح قطبا بين الزعماء الامريكيين — الذين خلدوا فى التاريخ — وأن يكون من محررى الزنوج هناك ، مع أنه — فى البدايه — كان مجرد زنجى ابن واحد من العبيد . ولم يكن يملك أى مبلغ من المال ، ولكنه كان يعرف ما كان يبغى عمله !.. فلقد أراد أن يدرس الكيمياء ، فدرسها .. وبدأ من لاشىء ، فراح يجمع من المخلفات المهملة ما مكنه من انشاء معمل متواضع . وصنع حواجز عازلة للبيوت ، من قشور الفول السودانى . وما لبث أن ابتكر مادة مرمرية من فضلات الخشب ، كما أنتج مئات من السلع النافعة ، من المواد التى يسمونها .. فضلات لاجدوى منها ! **.. وراح فى الوقت ذاته ، يواصل الدراسة ، حتى حصل على « البكالوريوس » فى العلوم ، ثم « الماجستير » ، ثم « الدكتوراه » مع مرتبة الشرف .**

واستطاع — فعلا — ان يخلق ثروة .. من لاشىء !

وقال لى شاب ، ذات مرة : « بودى أن أشتغل بتجارة الاغنام ، ولكننى لا أملك مالا ! » .. فكان ردى عليه : « من حسن حظك انك لاتملك مالا ، والا فما أسرع ماكنت ستفقده اذا خضت هذا الميدان دون خبرة كافية ! » .. وهذا صحيح ،

فليس أضر بمن يريد أن يبدأ عملا ، من أن يبدأه وهو يملك مالا . لان عدم خبرته وتجربته كفيل بأن يضيع عليه هذا المال . ولو أننا استعرضنا حياة الموفقين فى أى ميدان ، لوجدناهم قد بدأوا من لاشىء ، ثم اكتسبوا الخبرة ، فاتسعت أعمالهم شيئا فشيئا ، حتى بلغوا ذروة النجاح !

* * *

• **اما** عن تدخل الاهل ، فلست أملك سوى أن أقول أننا معرضون ــ من المهد الى اللحد ــ لخطر التدخل ، الذى لامبرر له ، من الغير ، اذ يحاولون أن يحملونا على اتيان مالانريد .

وأذكر ــ بهذه المناسبة ــ أن أما جاءتنى يوما ، تشكو من أن ابنها يهوى الموسيقى ، ويريد أن ينصرف الى احترافها . وأهابت بى أن أقنعه بالعدول عن هذا الاتجاه ، حرصا على مستقبله . وجلست الى الابن ساعة ، أصغيت فيها الى بعض مقطوعاته ، فلم ينصرف حتى كنا قد اتفقنا على أن أضم صوتى الى صوته ، لاقناع أمه بأن تتركه يمضى فى طريقه .

والواقع أن أحباءنا كثيرا مايتدخلون فى أعمالنا ، اشفاقا منهم على مصالحنا ، كما يخيل اليهم . فى حين انهم انما يصدرون فى ذلك ، عن رغبة فى أن يرسموا لنا طرقنا على أضواء تجاربهم الخاصة وظروفهم ، مهما تكن هذه مخالفة لتجاربنا وظروفنا .. ولن يقدر لك أن تكون شخصية ذاتيةمستقلة ، مالم تألف الاستقلال عن الآخرين وعن تفكيرهم ، ومالم ترض نفسك على أن تكون الوحيد الموجه لخطوات نفسك !.. أما اذا أضعت حريتك الفكرية ، فانك لن تلبث أن تفقد كل شىء ..

والآن .. اعقد عزمك على الخطوة الاولى

• **ما أن** تتبين ماتريد ان تفعله ، وما أن تشعر بالرغبة فى عمله ، وبأنك قادر على ان تؤديه ، حتى يصبح من واجبك أن

تطرح عنك كافة الاعذار ــ من وقت ومال وتدخل ــ **وبذلك** تصبــح مهيأ لان تعقــد العزم على اتخاذ خطوتك الأولى نحو ميدانك المختار . **ولا ترجيء اتخاذ هذه الخطوة ، الى أن تتاح لك ظروف أفضل ، فان هذه الظروف فى علم الغيب ، وجدير بك أن تبدأ لفورك ــ مهما تكن ظروفك ــ والا فلن تبدأ أبدا !**

ومن ثم ، فعليك أن تستعرض السبل المختلفة التى تصل بك الى هدفك ، وارسم الجدول الذى يبين ميزات كل منها وعيوبها ، ثم اختر أيها أصلح لان تبدأ به . ولا تدع ضخامة العمل ــ الذى توشك أن تقدم عليه ــ تبهرك ، أو تفت فى عضدك . فأنت جدير بأن تبلغ غايتك ــ مهما تكن ضخامتها ــ اذا ماسعيت اليها خطوة **فخطوة !**

عرفت يوما رجلاكان يتمنى أن يغدو محاميا ، فما كان منه الا أن وضع أمامه ثلاثة احتمالات للبدء :

١ ــ ان يقترض من معارفه نفقات الدراسة
٢ ــ ان يتكسب أثناء الدراسة ، ببيع « بوالص » التأمين
٣ ــ ان يلتحق بعمل حكومى أثناء النهار ، ويدرس بالليل

واستطاع ان يسلك الطريق الثانى ، ريثماحصل على منصب حكومى ، وراح يتقدم فى دراسته خطوة فخطوة ، حتى بلغ غايته .

على أنه يحسن بك أن توجه الى نفسك الاسئلة الثلاثة التالية :

١ ــ ما مدى خبرتى بالعمل الذى اخترته لنفسى ؟
٢ ــ ما المران العلمى الذى حصلت عليه فى هذا المضمار ؟
٣ ــ فى نطاق خبرتى ومرانى ، أى فرع من فروع هذا العمل أرغب فى ان أمارسه الآن .. وأية دراسات احتاج اليها لاعد نفسى له ؟

ومهما تكن ضخامة هدفك ، فحاول ـ عند البداية ـ ان تختار العمل البسيط الذى يلائم امكانياتك الحالية ، ثم ارق بنفسك الى عمل اكبر منه ، بفضل الدراسة ، حتى تصل الى غايتك النهائية .

ابدأ عملك المختار !

• **أما** وقد قررت ـ فى ضوء تجاربك ودراساتك ـ أى الأعمال تحب ، فقد آن لك أن تسألنا : كيف أستطيع أن أبدأ ؟

عليك ـ اولا ـ أن تعد لنفسك قائمة تضمنها أسماء مجموعة من المؤسسات التى تحب أن تعمل بها . واحرص على ان تكون هذه المؤسسات ذات شهرة طيبة ، حتى تحظى بتقدير طيب للمران الذى تحظى به فيها .. اذ ان الخبرة التى تكتسب من مؤسسة مغمورة ، لا تظفر بثقة ما !

وعين ـ بعد ذلك ـ أسماء أصدقائك وأساتذتك القدامى ، الذين ترى ان لهم معارف فى احدى هذه الشركات . وعليك ان تكتب اليهم شارحا غرضك ، طالبا منهم أن يحصلوا لك على موعد تقابل فيه معارفهم . وعليك ان تعد لنفسك ـ قبل هذا اللقاء ـ قائمة تشرح فيها مدى خبرتك السابقة ، وثقافتك ، والأعمال التى مارستها .. فان ذلك يساعدك على خلق جو من الثقة فى نفس الشخص الذى تقابله !

وليكن رائدك دائما ان تبحث عن الشىء الذى ينقص هذه المؤسسة ، لتعرض على المسئولين استعدادك لأن تملأه .. فإن صاحب المؤسسة لا يهتم بمشاكلك الشخصية ، بقدر ما يهتم بمشاكله هو .. انه لا يحفل بأن تجد عملا أو لا تجد ، ولكنه يهتم بأن يسد جميع نواحى النقص فى عمله . فاذا استطعت اقناعه بانك ستكون ذا فائدة له ، فانه سيطلب اليك ـ من تلقاء نفسه ـ ان تعمل معه ، قبل ان تطلب انت منه ان يعينك فى العمل !

أعرف شابا كان مهتما بشئون الاعلان ، فاذا به يحدد المؤسسة التى رغب فى أن يعمل بها ، ثم أقبل على دراسة اعلاناتها ونوع الاعمال التى ينقصها الاعلان عنها ، وخرج من دراساته وملاحظاته بأسماء المؤسسات والشركات التى لم تكن تعلن عن طريق هذه المؤسسة ، ثم طلب مقابلة مدير الاعلان فى مؤسسته المختارة . وفى خلال الحديث الذى دار بينهما ، سأله : « لماذا لا تهتم مؤسسته بالاعلان لهذه الأعمال ؟ » .. فأجابه المدير بأن مؤسسته ينقصها من يهتم بالتعامل مع هذه المؤسسات .. وما أسرع ما فتح الباب أمام صاحبنا ليسير فى طريقه المرسوم .

* * *

• **على أن** المقدرة وحدها غير كافية ، بل يجب أن تضيف اليها صفة لازمة للنجاح فى العمل .. تلك هى **أن تكون على علاقة حسنة بمن تعمل معهم**. وهذا يتطلب منك مجهودا كبيرا

عرفت موظفة باحدى الشركات الكبرى ، لم تكن تروقها أفكار رئيسها المباشر ، بل كانت ترى نفسها أكفأ منه على العمل . وفى ذات صباح ، جلست الى أحد المتعاملين مع الشركة ، تصب هجوما عنيفا على رئيسها وأفكاره . ولم يحل عصر ذلك اليوم ، حتى كانت الموظفة تبحث عن عمل آخر ، وهى مجردة .. حتى من شهادة تثبت حسن أدائها لعملها .

وهناك طريقة جد سهلة تكفل لك كراهية زملائك .. تلك هى أن تسخف من أفكارهم . فهناك فريق من الناس يحبون أن يهونوا من شأن كل فكرة لا تصدر عنهم . وهذه عادة من أسوأ العادات فى العمل .. وانما يحسن بك ألا تصدر حكما على شىء ما ، الا بعد روية وامعان

ومن أسوأ العيوب التى قد تقع فيها ، أن تحاول دائما الدفاع عن نفسك دون الاعتراف بأخطائك . فاذا أردت

الحصول على ثقة من تعمل معهم ، فعليك بالوفاء بوعودك . ولا سبيل الى ذلك ، الا بان تجعل هذه الوعود مما يسهل عليك تحقيقه ! .. اما اذا وعدت بما لا تستطيع تحقيقه ، فلن تبوء الا بفقدان ثقة الناس بك !

.. ..

والآن ، وقد انتهينا من الناحية العامة للموضوع ، فتعال الى نوع من التخصيص نساير به ظروف الناس حسب الفئات المختلفة لأعمارهم :

اذا كنت دون الخامسة والثلاثين ..

• **اذا** لم تكن قد بلغت الخامسة والثلاثين بعد ، فالمجال أمامك أوسع مما هو أمام غيرك .. ذلك لأن معظم الناجحين فى أعمالهم ، لم يحرزوا النجاح الا بعد الخامسة والثلاثين ، اللهم الا فى ميادين قليلة — كالرياضة والفن — لا تتطلب براعة ذهنية ، بقدر ما تتطلب قوة بدنية خاصة أو جمالا أو مرانا !

ولعل المشكلة الرئيسية — لمن هم دون الخامسة والثلاثين — هى قلة الأفكار الصالحة لديهم .. ومهما يكن من أمر ، فان عليك ان تعتمد — أولا وأخيرا — على نفسك ، للحصول على الأفكار السليمة . على ان الناس — من حيث افكارهم — نوعان :

١ — اولئك الذين اذا صادفتهم مشكلة أسرعوا الى رؤسائهم بها

٢ — اولئك الذين اذا ما صادفتهم المشكلة أسرعوا بحلها من تلقاء أنفسهم .

والفريق الثانى عادة ، هو ذو الآراء والأفكار المفيدة ، التى تساعده على شق طريقه بنجاح .

أعرف مديرا للانتاج — فى احدى الشركات الكبرى — بدأ

عمله موظفا صغيرا ، فى هذه الشركة . وذات يوم أصاب الخلل بابا يفصل بين حجرتين كانتا تستعملان كمخزن ، فطلب الموظفون نجارا لاصلاح الباب ، فى حين اقترح هذا الموظف ازالة الباب من مكانه ، اذ لم تكن ثمة فائدة لوجوده . وكان هذا حلا بسيطا لمشكلة بسيطة ، لكنه أدى الى ترقيته فى مناصب الشركة ، اذ لوحظ انه دائما ما كان يحل بنفسه المشاكل التى تعترضه . وكبرت مشكلاته شيئا فشيئا ، حتى أصبحت تتناول وسائل الانتاج ، فكان يبتدع احسن الوسائل لعلاجها . ولعل هذا هو السبب فى انه الآن مدير للشركة ! !

وما من عمل الا ويتطلب الموظف الذى يعرف كيف يواجه المشكلات ، فلا يهرب منها . وأيا ما كان عملك ، فليس أمامك الا سبل ثلاثة لتكون ذا افكار نافعة :

١ - ابدأ بحل المشكلات التافهة التى تعترض حياتك اليومية . فاذا صادفتك مشكلة فى العمل ، فاحرص على التفكير فى وسيلة لعلاجها

٢ - تعود أن تذهب الى رئيسك مقترحا عليه حلا للمشكلات ، بدلا من أن تسأله ان يبتدع لك الحل بنفسه .

٣ - اذا لم يكن اقتراحك مقبولا ، فابحث عن موضع النقص فيه ، لكى تتوصل الى الحل الصحيح فى المرات التالية .

والشخص الذى يروض نفسه على علاج المشكلات الصغيرة ، لا يلبث أن يعالج المشكلات الكبيرة .. اذ ان المشكلة الكبيرة ليست الا تجميعا لعدد من المشكلات الصغيرة .

واذكر دائما ان كل فكرة كبيرة تتوصل اليها لحل مشكلة ، أو لابتداع وسيلة مفيدة فى عملك ، انما ترجع فى أساسها الى خطوات ثلاث :

١ - دراسة كل الظروف المحيطة بمشكلتك ، وملاحظة كل دقائقها ملاحظة دقيقة .

٢ ـ قال « فورد » ـ يوما ـ ان اية مشكلة كبيرة ، تغدو ميسورة العلاج اذا رددتها الى المسائل البسيطة التى تؤلفها. **ولذلك يحسن بك ان ترجع بأية مشكلة الى عناصرها البسيطة التى تؤلفها . ومن حلول هذه المسائل البسيطة مجتمعة ، بنتج حل المشكلة الكبرى**

٣ ـ فاذا ما وصلت الى حل مباشر ، فلا تسرع فى الاقتناع به ، بل عليك أن تحاول حلولا كثيرة ، حتى ينبثق فى ذهنك اسلم حل تطمئن اليه

كذلك يجب عليك ان تدرك ان الغير لا يهتمون لفكرتك الا فى حالة واحدة .. اذا عرضتها لهم من زاوية نظرهم هم .. فخير لك ان تذهب الى رئيسك قائلا : « ان لدى فكرة كفيلة بأن توفر لنا نصف وقتنا !» . أو «انها تضاعف من أرباحنا !» .. فهذا أجدى فى اقناعه من ان تقول له : « لقد طرأت ببالى فكرة هائلة .. فهلا سمعتها ؟ »

ان عليك أن تثير اهتمام الغير بأفكارك ، ولن تثير اهتمامهم الا اذا عرفت ان تقنعهم بأن الفكرة مفيدة لهم هم ! . فاذا فعلت ذلك ، فلا تنتظر النتائج سريعة ، بل ثابر وادأب وكرر المحاولة ، دون ما يأس .. فان الوقت وزيادة الخبرة كفيلان بأن يحققا لك كل مطالبك .

وعليك دائما بتوسيع دائرة معارفك ، وبأن تكون على صلة طيبة برؤسائك السابقين فى العمل ، وبأساتذتك القدامى ، فهم مصادر لفتح ابواب جديدة للعمل أمامك ، وقد تستطيع اللجوء اليهم اذا ما أعوزتك الحاجة الى عمل سريع . ولسوف تجد من ثقتهم بك ، خير معين لك فى بلوغ هدفك .

ولكن .. عليك ـ قبل كل ذلك ـ أن تسير وفقا لخطة مرسومة ، تعين فيها الهدف الذى تصبو اليه والخطوات المحددة التى يجب أن تتبعها حتى تصل الى غايتك .

بين الخامسة والثلاثين والخامسة والخمسين

• أما اذا كنت قد تجاوزت الخامسة والثلاثين ، فانما ينبغى أن لا يفت هذا فى عضدك ، اذ ان الفرصة لا تزال سانحة أمامك . **ولكن عليك – فى هذه السن – أن تعمد الى الحذر الشديد ، وأن تتخذ من عملك الحالى دعامة تتكىء عليها فى تحضيرك لعملك المختار .. وحذار من أن تترك عملك قبل أن تكون على يقين من نجاحك فى العمل الجديد الذى اخترته !**

على أن ثمة موضعا للنقص يجب أن تخلص نفسك منه .. فاحذر دائما ان تكون من ذوى الافكار السلبية الذين يقدرون الخسارة والفشل ، دون النجاح .. فان تضخيم نتائج الفشل ، تقعد بالمرء عن الاقدام والتوفيق

قل لنفسك دائما ، وانت تقدم على مشروع جديد : « اذا نجح هذا المشروع ، فسوف أجنى منه كذا ، وكيت .. » . وحذار أن تقول : « لو أن هذا المشروع فشل ، فسوف تقصم الخسارة ظهرى » !

اذا كنت فوق الخامسة والخمسين ..

• وفى هذه المرحلة ، يجب أن تشعر بأنك السيد الوحيد، المسيطر على نفسك .. يجب ان يكون لك عمل خاص تديره بنفسك ، دون ما اوامر من رئيس . **فاذا كنت قد بلغت هذه السن دون أن تكون صاحب عمل ، فعليك أن تسعى الى أن تكونه فى أسرع وقت مستطاع .. اذ ان المؤسسة التى تعمل بها لن تلبث ان تستغنى عنك ، ولن يتيسر لك – اذا انتظرت الى ذلك الوقت – الحصول على عمل آخر .**

وخليق بك ان تنشىء لنفسك عملا مستقلا تضطلع به اذا اضطررت للتقاعد – ولو كان لديك من المال مايكفى لأن تعيش فى راحة وبطالة – فان حياة البطالة – فى التقاعد – أشق على

النفس من أى عمل يمكن أن يقوم به أى انسان . اذ أنها لن تلبث تزيدك سأما ، حتى ينتهى بك الأمر الى الرحيل من الحياة ولما تبلغ بعد غاية عمرك .. اجل ، انها تقضى عليك سأما ومللا !

* * *

• **فاذا** كنت قد عنيت بفهم ما قلناه فى هذا الكتاب .. فهاك ثلاث قواعد ، لا أحب أن اختتم الكتاب دون ان أضعها ظاهرة ، واضحة ، أمام عينيك ، وان كانت قد وردت فى سياق الكلام .. فانك خليق بأن تظل حيث أنت ، دون ما ارتقاء ، بدونها :

١ ــ اعمل دائما على ((تطوير)) خطة حياتك ! .. داوم على التفكير فيها وتزويدها بأفكار جديدة ، وفقا لخبراتك وتجاربك الجديدة !

٢ ــ اعمل دائما على ((ترقية)) نفسك ! .. جدد من قواك ، وجدد من أفكارك ، وجدد من قابليتك للسمو والارتقاء دائما !

٣ ــ اعمل دائما على تنمية علاقاتك بالغير ! .. فان العلاقات الجديدة ــ والقديمة على السواء ــ هى خير معين لك فى سلوكك نحو غاياتك ، وهى خير عون لك فى التغلب على أزماتك .

وبعد كل هذا .. سر قدما ، واطمئن الى النجاح !

عندما ترفع الستار..



روائع المسرح العالمي

(التمثيلي والغنائي)

عزيزي القارىء ..

قدمت لك في هذا الباب المسرحيات العالمية الآتية :

• خطايا الحب • نزاهة الحكم • سلاح المرأة • فولبون • جيوكندا • كلام الناس • مدرسة الفضائح • سيرانو دي برجراك • لعبة الحب والموت • مروحة الليدي وندرمير • فاوست • في سبيل الحب • الأم • الملك يلهو • الجنس الآلي • هرناني • ترويض النمرة • الحياة نفاق • اغلال الحب • المنافق • بيت الليل • علموهم الحب • زوج مثالي • سالومي • مدرسة الأرامل • برهان الحب • لوسيد • كيف نقع في حبائلهن • حلاق أشبيلية • كاليجولا • هوراس • حوادث سعيدة بالجملة • الهاربة من الفضيحة • رجل الأقدار • جوديث • البخيل • لذة الشرف • الانتقام الرهيب • جندي محترف • أندروماك • دماء الضحايا .. المقامرون .. المريض بالوهم .. الشقيقات الثلاث ..

واليوم نقدم لك احدى روائع المسرح الانجليزي :



قصة تمثيلية كبرى للروائى الانجليزى :

« سومرست موم »

تلخيص : محمد بدر الدين خليل

مسرحية واحدة .. وخاتمتان !

• احتفل الروائى الانجليزى الكبير ((سومرست موم)) بعيد ميلاده الثالث والثمانين ، فى الشهر الماضى . ولقد قدم لك ((كتابى)) أروع قصص ((موم)) - فى أعداده ٢٠ و ٢٤ و ٣٢ - وقدم لك سيرة حياته كما كتبها بنفسه - فى العدد ٤٧ - كما قدمت لك ((مطبوعات كتابى)) رواية ((الخاطئة)) ، فى عددها الرابع . أما اليوم ، فنقدم لك لونا جديدا من أدب ((موم)) ، هو المسرحية .. ولن نحدثك عن موضوع مسرحية ((الخطاب)) ، ولا عن روعة حبكتها ودقة عقدها ، ولكنا ننبهك الى التقليد البديع الذى وضعه ((موم)) حرصا على أمانة المؤلف .. فعندما قدر لمسرحيته هذه أن تمثل ، تبين أن الاخراج شىء ، وخيال الكاتب شىء آخر ، ولم يتردد فى أن يدخل تعديلا على الجزء الاخير منها .. ولما دفع بالمسرحية الى النشر ، أبت عليه الامانة الا أن يثبت المنظر الاصلى والتعديل معا .. ليختار القارىء ما يحلو له !

فتعال بنا نقرأ المسرحية ونحكم على الخاتمتين :

• **تجرى** أحداث الفصل الأول فى غرفة الجلوس بفيلا ((كروسبى)) - بالملايو - وقد بدت فى مؤخرتها شرفة ممتدة بطول الغرفة ، وتتصل بالحديقة بدرجات ، بينما توسط سقفها مصباح مضاء ، كما أن ثمة مصباحا آخر يقوم على حامل الى جوار احدى المناضد المتناثرة فى الحجرة ، ويلقى ضوءه على وسادة على المنضدة ، شد اليها شغل ((اللاسيه)) الذى تتسلى ((ليسلى)) - ربة البيت - بتطريزه .

واذ ترفع الستار ، يسمع صوت طلق نارى ، تصحبه صرخة من ((هموند)) ، الذى يبدو متجها نحو الشرفة وهو يترنح . كما تبدو ((ليسلى)) وهى ترميه برصاصة ثانية ، فيصرخ ((هموند)) مرة أخرى ، ثم ينهار على الارض ، وتتبعه ((ليسلى)) ، وتقف عند الجثة ، وهى ماضية فى اطلاق النار عليها ، فى تعاقب سريع ، الى ان يفرغ المسدس ، فتتركه ينساب من يدها الى الأرض

ويقع بصرها على الجثة ، فتتسع حدقتاها ،ويتبدى الذعر على محياها . ثم ترتجف ، وتتقهقر بظهرها الى الحجرة ، وبصرها عالق بالجثة . وتجفل فى جزع اذ تسمع لغطا وجلبة .. ثم يظهر رئيس الخدم ، يتبعه الخدم الصينيون

رئيس الخدم : سيدتى .. ماذا جرى ؟ (**يقع بصره على الجثة**) أواه ! .. من الذى قتله ؟ (**ينحنى على الجثة**) انه .. انه المستر « هموند » ! لماذا فعلت ذلك يا سيدتى ؟

ليسلى : استدع المستر « ويذرس » ، مساعد رئيس الشرطة بالمنطقة .. اذهب بالسيارة ، وأيقظه ، وسله أن يأتى فورا ! .. واستدعوا المستر « كروسبى » كذلك !

رئيس الخدم : ان مكتب البرق والتليفون مغلق ، فنحن فى منتصف الليل !

ليسلى : أوقظ الموكل بهليتصل بسنغافورة ،أو فلتستعمل « تليفون » مركز الشرطة ، وسأكتب اليك الرسالة التى تبلغها للسيد . (**تحاول الكتابة فتهتز يدها . واذ ذاك تدق المنضدة بقبضتها فى غيظ ، ثم تجمع عزمها وتكتب**) هاك الرسالة ، وهاك رقم « التليفون » ، فان السيد يقضى ليلته فى دار المستر جويس المحامى ..

وينصرف رئيس الخدم ، فتطرد « ليسلى » الخادمات اللاتى أحطن بالجثة ، وتلجأ الى مخدعها .. ويسمع صوت المفتاح من الداخل . ثم تسدل الستار لدقيقة ، اشارة الى انقضاء ثلاث ساعات . وعندما ترفع ثانية ، تكون الجثة قد نقلت ، وويذرس فى انتظار وصول رب البيت .. وما أن يسمع صوت سيارة تقترب ، حتى يطرق باب مخدع « ليسلى » معلنا وصول زوجها . ولكنه لا يتلقى ردا ويدخل « كروسبى »

ويذرس : أهذا أنت يا كروسبى ؟ .. حمدا لله !

ويتقدم كروسـبى .. وهو رجـل متين البنيـان ، فى الأربعين من عمره ، ذو وجه ضخم لوحته الشمس . ويتساءل فى لهفة عن زوجته ، فما أن ينبئه « ويذرس » بأنها احتبست نفسها فى مخدعهـا ، حتى يسرع الى البـاب يطرقه وهو يناديها . وفى هذه الاثناء ، يفد « جويس » المحامى

ولا يلبث باب مخدع « ليسلى » أن يفتح — فى تؤدة — فتخرج الشابة وتغلقه خلفها ، وتستند بظهرها اليه . ويهم « كروسبى » بأن يحتضنها ، ولكنها تسأله ألا يمسها ، وتنظر نحو الشرفة . حتى اذا اطمأنت الى أن الجثة نقلت منها ، تأملت وجوه الرجال الثلاثة ، ثم طوحت رأسها الى الخلف ، وقالت : « لقد حاول ان يغتصبنى ! » .. وترتمى فى احضان زوجها ، ثم تنفجر فى بكاء ونشيج

ويذرس : اترين بوسعك أن تروى لنا ما حدث ؟

ليسلى : الآن ؟ **(تستسلم لكروسبى اذ يقودها الى مقعد ، فتتهالك جالسة)**

كروسبى : لا تتعجلى يا حبيبتى .. ومن الحظ الحسن ان جاء « هوارد » معى

وتستلقى ليسلى على مقعد طويل ، وتغلق عينيها ، ويشتد شحوب وجهها ، فيسرع « كروسبى » اليها ببعض الشراب

جويس : وهل أنبأك رئيس الخدم بأنها هى التى اطلقت الرصاص ؟

ويذرس : اجل . ولقد وجدت هموند صريعا ، وقد أفرغت فيه رصاصات المسدس الست جميعا !

ويعرض عليه المسدس ، فيتـأمله المحامى ويتفقد مخزن الرصاص . وفى هذه الاثناء تفتح « ليسلى » عينيها ، وترقبهما

جويس : وهل سألت الخدم ؟

ويذرس : انهم لا يعلمون شيئا .. كانوا نائمين فى جناحهم

ليسلى (لويذرس) : ما الذى تريدنى أن أفعله ؟ ..

جويس (مقاطعا) : قد يكون من الأفضل ان تروى القصة بالشكل الذى ترينه !

وتشرع ليسلى فى سرد ما حدث .. فلقد كان زوجها يقضى ليلته فى (سنغافورة) ، وكانت هى منصرفة ــ بعد العشاء ــ الى « اللاسيه » ، فلم تدركم من الوقت انقضى ..

ليسلى : .. وفجأة ، سمعت وقع قدمين، ثم صعد شخص درجات الشرفة ، وقال : « عمى مساء .. هل تسمحين لى بالمجيء ؟ » . وأجفلت ، لأننى لم أكن قد سمعت صوت سيارة تقترب من البيت

ويذرس : لقد ترك سيارته فى الطريق،على بعد ربع ميل..

ليسلى : ولم اتبينه فى البداية ، فقد اعتدت ان ألبس « نظارة » للتطريز ، وكانت الشرفة نصف معتمة .. فقلت : « من هذا ؟ » .. قال : « جيوفرى هموند » ! ..

جويس : هل دهشت لرؤيته ؟

ليسلى : تقريبا ، فانه لم يفد على دارنا منذ أمد .. منذ ثلاثة أشهر .. وأخبرته بأن « روبرت » فى سنغافورة ، لمهمة عملية ، فقال : « لقد شعرت بشيء من الوحدة الليلة ، فرأيت أن آتى واطمئن عليكما » . ولما سألته كيف اتى دون أن أسمع صوت سيارة ، قال انه ترك سيارته فى الطريق ، لأنه خشى أن نكون قد نمنا .. وظننت أن الخدم قد ناموا ، فذهبت لأحضر له بعض الشراب

جويس : هل كان منتعش الحواس ؟

ليسلى : لم أفكر فى هذا قط .. ولكنى أحسبه كان ثملا قليلا !.. ولقد عدت الى التطريز ، ورحنا نتجاذب أطراف

الحديث .. وفجأة ، قال شيئا سخيفا
جويس : وما هو ؟ .. أرى من الخير ان تذكرى ما قاله
ليسلى : انه لا يستحق الذكر .. قال : « لست ادرى كيف تطيقين تشويه شكلك بهذه النظارة البشعة ! .. لقد أوتيت عينين جميلتين حقا ، فمن الخطأ ان تخفيهما »
جويس : هل سبق ان وجه لك مثل هذا القول ؟
ليسلى : أبدا .. ولقد جزعت ، ولكنى رأيت أن أتغاضى .. وعاد يقول : « من الحرام أن تحاولى أن تظهرى نفسك بمظهر المجردة من الجمال » .. **ونهض ، فقرب مقعده من المنضدة التى كنت أسند اليها وسادة الشغل ، وقال : « ما أظنك تجرؤين على أن تنكرى ان لك أبدع يدين فى الدنيا ! »** ..
جويس : وهل كان « هموند » يجلس مكتوف اليدين ، وهو يوجه هذا القول ؟
ليسلى : كلا ، بل لقد حاول أن يمسك باحدى يدى ، ولكننى ضربت يده برفق ، وقلت : «لا تكن أحمق، والا سألتك أن تذهب الى دارك » !
ويذرس : اننى لأعجب ، كيف لم تركليه بقدمك فى الحال ؟
ليسلى : لم أشأ أن أحدث ضجة .. والحق اننى لم أحدس لحظة ان « هموند » كان جادا !
جويس : ومتى بدأت ترتابين فيه ؟
ليسلى : بعد ذلك مباشرة .. انه لم يتحرك ، وانما تفرس فى وجهى قائلا : **« ألا تعلمين اننى مدله فى هواك ؟ »** .. والحق اننى دهشت ، فقد انقضى على معرفتنا به سبع سنوات ، لم يعرنى خلالها أتفه اهتمام !
كروسبى (لجويس) : يجب أن تعرف اننا لم نكن نراه كثيرا

* * *

• **وتذكر** « ليسلى » ان « هموند » مرض ـ عندما جاء

الى (الملايو) لأول مرة ـ واضطر زوجها الى أن ينقله الى دارهما اشفاقا عليه ، اذ لم يكن ثمة من يعنى به . ولقد تردد على زيارتهما بعد ذلك ، ولكن صداقته معهما لم تبلغ مرتبة الالفة الوثيقة .. « لقد اعتاد ان يأتى بين آن وآخر ليلعب التنس ، كما اعتدنا أن نلتقى به فى بيوت الغير من وقت الى آخر » .. ثم تعاود قصة الحادث :

ليسلى : وتناول كأسا أخرى ، فبدأت أحدس أنه ثمل ولم أكن خائفة البتة ،ولكننى نصحته بأن لايسرف فى الشراب، فقال :« أتظنين اننى أحدثك بهذا القول لأننى ثمل ؟ .. الواقع اننى أحببتك مذ عرفتك أول مرة . اننى أحبك .. أحبك .. أحبك ! » **(تنهض واقفة)** ونهضت ، فنحيت التطريز جانبا ، وبسطت له يدى قائلة : « عم مساء ! » . ولم يمد يده ، بل وقف وراح ينعم النظر فى ، فصحت وقد ثارت ثائرتى : « ولكن .. ألا تعرف ، أيها الغبى المسكين ، اننى لو لم أحب روبرت ، لكنت أنت آخر رجل أحفل به ؟! » . فقال : « وماذا يعنينى ؟ .. ان روبرت بعيد » . وكانت هذه هى القشة الاخيرة . **على اننى لم أكن خائفة ، فما خطر لى قط انه قد يجرؤ .. كل ما هنالك اننى كنت غاضبة ..** ومرقت بجواره، أبغى بلوغ الشرفة لأنادى الخدم . ولكنه أمسك بذراعى ، فصرخت مهتاجة ، ولكنه وضع يده على فمى .. اواه ، انه لأمر فظيع ، مخجل ! **(تبكى بحرارة فيواسيها زوجها والمحامى)** ولم أدر كيف أتصرف .. وأحاطنى بذراعيه ،وراح يقبلنى .. وناضلت ، وصرخت ، وحاولت أن أتخلص منه ، ولكنه كان كالمجنون . ولست أدرى ما حدث ، فقد اختلط على كل شيء، وتملكنى الذعر .. وراح يردد انه يحبنى ويشتهينى .. ما افظع أن يشعر المرء بالضعف ! .. **وراح يشدنى اليه ، حتى كادت أنفاسى تتقطع .. ثم حملنى رغم نضالى .. وكان وجهه ابيض ، وعيناه تتوهجان .. كان كالوحش !.. لا تنظروا**

الى ! .. لقد فطنت الى أنه كان يحملنى الى غرفة النوم .. أواه ! (تتوقف لحظة لتتمالك نفسها ، ثم تقول) وحدث كل شىء فى لحظة ، فقد تعثر هو ووقع .. ولست أدرى كيف حدث ذلك ، ولكننى تحينت الفرصة ، فأفلت منه .. كنت أتصرف بالغريزة ، فلم أكن أتبين ما أفعل ! .. وقفزت ، وكان ثمة مسدس على المنضدة ، فتناولته .. ولم أفطن الى أننى أطلقت الرصاص ، ولكننى سمعت الدوى .. وترنح ، وصرخ .. واقتربت منه ، وأنا فى هيـاج ، فاندفع خارج الحجرة ، نحو الشرفة ، فتبعته .. ولست أذكر شيئا ، ولكنى سمعت دوى الطلقـات تباعا .. اننى لا أسالكم ان تصدقونى ، ولكننى — فى الواقع — لم أكن أدرى أننى أطلق الرصاص .. الى ان نفدت الطلقات .. فاذ ذاك فقط ، ادركت ما فعلت !

كروسبى (يحتويها فى احضانه) : يا لطفلتى المسكينة ! ..

جويس : وكيف تصادف وجود المسدس هناك ؟

كروسبى : اننى احرص — حين أغيب عن ليسلى ليلا — على أن أترك سلاحا ، فى متناول يدها

ويذرس : اسمحى لى بأن أقول انك كنت رائعة فى تصرفك .. ومن الواضح ان الرجل كان ثملا ، ولم ينل سـوى ما كان يستحقه

ويخرج ((جويس)) مع ((ويذرس)) ليلقى نظرة على الجثة ، فتبدى ((ليسلى)) لزوجها جزعها من ان يثير الحادث تقولات الناس ، فيطمئنهـا الى أن أحـدا لن يجسر على ان يعيب تصرفها .. ويكشف حديثـه عن مدى شغفه بها . واكباره اياها . ولا يلبث ((ويذرس)) والمحامى أن يعـودا ليقترحا الرحيل الى (سنغافورة) ، حيث يتصلون بالنائب العام ، لابلاغه الحادث

ليسلى : هل سيلقى القبض على ؟

جويس (وهو يرمق ويذرس) : اظنهـا الآن .. فى حـكم المقبوض عليها !

ويذرس : انه مجرد اجراء شكلى يا مسز كروسبى .. ان المستر جويس يرى ان تسلمى نفسك للنائب العام !

ليسلى : وهل سأودع السجن ؟

جويس : هذا أمر يبت فيه النائب العام ، اذ يتوقف على نوع الاتهام الذى سيوجهه اليك .. انه مسوق الى أن يؤدى واجبه !

وتجفل « ليسلى » ، وتضم قبضتيها ، ولكنها لا تلبث ان تتمالك روعها فى جهد ، وتنصرف لتستبدل ثيابها ، فينصح المحامى زوجها بأن يرافقهـا ، واذ ذاك تلتفت اليه قائلة : «ثق من اننى لاافكر فى الانتحار ! » .. ويبدى ويذرس اعجابه ـ بعد انصراف الزوجين ـ بقوة أعصاب « ليسلى » وجلدها الخارق ، فيقول « جويس » ان لديها من قوة الشخصية فوق كل ما كان يتصوره ، وهو الذى عرفها منذ زواجها من « كروسبى » ، الذى كان من أقدم زملائه فى الاقامة فى الملايو

جويس : وبهذه المناسبة ، هل كان « هموند » مفرطا فى الشراب ؟

ويذرس : اننى لم أقض هنـا سوى ثلاثة أشـهر ، فهـذا أول منصب لى كمعاون للشرطة .. على اننى لم أعرف ان « هموند » كان مفرطا فى الشراب ، ولم اره قط ثملا !

جويس : وأظنه كان ممن يلقون حظوة لدى السيدات ؟!

ويذرس : كان مليحا جدا .. وكان مستهترا ، مبذرا . ولقد فهمت انه كان من أحب رجال المستعمرة .. **كان من النوع الذى لا يعاديه أحد !**

جويس : أو تظنه ممن يتوقع منهم مثل التصرف الذى بدر منه نحو مسز كروسبى ؟

ويذرس : ومنذا الذى يملك أن يجزم بتصرف رجل اذا ثمل ؟

وتعود « ليسلى » وزوجها .. واذ يهمون جميعا بالخروج، يسأل « جويس » السيدة عما دعاها الى اطلاق الرصاص على الجثة بعد موتها

ليسلى : لست أدرى .. لقد فقدت عقلى اذ ذاك .. ان الأحداث لتبدو لى الآن مضطربة ، مهوشة ، متداخلة !

* * *

• **وتدور** أحداث الفصل الثانى فى حجرة الزيارة بسجن (سنغافورة) ، جلس « كروسبى » الى جوار النافذة ، فى الثياب التى اعتاد أن يرتديها أثناء أسفاره . ولا يلبث الباب ان يفتح ليدخل « جويس » ، وفى اثره « اونج تشى سينج » .. رجل من (كانتون) أنيق الملبس .

وندرك من الحوار أن كلا من « كروسبى » و « جويس » قد أقبل لزيارة « ليسلى » اذ كان من المرتقب ان تنعقد المحاكمة فى اليوم التالى . ونرى أن الأول مثقل الفؤاد ، مشتت الحواس ، حتى ليكاد يهمل أعماله

جويس : يجب أن تروض نفسك على التجلد . من العجيب أن تكون أكثر تأثرا بالأمر من زوجتك ، فان شعرة واحدة لم تهتز من جسدها !

كروسبى : انها تعادل عشرة من أمثالى ، ولا يضيرنى أن أعترف بهذا .. اننى بدون ليسلى كالحمل الذى ضل عن أمه !

ويلمح كروسبى « اونج » ، فيذكر له « جويس » انه مساعده ، وانه محام حصل على اجازة القانون من جامعة (هونج كونج) . ثم يسأل « اونج » ان يغادر الحجرة .

جويس : ان كل امرىء يميل الى الوقوف فى صفكما يا صديقى ، ولا أحسب ان شخصا واحدا من المحلفين سيتخذ مجلسه فى القاعة ، الا وقد اعتزم فى نفسه ان يقضى بأنها « غير مذنبة » ! .. على اننى اقصر فى واجبى ، اذا لم أبلغك بأن ثمة نقطة تسبب لى بعض القلق .. لو ان زوجتك أطلقت رصاصة واحدة على « هموند » ، لكانت الطريق ممهدة ، سهلة . ولكنها ـ لسوء الحظ ـ أطلقت ست رصاصات

كروسبى : ان الايضاح سهل .. أى امرىء كان خليقا بأن يفعل ذلك ، اذا كان فى ظروفها !

جويس : حقا ، بيد أنه ليس من الخير أن نغمض أعيننا عن الحقائق .. ان هذه هى النقطة التى كنت أبادر لاستغلالها ، لو اننى كنت فى مكان المدعى العام

كروسبى : كنت أحسب أن اخلاق هموند هى النقطة الهامة!

ويذكر المحامى انه اكتشف ان الرجل كان يعاشر امرأة صينية ، عاشت معه فى داره ، طيلة الأشهر الثمانية الأخيرة .. وأن هذا الأمر أثار الرأى العام ضد القتيل

كروسبى : وهل ستكون المرأة بين الشهود ؟

جويس : لن استدعيها ، بل سأقدم القرينة على انه كان يعاشرها .. وعلى ضوء استنكار الرأى العام ، أحسب أن المحلفين سيقبلون هذا كدليل على أن « هموند » كان ذا خلق معوج !

ويستدعى « كروسبى » ليزور زوجته ، فيبادر الى

الخروج ملهوفا .. واذ ذاك يستدعى « جويس » مساعده ، ويطلب منه أوراق القضية ، ثم يصرفه . ولكن « أونج تشي سينج » يتلكأ ، ليدلى اليه بأمر خطير وسرى ، يتعلق بالقضية

أونج تشي سينج : لقد نمى الى أمر يبدو أنه خليق بأن يغير معالم القضية .. فقد علمت أن ثمة رسالة من المتهمة الى ضحية المأساة التعسة .. وقد كتبت هذه الرسالة فى ذات اليوم الذى لقى فيه مستر هموند مصرعه ! .. وانت تذكر يا سيدى ـ ولا شك ـ ان مسز كروسبى ذكرت انها قضت اسابيع عديدة ـ قبل الليلة المشئومة ـ دون أن تتصل بالقتيل

ويقدم للمحامى صورة من الرسالة ، استطاع أن يظفر بها من الصديق الذى أنبأه بأمرها ، فيقرأ « جويس » ما جاء فيها : « سيتغيب روبرت الليلة ، ولابد لى من أن أراك .. سأرتقبك فى الساعة الحادية عشرة . اننى يائسة ، ولن أكون مسئولة عن التبعات ، اذا لم تأت ... لاتقبل فى سيارتك ـ ليسلى »

جويس : وما الذى يحملك على الظن بأن مسز كروسبى هى كاتبة هذه الرسالة ؟

أونج : لدى كل ثقة بصحة معلوماتى يا سيدى . ومن الميسور تمحيصها ، بأن تسأل مسز كروسبى !

* * *

• **ويذرع** « جويس » المكان مفكرا .. ويخرج من الاسئلة ـ التى يوجهها الى مساعده ـ بأن ثمة مساومة ، فى مقابل تفادى وصول الرسالة الى المدعى العام .. وان هذه الرسالة لدى صديق لأونج ، تربطه بعشيقة « هموند » الصينية صلات قربى . ولا يلبث المحامى أن يصرف مساعده ، ثم

يستغرق فى الاطلاع على أوراق القضية ، الى أن تلج «ليسلى» الغرفة فى بشاشة ، وكأنها تستقبل ضيفا فى دارها .. **وفى سياق الحديث ، يبدى ((جويس)) عجبه من انها كلما روت قصة الحادث ، استعملت عين الكلمات ، دون أى تحوير أو تعديل .. ثم يقول : ((اعتقد انك لم تتصلى بهموند لبضعة أسابيع قبل النكبة))**

ليسلى (فى ابتسامة ودية) : تماما .. اننى متأكدة

جويس : أواثقة أنت تماما من انك لم تكتبى اليه !

ليسلى : كل الثقة .. لم يكن ثمة ما يدعو لأن أكتب اليه ، اللهم الا أن أدعوه الى مأدبة أو الى مباراة للتنس ، وهذا ما لم أفعله لعدة شهور

واذ ابدى المحامى عجبه من ان علاقاتها مع ((همـوند)) فترت فجاة ، برغم انها كانت وثيقة فى فترة ما ، قالت : ((الواقع اننى كنت أعرف أمر المرأة الصينية .. بل اننى رأيتها !))

جويس : آه ! ولكنك لم تذكرى هذا قط

ليسلى : ما كان هذا بالشىء المستساغ .. كما أننى كنت واثقة من انك لن تلبث أن تكتشفه !

جويس : فكأنك قطعت صلاتك بهموند بعد أن عرفت أمرها .. ولكنك لم تذكرى لزوجك شيئا عنها !

ولا يلبث أن يطلعها على الخطاب فتضطرب وتشحب ، ثم تقول : ((اننى لم اكتبه .. أقسم !))

جويس : اذا كان الاصل بخطك، فلن تكون للانكار جدوى .. ان هذا الخطاب سيمكن المدعى العام ـ اذا ما وقع فى يديه ـ من أن يضيق الخناق فى سؤال خدمك .. فهل انت على استعداد لمواجهة الموقف ؟

وتصمت فى حيرة وارتباك ، ثم تسائله عن المعنى الذى



يتبادر الى الذهن عند قراءة الخطاب ، فيقول : ((سيعرف الجميع انك كنت تكذبين متعمدة .. وان هموند زارك ليلة مصرعه ، بناء على رغبتك !)). وهنا تعترف بانها كتبت له تدعوه لتستعين به فى ابتياع بندقية جديدة تفاجىء بها زوجها كهدية فى عيد ميلاده !

جويس : لعل عبارات الرسالة غير واضحة لذاكرتك: أفترين مثل هذه الرسالة تصدر عن امرأة لواحد من المعارف القصيين ، لمجرد رغبتها فى أن تستشيره فى شراء بندقية ؟.. لقد عهدتك شديدة التحفظ ! .. لماذا سألته ان يوافيك فى الساعة الحادية عشرة ، وان لا يقبل فى سيارته ؟

وتحاول أن تبحث عن مبررات وحجج ، ولكن المحامى يقول : ((لم تكن أمامى سوى نقطة واحدة يعوزها الايضاح.. تلك هى أنك أطلقت ما لا يقل عن أربع رصاصات على ((هموند)) وهو مسجى على الأرض . ومن العسير تقبل احتمال ان تستسلم امرأة رقيقة ، مرتاعة ، لطيفة بطبعها ، لمثل هذا الحقد الجامح . على اننى كنت على استعداد لأن أبرهن على أن جيوفرى هموند ممن يقدمون على الجرم الذى يبرر تصرفك . وقد اتاح لنا ما عرفناه بعد موته ـ من انه كان يعاشر امرأة صينية ـ أساسا نبنى عليه !)) ..

جويس : ولكن هذا الخطاب غير معالم القضية ، وانا

مستشارك القضائى ، الذى سيمثلك فى المحكمة .. اننى اتلقى قصتك ـ كما تروينها ـ وابنى عليها دفاعى .. وقد أصدق أقوالك ، كما قد ارتاب فيها ، ولـكن مهمتى هى أن أقنـع المحلفين بأن القرائن المطروحة أمامهم لا تبرر الحكم بالادانة ، سواء آمنت ببراءة موكلتى أو بجرمها ، ولكن .. لسـوف يوحى اليهم هذا الخطاب بالشك الذى لم يراود أى امرىء ..

وتنهار جويس فجأة ، وتقع مغشيا عليها .. ويسرع الى اسعافها . فما ان تفيق حتى تبذل جهدا للسيطرة على نفسها ، وتتنهد وتقول : ((أخشى أن أكون قد عقدت الأمور واربكتها .. اننى اعرف انك آسف ، ولـكن .. من اجل روبرت !)) .. وتتفق مع المحامى على ان يشترى الخطاب

جويس : يا لروبرت المسكين ، ان الأمر خليق بأن يقتله !.. لسوف أبذل قصارى جهدى ، ولكن .. لا تحسبى اننى لا أدرك اننى أرتكب وزرا .. اننى أرتكبه وأنا مفتح العينين !..

وتذكر له انزوجها يمتلك اسهما كثيرة فى منجم للقصدير ، وانصبة فى مزرعتين أو ثلاث للمطاط

جويس : لابد من مصارحته بالغرض الذى تراد النقود لأجله

ليسلى : وهل من الضرورى اطلاعه على الخطاب ؟

جويس : سأبذل غاية وسـعى لأمنعه من رؤيته الى ان تنتهى القضية . فهو شاهد من أهم الشهود ، وأرى من الضرورى أن يظل مؤمنا ببراءتك

ليسلى : وبعد القضية ؟ .. ارجو .. من اجـله هو . لسوف يفقد كل شىء ، اذا هو فقد ثقته فى !

وما أن تنصرف ((ليسلى)) الى غرفتهـــا ، حتى يقبل ((أونج تشى سينج)) ، فيحرص ((جويس)) على أن يوحى اليه بأن مسز كروسبى تنكر كل شىء عن الخطاب ، وتؤكد انه مزور .. ولكنه ـ مع ذلك ـ يؤثر ان يحصل على هـذا

الخطاب ، حرصا على مصلحة القضية . ثم يسأله عن الثمن المنشود ، فيقول : ((عشرة آلاف من الدولارات !)) .. ويعجز المحامى عن تخفيض الثمن . ثم يصرف مساعده ، اذ يفد كروسبى

جويس : لقد جد شىء غير سار يا بوب ، اذ يبدو ان زوجتك أرسلت الى هموند رسالة تستدعيه الى داركما فى ليلة مصرعه !

كروسبى : هذا مستحيل

جويس : ولكن الخطاب موجود فى حوزة المرأة الصينية التى كان هموند يعاشرها ! .. لقد كانت زوجتك تعتزم أن تعد لك هدية بمناسبة عيد ميلادك، فرغبت الى هموند أن يساعدها فى الحصول عليها . وقد نسيت أمر الخطاب فى اضطرابها

كروسبى : ان هذا يناقض طبيعتها .. وهل للخطاب أهمية كبيرة ؟

جويس : ان وقوعه فى يدى المدعى العام ، يحرج موقفنا .. الا ترى انه يوحى بأن هموند لم يكن متطفلا ؟ ولا مقتحما لدارك ، وانما جاءها مدعوا ؟

كروسبى : لست أفهم .. على انك لست محامى فحسب، وانما أنت أعز صديق لى فى الدنيا ، وسأفعل ما تراه صوابا

* * *

فاذا رفعت ستار الفصل الثالث ، فنحن فى حجرة زرية بالحى الصينى بسنغافورة ، وقد عبق جوها بدخان الأفيون المتصاعد من غليون ((تشونج هى)) .. ونرى هذا مستلقيا على حشية من القش فى غرفة عارية الا من صندوق خشبى . ولا يلبث الباب ان يفتح ، ليلج ((أونج تشى سينج)) ، مفسحا الطريق لجويس ، الذى يدخل متأففا ..

ويبادر ((جويس)) متسائلا عن الخطاب ، فيرسل

« تشونج هى » فى استدعاء قرينته الصينية ، التى كانت عشيقة لهموند .. وتأتى المرأة فتجلس على الصندوق الخشبى ، غير ملقية بالا الى المحامى .. وتشعل سيجارة

ويحصى «جويس» الأوراق المالية ، ثم يسلمها الى «اونج» الذى يعدها بدوره ، و « تشونج هى » يراقبه .. ثم يدفعها الى المرأة الصينية التى تسلمه بدورها الخطاب

اونج (متأملا الخطاب) : انه الوثيقة المنشودة يا سيدى !

(يسلمه اياه) انك لن تندم على الصفقة ياسيدى ، اذا راعيت كافة الظروف

جويس (ساخرا) : اعرف انك عظيم الرعاية لى ، بحيث تربأ بى أن أدفع فى شىء أكثر من قيمته فى السوق !

* * *

• **وننتقل** بعد ذلك الى مشهد آخر .. عين المنظر الذى رأيناه فى الفصل الأول ، فى دار « كروسبى » . ونرى مسز جويس منهمكة فى اعداد المكان لاستقبال مسز كروسبى ، وهى تنثر الزهور فى الأركان ، ومعها « ويذرس »

ويذرس : لن انسى قط الهتاف الذى انطلق عندما قال المحلفون : « غير مذنبة » ! .. ولست انسى الطريقة التى ادلت بها مسز كروسبى بأقوالها .. انها رائعة !

مسز جويس : اننى لم اتمالك نفسى من البكاء . لقد قال لى « هوارد » منذ أيام ، انه لم يعرف امرأة لها ما لليسلى من تمالك الجأش والسيطرة على النفس !

وتصل ليسلى – يتبعها كروسبى وجويس – فما ان تتخلص من عناق مسز جويس ، حتى تبسط يديها لجويس ، وتقول فى ابتسامة ساحرة : « لقد فعل كل شىء ، وانى لأعجز عن أن أشكره ! » .. وتذهب مسز جويس وويذرس الى المطبخ

ليعدا « الكوكتيل » احتفالا بالمناسبة ، واذ ذاك يقترح جويس على كروسبى ان يصحب زوجته فى رحلة لأسبوعين او ثلاثة

كروسبى : وما فائدة أسبوعين أو ثلاثة .. يجب أن نرحل نهائيا

جويس : ليس بوسعك أن تجد أفضل من منصبك هنا !

كروسبى : بل اننى أتطلع الى شىء أفضل .. ثم انه لم يعد لنا مقام هنا .. كيف ننسى ما جرى فى هذه الدار (**ترتجف ليسلى**) لقد اوتيت ليسلى اعصابا من حديد ، ولكن للطاقة البشرية حدودا ..

ليسلى : لا تفكر فى امرى يا « بوب » . انك انت الذى أنشأت هذه المزارع ، فهى بمثابة الطفل من قلبك

كروسبى : اننى أوقن من ان هدوء بالنا لن يتيسر الا فى مكان ننسى فيه كل شىء .. ولقد خطر لى ان نذهب الى (سومطرا) ، فلن نصادف هناك سوى هولنديين ، ومن ثم نبدأ حياة جديدة ، بين أصدقاء جدد ! .. وهناك سأعمل لحساب نفسى ، لا لحساب شركة بغيضة فى لندن !

جويس (مجفلا) : ما اظنك ستبتاع مزرعة هناك ؟ !

كروسبى : بل سأفعل ، فلماذا أظل العمر أشقى ليكسب الغير ؟ .. ثمة مزرعة نادرة المثال ، يمتلكها صينى من (ملقا) يعانى ضائقة مالية ، وقد أبدى استعدادا لأن يبيعنيها بثلاثين ألفا من الدولارات ، اذا حصل على النقود بعد غد !

واذ يروح يتحدث عن الأسهم والنقود التى يمتلكها ، تتبادل ليسلى وجويس النظرات فى وجوم ، ويحاولان ان يثنياه عن التحمس للصفقة ، ولكنه لا يزداد الا تشبثا بمشروعه . ويخرج من الحجرة ، ليحضر لهما صور المزرعة

جويس : لقد اضطررت الى أن أدفع عشرة آلاف دولار ، فى مقابل الخطاب

ليسلي : لا تقل له الآن شيئا .. أمهلني بعض الوقت ، فلست أقوى على احتمال صدمة جديدة !

جويس : ولكني لا أملك مبلغا كهذا أقرضك اياه .. واذا استطعت تدبيره فلن يسعني أن أمهلك أكثر من بضعة أسابيع ..

ليسلي (تقاطعه) : اذا امهلتني شهرا ، فقد أدبر أمرا .. وأعد روبرت للحقيقة بأن أوضحها له تدريجا . لكم أرثي له ! سيحطم الأمر فؤاده ! **(تفكر قليلا)** ليس أمامنا سوى امر واحد .. صارحه بالأمر .. صارحه .. لقد كتب على أن أتحطم !

ويعود كروسبي حاملا بعض الاوراق والصور ، فيبادره جويس متسائلا : ((هل خطر ببالك ان نفقات القضية جد باهظة ؟ .. اننا لن نلاحقك بطلبها طبعا ، ولكننا لن نصبر الى ما لا نهاية .. لذلك أحب أن أنبهك الى انك لن تجد لديك نقودا كثيرة تنفقها على مغامرات غير مضمونة ، اذا ما سوينا الحساب !))

كروسبي : انك تبث الخوف في نفسي . كم تبلغ النفقات ؟

جويس : انني لن اتقاضاك اتعابا عن خدماتي الخاصة ، ولكن ثمة نفقات دفعناها ، ولا بد من ان نستردها .. أتذكر أنك خولتني أن أفعل ما أراه صالحا ، بشأن الخطاب ؟ .. لقد ابتعته ، واضطررت الى أن ادفع مبلغا جسيما .. عشرة آلاف من الدولارات !

كروسبي (مبهوتا) : عشرة آلاف ! .. انها ثروة .. حسبتك ستقول مائتي دولار .. لا بد أنك مجنون ! .. ان هذا يهبط بي الى مصاف المتسولين ! .. ما الذي كان في الخطاب ؟ آه ، تذكرت .. **(مخاطبا ليسلي)** انك كتبت الى « هموند » تدعينه الى « الفيلا » .. كنت تريدينه على ان يبتاع لك شيئا .. فلماذا سألته هو بالذات ؟

ليسلى : اجل ، اردت ان يبتاع لى هدية لعيد ميلادك .. بندقية .. وكان يعرف كل شيء عن البنادق

كروسبى : ولكنني ذهبت الى (سنغافورة) لابتاع بندقية !

ويردف انه كان قد أخبرها ، فتزعم انها نسيت ، ولكنه يقول : « بل انك لم تنسى ! » . وتراوغه ، ولكن الزوج يغتاظ ويعنف فى لهجته ، ويصر على أن يرى الخطاب الذى كلفه هذا الثمن .. ويضطر جويس الى ان يقدم اليه الخطاب فيقرأه ، ثم يتساءل فى صوت مبحوح : « ما معنى هذا ؟ »

ليسلى : معناه ان جيوفرى هموند كان عشيقى !

ويغطى « كروسبى » وجهه ، وهو ملتاع ، بينما يتساءل المحامى : « ولماذا قتلته ؟ »

ليسلى : لقد ظل عشيقى مذ عاد من الحرب .. وكنت أوافيه فى مكان معين ، مرتين أو ثلاثا فى الاسبوع .. كما اعتاد ان يأتى فى ساعة متأخرة من الليل ــ بعد نوم الخدم ــ اذا ما سافر روبرت الى سنغافورة !

ويتأوه كروسبى ، ويردد : « كل هذا .. وانا أأتمنك وأحبك ؟ ! »

ليسلى (ماضية فى قصتها) : وبدأ يتحول منذ عام ، فكدت أجن .. لقد عشت فى جحيم .. كنت أحبه ! .. لم أكن اريد ذلك ، ولكننى لم أكن أملك لنفسى زماما .. بل اننى كنت أكره نفسى اذ أحبه ، دون أن اقوى على العيش بدونه !.. ثم سمعت انه يعيش مع امرأة صينية .. ورأيتها فى القرية ، فلما مررت بها ، نظرت الى .. وتبينت انها كانت تعرف اننى الأخرى عشيقته ! .. وكتبت الخطاب لاستدعيه .. كنت مجنونة اذ كتبته ، اذ اننى لم أكن قد رأيته لعشرة ايام .. وكان حريصا دائما على أن يمزق كل كلمة أكتبها اليه ، بمجرد اطلاعه عليها .. فكيف كان لى أن أحدس انه قد يترك هذا الخطاب ؟

وتروى « ليسلى » كيف جاءها « هموند » فأنكر معاشرته المرأة الصينية ، فراحت تسبه وتهينه .. « وأخيرا ، ثار فى وجهى واخبرنى انه ملنى وضاق بى ولم يعد راغبا فى رؤيتى .. وان المرأة الصينية كانت الوحيدة التى تعنيه ، واما من عداها فمجرد ملهاة وتسلية .. قال لى اشياء كنت أعتقد ان من المستحيل على أى رجل ان يوجهها لامرأة .. ولو كانت مومسا من بنات الشوارع ! .. ولم ادر بعد ذلك ما حدث ، بل أمسكت بالمسدس ورحت أطلق النار ، حتى نفد الرصاص ! »

كروسبى : أو كنت أستحق هذا منك يا ليسلى ؟

ليسلى : لا .. لقد كنت شريرة .. لقد غررت بك !

كروسبى : انما اردت الرحيل من اجلك .. وما ادخرت تلك النقود الا من أجلك .. اما الآن ، فلا بد من المكث هنا ، على اننى استطيع أن أوفر لك مايكفيك كى تعيشى فى انجلترا

ليسلى : واين اذهب ؟ .. لا اسرة لى ولا اصدقاء ..

كروسبى : كيف جرؤت يا ليسلى ؟ أى ذنب ارتكبته لكى أعجز عن الظفر بحبك ؟



ليسلى : ماذا أقول ؟ .. ما كانت التى خدعتك انا .. ولا التى أحبت الآخر أنا .. كان جنونا استولى على ، ولم أقو على أن أمسك زمام نفسى .. كنت محمومة ..

كروسبى : أن أغرب ما فى الأمر ، هو اننى ما زلت ، رغم ذلك .. أحبك ! يا الهى ، لكم تزدريننى ولا بد ! .. بل لكم ازدرى نفسى !

ويدفن وجهه فى راحتيه ، ثم يجهش بالبكاء ، فتجثو على ركبتيها بجواره ، وتهتف : ((اواه ، لا تبك أ .. ياحبيبى .. يا حبيبى !)) .. فيقفز من مكانه ، ويدفعها عنه .. ويندفع مغادرا الحجرة ، فتنهض ليسلى واقفة

جويس : لا تذهبى وراءه ، بل اتركى له مهلة كى يتمالك نفسه .. لسوف يغفر لك ، فهو لايستطيع العيش بدونك !

ليسلى : ليته يتيح لى فرصة اخرى

جويس : أو لست تكنين له شيئا من الحب ؟

ليسلى : لا .. ليتنى استطيع ! .. على اننى سأهبه حياتى .. له وحده ! اقسم أمامك على اننى سأبذل كل ما فى الدنيا لأسعده .. سأعوضه ، وسأضطره الى النسيان .. ولن يعرف اننى لا أحبه الحب الذى يبتغيه ! **(وتسدل الستار)**

* * *

(المؤلف) : لقد فكرت ـ مادامت المسرحية قد نشرت ـ فى أن أضيف هنا التعديل الذى أدخل عليها عند تمثيلها ، لا ارضاء لغرور المؤلف ، وانما لكى أرضى الهواة كذلك . فبدلا من اعتراف ليسلى ، فى النهاية ، اضفت منظرا يصور ما ترويه ، حتى أجنب رواد المسرح الضجر الذى يبعثه انصاتهم الى قصتين طويلتين فى مسرحية واحدة . وهذا هو التعديل :

• **يخرج** ((جويس)) الخطاب ويسلمه الى كروسبى فيقرأه ، ثم يقول بصوت مبحوح : ((ما معنى هذا ؟))

ليسلى : معناه ان جيوفرى هموند كان عشيقى !

ويغطى ((كروسبى)) وجهه ، وهو ملتاع ، بينما يتساءل المحامى : ((ولماذا قتلته ؟)) فتروى ليسلى قصة حبها لهموند ، واكتشافها ان له عشيقة صينية .. الى ان تقول : ((واستدعيته !))

وهنا يظلم المسرح لحظة ، فاذا عادت اليه الاضواء ، ترى ((ليسلى)) فى الثوب الذى كانت ترتديه فى الفصل الأول ، وقد جلست بجوار المنضدة ، منصرفة الى ((اللاسيه)) . ويقبل جيوفرى هموند ، فتهتف به : ((ظننت انك لن تأتى قط !))

هموند : ما الذى جرى ؟ .. ان رسالتك توحى بان فى الجو شيئا

فتقول انها لن تقوى على ان تمضى فى علاقتها معه على الوضع القائم . ويحاول ان يتجاهل ويراوغ ، فتصيح به : «لا تعاملنى كما لو اننى كنت حمقاء غبية ! »

هموند : اذا كنت قد استدعيتنى لتتشاجرى معى ، فسأنصرف .. لقد سئمت هذه المشاجرات الأبدية !

ليسلى : انك تدفعنى الى اليأس والقنوط !

يرمقها لحظة ، ثم يتقدم منها فى تؤدة ، ويداه فى جيبيه

هموند : الا تلاحظين انك أصبحت لا تكادين تقابليننى حتى تثيرى شقاقا ؟ .. هذا معناه ان العلاقات قد بدأت تهن وتبلى

وينصحها بأن يقطعا ما بينهما من علاقات فتجزع ، ثم تثور وتقذف فى وجهه بما عرفته عن المرأة الصينيـة .. وينكر هموند ، فتذكر له انها رأتها ، ولكنه يظل على انكاره واستخفافه .. فتصيح به : ((كذب !))

هموند : حسنا ، فلماذا اذن لا تدعيننى أفارقك ؟

ليسلى : لاننى أحبك بكل قلبى ، رغم كل شىء .. لا أستطيع أن أدعك تنصرف الآن ، فانت كل من لى فى الدنيا .. اذا كنت لا تحبنى ، فاشفق على !

هموند : لست أريد أن أشقيك ياعزيزتى .. ولكنه الواقع! .. هذه هى النهاية ، ويجب ان تروضى نفسك على قبولها !

ليسلى : يا للقسوة ! .. أواه ، انك كالصخر ! .. اننى على استعداد لأن أفعل كل شىء فى سبيلك ، فامنحنى الفرصة

هموند : يا الهى ، لماذا لا تفهمين ؟ اؤكد لك اننى مللت وسئمت .. أتحبين أن أقول لك بصراحةانك لم تعودى ذات مكانة فى نفسى ؟

ليسلى (فى قنوط) : اجل ، لقد عرفته بجلاء وشعرت به .. لم يعد الحب هو الذى يحتدم فى فؤادى ، وانما هو الجنون .. ان رؤيتك عذاب ، ولكن عدم رؤيتك عذاب أشد وأقسى .. واذا فارقتنى فسوف أقتل نفسى !

وتتناول المسدس الذى كان على المنضدة ، ولكن «هموند» يسفه حركتها ، ثم يصيح فى انفعال : « لم أعد أطيق صبرا معك ! »

ليسلى : لقد دمرت حياتى ، حتى اذا مللتنىأصبحت تروم أن تنبذنى ! .. لن أدعك تنصرف .. ابدا ، ابدا !

وتطلق عليه النار ، فيترنح ويقع .. ويظلم المسرح مرة أخرى .. ويسمعصوت «ليسلى» ، وهىماضية فى القصة : « وجريت وراءه ، وأطلقت النار ثانية .. ثم وقفت بجوار الجثة ، وظللت اطلق النار ، حتى نفد الرصاص ! »

كروسبى : أو كنت استحق هذا منك يا ليسلى ؟

(ويستطرد المنظر علىالنسق السابق ،حتىتسدل الستار)

— ٥ —



صلاح الدين الأيوبي

القائد العربي الذي انحنت له جباه الغرب

بقلم : محمد كامل الدهميس

بين القرن العشرين .. والثانى عشر

• سبعة قرون ونصف قرن انقضت ، مذ شهد الشرق الأوسط تلك الاحداث التى جعلت اسم « صلاح الدين » يتردد على كل لسان فى أحداث يومنا الحاضر .. فان أحداث أمتنا العربيــة الاخيرة ، تشبه تلك الاحداث التى وقعت فى أواخر القرن الثانى عشر .. ففي ذلك الحين ، كان الشرق نهبا لاطماع الغرب ، وكانت الاراضى المقدسة مسرحا للمؤامرات والحروب .. ثم هب المارد الجبار ليطرد من أرضه الطامعين ، وليطهر أرجاءه من الاستعمار ، وليوحد صفوفه ضــد الاستغلال .. واتحدت مصر وبــلاد الشام – تحت قيادة « صلاح الدين » – كما اتحدت مصر وسورية اليوم ، تحت زعامة «عبد الناصر » ..

فتعال نستعد ذكرى « صلاح الدين » وأعماله فى هـذا البحث المستمد من :

١ – حياة صلاح الدين الايوبى للدكتور احمد بيلى
٢ – الحروب الصليبية لشهاب الدين المقدسي
٣ – دائرة معارف وجدى
٤ – دائرة المعارف البريطانية
٥ – دائرة المعارف الفرنسية

وقفة على ضريح البطل

• **وقف** الامبراطور ويلهلم الثانى – قيصر ألمانيا وملك بروسيا – على ضريح صلاح الدين ، أثناء زيارته لبلاد الشام ، فى سنة ١٦٩٨ – فقال : « انه لمما يثلج صدرى أن أوجد فى بلد عاش على أرضه رجل لم ينجب عصره مثله شجاعة أو شهامة أو شهرة .. الا وهو صلاح الدين الايوبى » ! ثم غادر الضريح تاركا عليه اكليلا بديعا من الورود ، تكريما لذكرى القائد العربى ، ذلك القائد الذى جابه جيوش الانجليز الجرارة قائلا : **« قفوا مكانكم ، فهاكم قلب أسد أقوى من قلب اسدكم ! »**

ولنبدأ القصة من أولها .. قصة البطل الذى تجددت – أخيرا – ذكراه ، عندما حققت مصر وسورية وحدتهما

حروب دنيا .. فى ثياب دين

• **ثمرة** شهية انتبهت اليها بلاد الغرب فجأة ، فهبت طامعة

تريد اقتطافها .. فقد انهارت الدولة الاسلامية ، وتفتتت الى دويلات ما كان حاكم الواحدة منها ليعنى الا بأن يحظى بالسلامة فى حياته وبالرخاء فى معاشه ، محاولا قدر جهده أن يقضى عمره فى سلام !

وفى تلك الاثناء بالذات ، تفشت فى الغرب روح التناحر ، ودب صراع غريب بين دوله ، لانستطيع ان نسميه حربا ، لان لفظ الحرب أكرم !.. فلقد دب بين الدول الغربية ، مايشبه أمر العصابات فيما بينها .. نهب وسرقة واغتصاب !.. نهب أراض ، وسرقة رعايا ، واغتصاب مناصب وسلطان !

ولكن .. قدر للبابا « أوربانوس » الثانى أن تنتابه – فجأة – يقظة يشرف فيها على حال الشرق ، اشراقة من الهام ، أوحت اليه بأن يولى وجهه شطر الشرق ، فاذا به يرى فيه ثمرة شهية ناضجة حان قطافها . فقام يدعو الغرب الى الاتحاد للانقضاض على الشرق ، بحجة تخليص بيت المقدس من أيدى المسلمين . قام يدعو أرواح الناس قبل عقولهم ، فكان يقول : « أيها الجند ، أنتم الذين كانوا سلع الشرور والفتن .. ألا هبوا اليوم وقدموا قواكم وسواعدكم ثمنا لايمانكم ، وتسلحوا بسلاح الدين والتقوى ، فانكم بذلك تنالون الجزاء والنعيم الدائم ..! » . وظل بالناس يدعوهم ويوفد رجاله لاستنهاضهم ، حتى وفق الى استفزازهم ، فهبوا يتأهبون للاغارة على الشرق .

ولقد أجمع المؤرخون والباحثون المنصفون – الذين تجردوا من كل نعرة ، ومن كل تحيز ، ومن كل غرض سوى كشف الحقيقة – على ان الروح الدينية ، التى حملت مسئوليات الحروب الصليبية ، لم تكن موجودة الا لدى القساوسة ورجال الدين .. **ولم يكن لها من سلطان ونفوذ الا على نفوس العامة الذين كانوا يفتقدون الزعامات الصالحة ، واللذين كانوا يتخبطون فى جهل جعلهم على استعداد لان ينساقوا لاى**

تحريض باسم الدين .. أما الحكام والامراء والقادة ، فلم تكن قومتهم وتلبيتهم صرخة التحريض ، الا عن طمع فى الغنيمة ، وحب المغامرة !

ويشرح « باشوليه » ذلك – فى موسوعته التاريخية – فيقول : « أما أسبابها (أسباب الحروب الصليبية) فتتمثل – لدى العامة – فى الاعتقاد الديني ، والسلطان الروحانى الذى كانت كنيسة (روما) تنعم به .. اما عند الامراء والقـادة ، فكانت الاسباب تتمثل فى حب الرحلات والمخاطرة ، والامل العظيم فى الاستيلاء على ممتلكات واسعة فى الشرق »

وان الغرض الحقيقى لهذه الحروب ليظهر من سهو لفظى وقع فيه البابا « أوربانوس » الثانى حين قال : « انها ليست لاكتساب مدينة واحدة ، ولكنها لامتلاك أقاليم آسيا بجملتها ، مع ثرواتها وخزائنها التى لاتحصى . فاتخذوا ذريعـة البيت المقدس ، وخلصوا الاراضى المقدسة من أيدى المختلسين لها ، وامتلكوها أنتم خالصة لكم ، فهذه الارض – كما قالت التوراة : **تفيض لبنا وعسلا** »

الانانية تشتت قوى المعتدين

• **وانحدرت** جيوش أوربا الى الشام سيولا فياضة ، فسرعان ماتغلبت على الدولة الاسلامية المشتتة ، وأسست أربع ولايات مسيحية – فى آسيا – هى : (الرها) ، و (أنطاكية) ، و (طرابلس) ، و (القدس) . وان الناظر الى الخريطة ليرى أن الاوليين تقعان فى الشمال ، فى مجابهة بلاد المسلمين الذين كانت لهم قوة ونفوذ فى تلك الجهات .. ولو كانت نظرة القادة الافرنج منزهة عن الاثرة لتضامنوا فى اقامة الحصون حول هاتين الولايتين . ولكن حب الذات والانانية ، دفعا كلا منهم الى أن يقصر اهتمامه على ماكان فى يده ، دون ما اهتمام للقوة المجابهة له ، والتى لم يكن يستطيع مواجهتها بمفرده .. ولما

كان (بيت المقدس) هو القبلة التى طمع فيها كل واحدمنهم ، فقد اتجهت انظار الافرنج والمسلمين ـ على السواء ـ الى هذه المدينة

وكان من جراء ذلك ، أن سنحت الفرصة للمسلمين كى يهاجموا الفرنجة من الشمال ، فاذا بالقائد « عماد الدين زنكى » يستولى على (الرها) ، فى سنة ١١٤٤ .. ولو لم يطمع كل واحد من قادة الافرنج فى تأسيس ملك عظيم ـ له وحده ـ فى سوريا ، لما عادت أوربا بأجمعها خائبة أمام طائفة من المسلمين !

وهكذا نرى أنها كانت حروبا دنيوية ، ألبسوها رداء الدين تعلة .. وكان كل قائد ينظر الى المسائل الحربية بما يراه صالحا لنفسه ، فاذا اجتمعوا للتباحث ، تولتهم الغيرة والشكوك والظنون ! وعلى أية حال ، فقد وضع الافرنج ايديهم على بعض بلاد الشام ، وان ظلت المناطق الداخلية ، ذات المركز الهام فى سوريا ـ كدمشق وحلب وغيرهما ـ فى أيدى المسلمين !

القائد الذى لا يحب القتال !

• **وهنا** ... أثناء ثورة ذلك البركان المتفجر ، قدر أن يظهر فى الشرق عملاق جبار ، ليقوم بمعجزة ، ويسد فوهة البركان !

ظهر صلاح الدين .. فكانت نشأته الاولى فى بلاط « نور الدين » ، حاكم سوريا . وقد كان أبوه نجم الدين من أخص جلسائه ولكنه ـ على غير عادة أمثاله من الابطال ، فى شبابهم ـ كان يميل فى حياته الى الهدوء والعزلة . حتى ليقال بأنه اذا وجد العمل ، وقدر له أن يختار بين طريقين : طريق وعرة لكنها تؤدى الى المجد والشهرة ، وأخرى لينة سهلة تؤدى الى الشرف والسكينة ، اختار الثانية دون الاولى ، طمعا فى راحة النفس والضمير .. ولقد خرج مع « شيركوه » ـ على

رأس جيوش « نور الدين » – مرتين فى محاولة لفتح مصر.. حتى اذا كانت المرة الثالثة تقاعد صلاح الدين عن الحملة، وامتنع عن مرافقة عمه ، لولا أن تشبث به هذا !

على أن تقاعده لم يكن عن ضعف ، أو عن جبن ، وانما كان عن يأس من فتح مصر ، ذلك لان عدة الجيش الفاتح لم تكن كافية ، فلم يشأ أن يعانى ماعانى من أمر ذلك فى الحملتين السابقتين على مصر .

ولكن .. اذا قيل ان « صلاح الدين » كان يجنح فى شبابه الى الهدوء ، فليس معنى ذلك انه كان يميل الى الضعف !..

فكثيرا ما كان يمارس الرياضات العنيفة على صهوة جواده . ولقد بلغ من البراعة فى ركوب الخيل مبلغا جعل منه رفيقا لنور الدين فى الركوب واللهو .. وبلغ من رجاحة العقل ماجعله يتولى عددا من الوظائف العامة ، قبل أن يبزغ نجمه فى فن القتال .

البطولات الاولى .. لصلاح الدين

• **ولقد** ظهرت أولى بوادر تفوق صلاح الدين الحربى فى الحملة الاولى لجيوش نور الدين على مصر .. اذ وكل اليه عمه « أسد الدين شيركوه » – قائد الجيوش – أمر الاستيلاء على (بلبيس) ، فأظهر شجاعة فى الاستيلاء عليها ، حتى انها كانت آخر المناطق التى تركتها جيوش نور الدين بعد أن فشلت الحملة ، نتيجة وصول جيش الافرنج متظاهرا بنجدة مصر ، وهو يبغى – فى الحقيقة – الظفر بها .. ولقد انتهى الامر الى انصراف الفريقين عن مصر وفقا لاتفاقهما . ولكن « شيركوه » لم يكد يعلم بأن الافرنج أرسلوا حامية لتبقى بالاراضى المصرية ، حتى ألح على نور الدين فى غزو مصر مرة أخرى **.. فأرسلا – أقصد نور الدين وشيركوه – الى الخليفة فى (بغداد) يعرضون عليه مايعود على الامة الاسلامية بمحو**

الخلافة الفاطمية المفككة ، وتوحيد الامة تحت لواء الخلافة العباسية ، والظفر بمصر .. هذه البلاد الغنية التى كان أهلها قد انغمسوا فى الملذات والترف ، حتى استفحل ضعفهم ، ولم يعد بوسعهم أن يقاوموا أى غزو !

وقبل الخليفة هذا .. لا عن طمع فى أن يضيف بلدا غنية الى بلاده ، وانما كان جل همه أن يعيد الوحدة الاسلامية الى حالها مرة أخرى .

ومهما يكن من أمر ، فان نور الدين قام بالحملة . وما أن وصلت الى مصر ، حتى علم « شيركوه » أن القائد الصليبى « أملريك » قد وصل الى مصر هو الآخر . وسار الجيشان نحو الصعيد ، حتى وصلا الى مكان يعرف « بالبابين » . وهناك قامت معركة كبيرة انتصر فيها « شيركوه » بفضل الدور العظيم الذى قام به صلاح الدين .. فقد تولى صلاح الدين قيادة قلب الجيش ، واتبع خطة التقهقر حتى يشجع جيوش الافرنج على متابعته . وما ان فعلوا ذلك ، حتى انقض عليهم « شيركوه » من الجناحين ، فاذا بصلاح الدين يرتد عليهم .. فحاقت بهم شر هزيمة .

ولم يحاول « شيركوه » أن يتبع فلولهم ، بل رجع الى الاسكندرية رأسا ، فولى « صلاح الدين » حاكما عليها .. وكانت هذه أول مرة ينصب فيها « صلاح الدين » أميرا .

ولم يلبث أن اجتمع رأى الافرنج والمصريين على محاصرة صلاح الدين ، بعد أن علموا بأن أسطولا صليبيا قد وصل الى مياهها . فقام صلاح الدين بالدفاع عن المدينة ، وأظهر فى دفاعه من المهارة مابهر العقول ، واجتذب قلوب السكان نحوه ، لما رأوا فيه من الشجاعة والاقدام والصبر فى منازلة المحاصرين . واستمر يدافع عن المدينة ، ويقاوم الاعداء ، سبعين يوما .. ولم يتزحزح الافرنج عن حصار المدينة الا بعد أن علموا بأن

شيركوه حاصر القاهرة .. وبهذا اتفق الفريقان على الصلح والانسحاب من مصر وتركها ، وعدم التدخل فى أمورها .
وهكذا انتهت ثانية غزوات نور الدين لمصر

صلاح الدين يتولى حكم مصر

• **أما** الحملة الثالثة ، فكانت بطلب من الخليفة ذاته ، اذ رغب فى الاستعانة بشيركوه فى صد هجوم الافرنج عن مصر . فلما أفلح هذا فى هزيمة الافرنج ، ولاه الخليفة أمر مصر . وبهذا صار « صلاح الدين » هو الرجل الثانى فى حكم مصر . وما لبث أن آل اليه الحكم كله ، بعد وفاة عمه فى ٢٣ مارس سنة ١١٦٩ م . اذ أن الخليفة الفاطمى وأمراؤه وقعوا ـ بمجرد وفاة شيركوه ـ فى حيرة بالغة ، بشأن من يليق بالوزارة بعد « شيركوه » ، باحثين منقبين . وزادهم حيرة أن أمراء نور الدين بمصر كانوا متنافسين على هذا المركز الكبير ، بينما كان « صلاح الدين » فى شغل شاغل عن هؤلاء وأولئك

وسرعان ماصدر قرار الخليفة الفاطمى بتقليد صلاح الدين هذا المركز العظيم . ولم تكن توليته هذه ـ رغم صغر سنه ـ الا عرفانا بمقدرته وخدماته السابقة .

وهكذا أضحى صلاح الدين وزيرا وهو لم يتعد الثانية والعشرين من عمره ، بعد أن دربته الحروب ، وأخذ من دروسها أيام مخالطته لنور الدين وعمه شيركوه . ولكنه رأى نفسه محوطا بالفتن والقلاقل ، فأحب أن يحوط نفسه بسياج من أهله وذويه ، فأرسل فى طلبهم .. **وسلك مع أبيه أسلوب الادب فأراد أن يوكل اليه الامر كله ، لكن أباه أبى ، وقال : « ما اختارك الله ـ ياولدى ـ لهذا الامر الا وأنت كفء له ، ولا ينبغى أن نغير موقع السعادة التى يهبها الله للبشر ، فحكمه على خزائن الدنيا والآخرة كلها» !** .. وقام اخوته وذووه بمساعدته

فى مركزه الصعب الحرج ، فكانوا عصبته التى ناصرته وأعزته فى حياته القادمة كلها .

ورأى صلاح الدين أنه من الحكمة أن يرضى المصريين حتى لايترك مجالا لامرائهم كى يتحالفوا معهم عليه ، فأغدق عليهم نعما كثيرة ، وعاملهم بما وهبه الله من صفات الكرم ولطف الاخلاق ، ورأى أن يتجنب غضبهم .. فقد كانوا من الشيعة، وقد قضوا قرنين من الزمان تحت حكم الخلفاء الفاطميين الشيعيين ، فى حين انه كان سنيا ، وكان تابعا لخليفة بغداد السنى . ومن ثم فانه أبقى على مذاهبهم دون ماتغيير ، فكان هذا من دواعى تقدير الناس وحبهم له والتفافهم حوله ، واكتفى بأن يردف اسم الخليفة الفاطمى باسم « نور الدين » فى المساجد .

كذلك حرص على ألا يغضب « نور الدين » بشىء ، فكان لايأتى أقل مايمكن أن يثير شكوكه من الفعال على أنه — الى ذلك — لم يأل جهدا فى سبيل جمع كلمة المصريين ، وارضاء الخليفة الفاطمى ، ليكونوا له عدة يتقى بها شرور « نورالدين »، اذا ثارت ثائرته لاى سبب من الاسباب !

غزوة فاشلة .. من ملك القدس

• **وما أن** وطد صلاح الدين سلطانه فى مصر ، حتى قام الافرنج يريدون الاستيلاء على (دمياط) ، لادراكهم مدى الخطر الذى ينجم عن امتلاك « نور الدين » لمصر وتثبيت قدميه فيها ، فأرادوا الاستيلاء على دمياط حتى تكون مركزا لهم فى البلاد ، أو — بالاحرى — قاعدة يعدون فيها الحملات على مصر كلها . وبادر ملك القدس بطلب النجدة من اليونانيين الذين كانوا يتخوفون من ان يتم لنور الدين امتلاك الشام ، فيغير على آسيا الصغرى ، ثم يتجه الى أملاكهم .. ومن ثم فقد

أرادوا ان يوجهوا نظره وجهة أخرى ، فقاموا بما طلب منهم من المساعدة ضده !

بيد أن «املريك» ملك القدس تعجل الامر ، فلم ينتظر وصول المدد اليونانى اليه ، بل أسرع بالذهاب الى دمياط . فاذا صلاح الدين قد أعد فيها كل معدات الحرب وأدوات المقاومة ، مما مكن المصريين من صد هجمات هؤلاء المغيرين ..

وما أن وصل الاسطول اليونانى الى الشواطىء المصرية ـ بعد أن قاسى من العناء ماقاسى أثناء الطريق ـ حتى وجد الفرنجة قد انكسروا شر انكسار ، فعاد بالخيبة والندامة ! ويقول المؤرخون : « ولكى تتم الاقدار ما أرادته من نصر للمسلمين ، قامت زوبعة بحرية شديدة حطمت ماقد بقى من أسطول اليونان ، فمات كل من كان عليه ، وطفت جثثهم على شواطىء البلاد التى كانوا قد جاءوا لفتحها » !

وعلى أثر هذا النصر ، استطاع صلاح الدين أن يجرد جيشا يغزو به فلسطين من جهاتها الجنوبية ، قاصدا بذلك ازالة الرعب الذى كان قد سيطر على قلوب الجند من مقاتلة الافرنج ، حتى يعدهم بعد ذلك للقتال العنيف الذى شعر ـ مذ تولى أمر مصر ـ بأنه موشك أن يخوضه ، لاسيما وأنه كان شديد الرغبة فى طرد الافرنج من بيت المقدس .

وعاد من غزواته الصغيرة ظافرا منتصرا مستوليا على مدينة العقبة ، فازداد المصريون حوله التفافا ، وعظم شانه فى أعينهم .

نحو توحيد الشرق ضد الدخلاء

• **وما أن** مات الخليفة الفاطمى ، حتى أصبح الامر كله بيد صلاح الدين ، لايشاركه فى سلطانه أحد . وتبصر فى أمر عاصمة الديار المصرية ، يريد أن يجهزها بما يحميها من العدو .. ولكنه لم يجد مايدعو الى أن يزيد فيها شيئا ، اذ كانت القاهرة ـ اذ ذاك ـ تتألف من مجموع العواصم التى اتخذها أمراء

المسلمين من يوم أن دانت لهم البـــلاد ، فهى عبـــارة عن (الفسطاط) التى أحرقها « شاور » - وأخذ أهلها يعيدون بناءها - و (العســكر) وهى التى كانت تلى الاولى ، ثم (القطائع) التى بناها أحمد بن طولون ، ثم (القاهرة) التى بناها المعز لدين الله الفاطمى . **لذلك لم يشأ « صلاح الدين » أن يضاعف من مساحة المدينة باضافة أجزاء جديدة اليها ، بل أقام سورا حول ذلك كله ، ثم أنشأ قلعة قوية تحمى مابداخل السور ، وجعل من هذه القلعة مقرا له ، وملجأ لاتباعه وقومه اذا ثار المصريون عليه يوما !**

وأرسل « صلاح الدين » أخاه « طوران شاه » بجيش الى بلاد اليمن ففتحها . وتصادف فى ذلك الوقت أن مات كل من « نور الدين » وملك القدس ، فى زمن متقارب ، فأصبح صلاح الدين - فجأة - سيد الشرق ، والقـــائد الوحيد لجميع المسلمين فيه ، لايناضله فى ميدان أعماله القادمة مناضل كفء فى الشرق .. ولما كان يعتقد أن واجبه هو محاربة الافرنج وطعنهم طعنة نجلاء تجليهم عن أرض المسلمين ، فقد عمل على توحيد القـــوى الاسلامية المختلفة بكل ما أوتى من قـــوة وحزم .

« صلاح الدين » فى الشام

• **ورأى** صلاح الدين الفرصة سانحة أمامه ، فسار الى بلاد (الشام) - بحجة نصرة ابن نور الدين ومساعدته على المحافظة على ملكه - فدخل (دمشق) ، واقام بهـــا بعض الوقت ريثما يرتب شؤونها ، ثم أسلمها الى أخيه « سيف الاسلام » ، ومنها انحدر الى مدينة (حمص) فدخلها ، وترك حامية فى محاصرة قلعتها ، ومنها سار الى (حماة) فدخلها ، اذ أسلمها حاكمها اليه ، واثقا من أنه انما جاء للحفاظ على أملاك نور الدين . وتحصن أهل (حلب) فى مدينتهم ، وأبوا

أن يسلموها الى صلاح الدين ، فبقى فى حصارها زمنا !

وأثارت انتصارات « صلاح الدين » أمراء الشام ، فاجتمع بعضهم على أن ينازلوه .. وكان ان انتصر عليهم انتصارا ساحقا — بالقرب من (حماه) — فشتت شملهم ، حتى أصبح الواحد منهم وكل أمله أن ينجو بنفسه .. ولا شيء غير ذلك !. **وحالفه الانتصار فى عدة مواقع متوالية . وما كاد يحل شهر مايو سنة ١١٧٥ ، حتى وصله قرار الخليفة العباسى بتوليته أمر مصر والشام معا !**

وما أن عاد صلاح الدين الايوبى الى مصر ، حتى انتهز الافرنج الفرصة ، فقاموا بعدة اغارات على أطراف مملكته فى الشام ، وقاتلهم أخوه « طوران شاه » ، لكنهم هزموه وظهروا عليه . وما أن علم صلاح الدين بالامر ، حتى عاد فتولى تأديبهم بنفسه ، اذ هاجم الاطراف الجنوبية من فلسطين ، ثم قام فى وجهه جيش ملك القدس ، فعاد صلاح الدين الى مصر ، وفى نيته تجريد حملة ضخمة على الافرنج لابادتهم . وعاد اليهم بعد أشهر ثلاثة ، فكانت له معهم معارك كثيرة ، أظهر فيها قوة فذة

وعلم المسلمون بانتصارات صلاح الدين ، وعرفوا قدرته ، وقدروا سطوته ، فعقدوا معه محالفة كبرى ، جمعتهم كلهم فى وحدة بطلها الاول صلاح الدين . ومن هذه المحالفة ندرك مقدار ماوصل اليه « صلاح الدين » من مركز كبير ، وقوة فائقة .. **فانتشر اسمه فيما بين البحر الاسود وخليج الفرس شرقا ، والبحر الابيض المتوسط غربا . كما أن هذه المحالفة دلت دلالة واضحة على امكان جمع شتات هذه الامارات المفككة فى وحدة تعمل متماسكة على طرد الفرنجة من الشرق !**

وما لبث السلطان صلاح الدين أن أخمد جميع الثورات التى كانت قائمة فى شمال سوريا وجهات الجزيرة ، واتخذ من منافسيه فيها أعوانا له وأصدقاء ، فاستطاع بذلك أن يقوم

بما أعد نفسه له منذ تولى حكم مصر .. أى محاربة الافرنج وضربهم الضربة القاضية للقضاء على حملاتهم الصليبية نهائيا .

صلاح الدين يحرر فلسطين

• **وبعد** مناوشات بين العرب والفرنجة ، استولى صلاح الدين على (طبرية) . واذ ذاك ، بدأ الصراع يحتدم . وكانت نية الافرنج تتجه الى قطع خط الرجعة على صلاح الدين وجيشه ، ليحولوا بينه وبين مراكز تموين قواته ، اذ كان ميدان القتال يقع فى أرض جدباء ، لايفى ماتنبته بمطالب هذه القوات . بيد أن الصواب أخطأهم ، اذ أنهم لم يفطنوا الى ان السلطان صلاح الدين كان يحتاط — فى حروبه — أشد الاحتياط ، فلم يكن ليغفل مواطن الخطر الذى يجوز أن يحدق بجيشه ، كما أنه لم يكن ليهمل أمر موارد المياه فى بلاد كبلاد الشام المحدودة الينابيع .. **وكان من نتائج حرصه هذا ، أن تمكن هو من أن يقطع عليهم طريق المياه ، فيوقعهم فيما أرادوا أن يوقعوه فيه . مما اضطرهم الى العودة من حيث جاءوا ، حتى يدبروا لانفسهم خطة جديدة !**

ولكن صلاح الدين شن عليهم هجومه الفاصل .. فكان يوم ٤ يوليه سنة ١١٨٧ شؤما على الافرنج فى الشام ، اذ قدر فيه لملكهم واخيه ونفر من القادة والامراء ، ان يقعوا فى أسر المسلمين . وما أسرع ماسرت جيوش صلاح الدين فى فلسطين ، فاستولت على البلدان دون ماقتال ، اذ ان ماتبادر الى أهلها من أمر نصره فى واقعة (حطين) كان كافيا لان يسلموه انفسهم دون ما مقاومة . فلم يأت يوم ١٠ يولية سنة ١١٨٧ ، حتى استولى على (عكا) .. ثم استولى على (صيدا) و (بيروت) .. واتبع كل هذه بمدينة (عسقلان) بعد حصار استمر أربعة عشر يوما ، ثم استولى على (غزة) و (الخليل) و (بيت

لحم) وباقى المدن .. فلم يبق امامه الا أن يتوجه الى القدس نفسها !

ولقد حاول صلاح الدين الاستيلاء على (القدس) دون ماقتال ، انقاذا للمدينة المقدسة من الدمار . ولكن حاميتها رفضت شروط التسليم ، فصمم على أن يأخذ المدينة بالحرب .. ولم يكن بها فى ذلك الوقت الا « بليان » حاكم (الرملة) .. وكان قد وقع فى أسر «صلاح الدين» فى واقعة (حطين) ثم استأذنه فى الرحيل الى (القدس) ، ليأخذ زوجته وأولاده ، وأقسم على أن لايمكث بها أكثر من ليلة واحدة . ولكنه لم يكد يصل اليها حتى التف حوله الناس ، ليكون القائد الوحيد لهم . فنسى عهده للسلطان ، وأخذ يعمل على تحصين المدينة. على أن « صلاح الدين » فطن الى قوة مواقعه فانصرف الى الجهة الشمالية للمدينة ، وكانت أضعف الجهات تحصينا . وظن الناس أنه انصرف عن المدينة نهائيا ، فاذا بهم يحتفلون بذلك .

وماهى الا لحظات ، حتى رأوا صلاح الدين يبدأ هجومه ، فاستماتوا فى الدفاع . ولكنهم لم يلبثوا أن يئسوا ، فأرسلوا يطلبون الصلح . **وانتهى الامر بان سمح صلاح الدين لمن شاء منهم ان يغادر المدينة فى مدى اربعين يوما ، على ان يدفع الرجل منهم عشرة دنانير ، والمرأة خمسة ، والولد اثنين !.. وكانت هذه الفدية مفروضة على رجال الجيش وأتباعهم وأسراتهم فقط !**

ولقد كان « صلاح الدين » جد رحيم بسكان المدينة ، حتى ان عددا كبيرا من النساء سعين اليه ، فقلن له : « أيها السلطان !.. أترانا الآن راحلات عن هذه الديار ، ونحن بين زوج أو أم أو ابنة لاولئك الجند الذين لايزالون فى أسرك ؟! .. ان هؤلاء الجند الذين نتركهم هم عدتنا فى حياتنا ،وسلاحنا فى أيامنا ، فاذا ما فقدناهم فقدنا الحياة ، اما اذا وهبتنا اياهم فقد وهبتنا النعيم ، وخففت بذلك آلامنا ، وأزحت بؤسنا ،

وأبعدت عنا شقاءنا ! » . . وإذا بالسلطان يتأثر الى درجة أنه لم يتمالك أن بكى ، وأمر بتسليم الابناء الى أمهاتهم ، والازواج الى زوجاتهم ، والآباء الى بناتهم ، وأقسم ليعاملن من بقى فى الاسر بكل احسان ورحمة !

واذ استولى صلاح الدين على باقى البلاد التى كانت فى يد الافرنج — فيما عدا (صور) وذلك لقوة استحكاماتها — فقد انصرف الى تقوية سلطانه ، وتعزيز بلاده المترامية الاطراف

صلاح الدين و « ريتشارد » قلب الاسد

• **وما ان** ترامت أنباء هذه الفتوحات — لاسيما فتح القدس — الى أوربا ، حتى اشتدت حملة الدعاية التى تولاها القساوسة والرهبان . وكان من أثر هذا أن استؤنفت الحرب ، فأقدم امبراطور الالمان على السير الى الاراضى المقدسة ، كما قام ملك الانجليز « ريتشارد » — الملقب بقلب الاسد — بدور كبير فيها . دور خلد له فى التاريخ ، ويمكن أن يشبه بدور « صلاح الدين » فى هذه الحروب

وتدفق سيل القادمين من أوربا ، مما عزز قوات الملك « جوى » و « كونراد » فى حصارهما لعكا ، حتى لقد امتد هذا الحصار ستين يوما . . ولقد استصغر « صلاح الدين » أمر « جوى » والملتفين حوله ، فكان من نتائج استهتاره بهم ان تمكنوا من تقوية مركزهم ، حتى اصبحوا فى موقف يصعب على السلطان منازلتهم فيه .

وفيما كانت المناوشات مستمرة ، وصل الى ميدان المعركة « الكونت هنرى » ، ومعه من المال والرجال ما زاد فى قوة الفرنجة . وتبعه — فى ١٩ ابريل سنة ١١٩١ — « فيليب أوجست » ملك فرنسا ، فى عدد ليس بالقليل من الجند . ثم



لحق بالجميع « ريتشارد قلب الاسد » – ملك انجلترا – مصطحبا اسطولا ترك جزءا منه فى الطريق ، للاستيلاء على (قبرص) ، بينما سار بالجزء الآخر قاصدا (عكا) . ولكن اساطيل المسلمين التقت به فى البحر فأوقعت به خسائر فادحة .. بيد انه استطاع – رغم ذلك – ان يصل الى (عكا)

وبعد قتال جبار ، دخل الافرنج (عكا) – فى ١٢ يوليه سنة ١١٩١ – اذ كانت همة من بها من المدافعين قد وهنت لطول الحصار .

ووقفت جيوش أوربا كلها ضد جيش ((صلاح الدين)) ، ولكنها لم تستطع ان تغلبه على امره ، بل ظل القتال محتدما لمدة سنتين كاملتين . ولم يلبث الخلاف أن دب بين فيليب وريتشارد ، اذ طمع كل منهما فى ان ينفرد بالرياسة على قوات الفرنجة . مما ادى الى أن يغادر فيليب البلاد فى ٣١ يوليه ١١٩١ .

ولقد كان الواجب يقتضى « ريتشارد » ان يزيل هذا الخلاف بينه وبين « فيليب » ، لينصرفا الى توحيد قواتهما لمنازلة عدوهما العنيد الجبار . ولكنه لم يفكر – اذ ذاك – الا فى أن يقود وحده جيشا جرارا ينازل به العدو . وكان من رأيه ان أعظم خدمة يؤديها للصليب ، هى استرداد بيت المقدس فحسب . على انه رغم هذا الاعتقاد ، لم يثبت على عزمه هذا ، لبعد الشقة بينه وبين المقدس . فضلا عن انه تباطأ فى فى حركاته وأعماله ، حتى انتهى به الامر الى الرحيل الى أوربا



نهائيا . فكانت عودته هذه آخر الضربات المهلكة التى قضت على الامل الباقى فى استرداد الغربيين للقدس .

ولقد كاد المسلمون ان يأسروا « قلب الاسد » فى احدى غاراتهم، لولا أن واحدا من أتباعه أسرع فقال باللغة العربية انه هو نفسه الملك دون سواه . وبذلك وقع التابع فى الاسر ، ونجا « ريتشارد » بهذه الحيلة الفدائية !

وانتهى الأمر بأن طلب « ريتشارد » الى « الملك العادل » أن يكون وسيطا فى الصلح بينه وبين السلطان صلاح الدين . ووقع الفريقان شروط معاهدة الصلح المعروفة باسم (صلح الرملة) فى ٨ سبتمبر سنة ١١٩٢ ، وقد وقع عليها « ريتشارد » بيد مرتجفة لقسوة الحمى التى أصابته . ثم غادر البلاد يوم ١٠ اكتوبر !

قلب أقوى من قلب الأسد !

• **وهكذا** انتهت حروب « صلاح الدين » مع الفرنجة الى انتصاره ، واتساع ملكه ، واشتداد قوته . وظل صلاح الدين يسوس ملكه فى حكمة وهدوء وصلاح ، حتى اذا كانت ليلة ٢٠ فبراير سنة ١١٩٣ ، انتابته حمى شديدة لم تمهله الا أياما معدودات ، فمات يوم الاربعاء ٤ مارس ١١٩٣ ، وهو فى السابعة والخمسين من عمره . وبكاه الناس بكاء مرا ، ولزموا

دورهم اظهارا لحزنهم وحدادهم ، فكنت ترى الاسواق خاوية على عروشها ، والطرق تنادى المارة فلا تجدهم ، وقد .. دفن صلاح الدين بعد أن كفن بأبسط انواع الكفن !

وهكذا مات البطل العربى الذى دوخ الغرب ، والذى واجه جيوش الانجليز الجرارة قائلا : ((قفوا مكانكم ، فهاكم قلب أسد أقوى من قلب أسدكم)) !

—◆—


L'INSTINCT
DU BONHEUR
PAR
ANDRÉ MAUROIS
غريزة السّعادة!
قصة طويلة للكاتب الفرنسى الكبير:
«اندريه موروا»

ناحية جديدة من عبقرية ((موروا))

• ليس ((أندريه موروا)) بالكاتب الجديد على قراء ((كتابى)) ، فقد سبق أن قدمنا فى الاعداد من ٧ الى ١٥ ، فصول كتابه الرائع ((فن الحياة)) ، الذى تضمن أروع الدراسات والتحليلات والقواعد التى تمكن المرء من أن ينجح فى مختلف نواحى الحياة ... كما قدمنا فى الاعداد من ٣٤ الى ٤٠ فصول كتابه العظيم ((أقنعة الحب السبعة)) ، الذى يعتبر من أدق الدراسات فى الحب .. ثم قدمنا فى العدد ٥٤ كتابه ((دزرائيلى)) .. وبهذه الكتب الشامخة ، استطعنا أن نطلع القارىء على ثلاث من ألوان عبقرية ((أندريه موروا)) ، هى : عبقريته ككاتب اجتماعى يعرف كيف يحلل أدق المشكلات الاجتماعية ويحلها .. وعبقريته كباحث نفسى يغوص الى أغور أعماق النفس البشرية .. وعبقريته كمؤرخ ينهج فى تسجيل سير عظماء التاريخ ، نهجا لم يسبقه اليه كاتب أو مؤرخ ، فهو يمزج الاحداث بتحليل الانفعالات والافكار لدى كل شخصية يؤرخ لها ..

واليوم ، نطلعك على لون جديد من عبقريته ، هى : عبقرية الروائى الذى يتوسل بالقصة والحوار ، الى عرض أدق المشكلات التى تصادف البشر فى حياتهم الاجتماعية والعاطفية ، فيبسطها ، ويكشف عن عقدها ، ثم يحل هذه العقد ببراعة نادرة !.. وهو — فى القصة التى نقدمها لك فيما يلى — يرى أن السعادة غريزة فى وسع المرء أن يكيفها ليهنأ أو ليشقى .. فهو اذا تقبل الحياة على علاتها ، ما دامت تتمشى مع أمانيه ورغباته العاطفية ، ظفر بالسعادة .. أما اذا فضفض بآلامه ، فلن ينجى سوى الشقاء ، لان الشطر الاكبر من آلامنا النفسية ، يتولد عن الكلمات التى نصف بها هذه الآلام .. اذ أن الكلمات تكسب اللوعات كيانا — ليس لها أصلا — فتطيل من بقائها ، بدلا من أن تتركها لتتلاشى .. فان الفطرة الحيوانية تنحو الى النسيان ، فى حين أن الافصاح يجدد الآلام !

• في حجرة واسعة ، استلقى رجل ـ في حوالى الخمسين من عمره ـ على أحد سريرين كانا يشغلانها ، بينمـا انحنت عليه امرأة لطيفة الطلعة ، متألقة المحيا ـ رغم شيبها ـ وهى تسأله فى حنان : « أتحب أن أدعو الدكتور تورى ؟ »

ـ ولماذا يا فالنتين ؟ أؤكد لك أن الألم قد انقضى ..

ـ اذن فعدنى بأن تستريح فى الفراش طيلة النهار !

ـ ياللخسارة ! .. ان الجو جميل !

وخلال النافذة بدت المراعى التى تنحدر حتى النهر .. وعلى الجـانب الآخر من الوادى ، لاحت الاراضى المزروعـة ، وهى تمتد صاعدة الى تفتيش (برويـاك) ، الذى كانت أراضيه تؤجر للمزارعين .. والى اليسار ، كانت ثمة مساحة مائية ، فى حين قامت ـ الى اليمين ـ تلال مكسوة بالغابات ، تترامى نحو (بيريجو) .. وتنسم «جاستون روميللى» هواء الصباح فى نهم ، ثم تحول الى زوجته ، التى راحت تسوى فراشها ، وقال : « لم يبق بى سوى ألم فى مؤخر العنق ، و فى المنكبين » .

فهمت بأن تعزو السبب الى اسرافـه فى المشى فى العراء ـ فى الليلة الماضيـة ـ مع « كوليت » .. بيد أنهـا كبحت جماح اسانها ، وهى تسائل نفسها : أتغار من ابنتها ؟ ! .. وهزت رأسها ، وكأنها تطرد هذا الخاطر !

وارتاح « روميللى » الى هدوء زوجته ، فقد كانت أصـلا من هـذا الاقليم ، وكان لهـا حكمة الفلاحات وسـكينة نفوسهن .. وما لبث أن تساءل عن « كوليت » ، فلما ذكرت أمها انها لم تعد بعـد من رحـلة الصيد التى انطلقت فيهـا منذ الساعة الرابعة صباحا ، قال : « أكان سافينياك الصغير هو الذى رافقها ؟ .. ألا ترين أن من الخطر ترك « كوليت » ترحل وحيدة مع شاب صغير ؟ »

ـ وما العمل ؟ انها تعرف ((اندريه)) منذ سبع سنوات ، كما ان جميع فتيات اليوم ينعمن بما تنعم به هي من حرية .. ما الذى تخشى حدوثه ؟ .. وهل ترى ان تشديد الرقابة يحول دون أى شيء يمكن ان يحدث ؟ .. من الخير ان تتعرض الفتاة لبضع قبلات ـ قبل الزواج ـ تكون مبعث ذكريات لها فيما بعد !

ـ وما الذى يجعلك تسلمين بسهولة بأن شباب اليوم يقف عند حد القبلات البريئة ؟

ـ ان اندريه دى سافينياك ليس من هذا النوع ..

ـ بل هو من الجيل ذاته .. ثم انه من اولئك الذين لاتستطيع «كوليت» أن تتزوج منهم ، اذا استدعى الأمر ..

ولكن .. انك تخطىء فى تخوفك من ابناء سافينياك ! .. لسوف تراهم اليوم ، فى حفلة الشاى التى تقام لدى ((لاجيشاردى)) !

ولكنه لم يكن راغبا فى حضور هذه الحفلة، فسألها أن تعتذر عن تخلفه بمرضه .. وجلست «فالنتين» على حافة السرير فى رشاقة ودلال ، فتناول زوجها يدها ، وراح يرمقها فى سرور . فلقد كانا يحبان ان يخلو كل منهما الى الآخر ، فيروحان يتحدثان فى أمور لاحصر لها ، كانا يجدان فيها متعة برغم تكررها . وكانت شخصية ابنتهما من الموضوعات التى لا يملان الخوض فيها .. كما كانت القطيعة بينهما وبين آل ((روميللى)) فى (بون دى لور) موضوعا آخر ، اذ بدا ان لا سبيل الى علاجها ، حتى بعد موت ((ديودا روميللى)) ، والد ((جاستون)) !

* * *

• **يعتبر** اقليم (بيريجور) من أجمل الأقاليم الفرنسية ، لا سيما وانه يمتاز بمجتمع يختلف عن مجتمعات الأقاليم

المحيطة به . فقد كان يوما معقلا لطائفة من علية القوم ، فتناثرت فى أرجائه قصور أنيقة ، تشرف على نهر (اللوار) ، ولا تزال السلالات العريقة تعمر معظمها ، وان كان بعضها قد آل - أيام الثورة - الى بعض موثقى العقود ، وثراة الفلاحين . . **كما أن منها ما آل - بعد الثورة بأجيال - الى أفراد نزحوا الى الريف ، وابتاعوا فيه الضياع - كما فعل « جاستون روميللى » وزوجته - وما لبثوا أن اختلطوا بأسرات الريف العريقة ، واكتسبوا طباعها وعاداتها .**

وكانت تتبع كل قصر ضيعة ندر أن كان سيد القصر يستغلها بأسرها . ومن ثم فقد كانت اراضى كل ضيعة تنقسم الى شطرين : أحدهما يزرعه المالك لحسابه مباشرة ، والآخر يؤجره لمزارعين يزودهم بكل مستلزمات الزراعة ، ويوفر لهم المساكن ، ثم يقتسم المحصول معهم مناصفة . وقد اتبع « جاستون روميللى » هذا التقليد منذ اشترى ضيعة (بريساك) فى سنة ١٩١٩ ، عقب عودته من الحرب . واستطاع أن يكتسب حب فلاحى (بيريجور) بما بذله من أجل مستأجرى أراضيه ، كما استطاع وزوجته وابنته أن يكتسبوا مكانة فى مجتمع علية القوم ، بفضل السيدة « لاجيشاردى » ، التى كانت تتزعم هذا المجتمع . . فقد كانت ارملة عريقة المحتد ، واسعة الثراء ، **وكان مجرد رضائها عن اى شخص أو شيء ضمانا لرضاء اهل الاقليم عن هذا الشخص أو الشيء . ولقد كان من حظ « روميللى » أن حمل توصية اليها من صديق لها - عندما اراد شراء ضيعة (بريساك) - وان حرص على استشارتها واتباع ما كانت تشير عليه به ، فقربته اليها ، واذا بكل بيوت علية القوم فى (بيريجور) تفتح ابوابها له ولزوجته وابنته !**

ولقد أولت مدام « لاجيشاردى » الفتاة رعاية خاصة منذ عامين . اذ كانت قد زارت ضيعة (بريساك) على غير موعد ، فاضطربت فالنتين عندما تبينت أن ليس لديها من

الحلوى والفطائر ما يليق باكرام السيدة .. ولكن « كوليت » غابت حوالى ثلاثة ارباع الساعة ، ثم عادت تحمل صحفة محملة بأشهى الفطائر (الجاتو) التى أعدتها بيديها فى تلك الفترة الوجيزة . ومنذ ذلك اليوم ، لم يعد احد يذكر اسم «كوليت» أمام مدام «لاجيشاردى» ، حتى تبادر هذه قائلة : « ابنة روميللى ؟ .. انها لفتاة رائعة ، تصوروا اننى زرت ضيعة بريساك يوما ... » . وتروى القصة . ولو كانت قد روتها لنفس الشخص مائة مرة من قبل .. وغدت «كوليت» أثيرة لدى السيدة التى بلغت — فى سنة ١٩٢٨ — الستين من عمرها ، ولم تعد تشاهد الا وفى يدها عصا ذات مقبض ذهبى ، فاذا جلست وضعتها على ركبتيها فى جلال .

ولقد راحت عصا السيدة « لاجيشاردى » هذه تدق أرض قاعات قصرها ، وهى تروح وتغدو — فى عصر ذلك اليوم — بين الضيوف الذين اجتمعوا لتناول الشاى لديها .. **وكانت أسرة « سافينياك » اول الحضور ، ولكن ابناءها الثلاثة لم يبدوا مرحا حقيقيا ، الا بعد ان وصلت السيدة «روميللى» وابنتها ، فخفت اليهما السيدة العجوز بترحاب بالغ ، واغدقت على « كوليت » — بالذات — حنانا صافيا ، ثم تحولت تسأل عن « جاستون » وتبدى أسفها لمرضه .. وفى تلك الاثناء ، كان الشبان والشابات قد تجمعوا ، ثم اتجهوا الى ساحة «التنس» .. وكانت السيدة « لاجيشاردى» تقف فى النافذة ، حين رأت « اندريه دى سافينياك » يجرى مع «كوليت» نحو الملعب ، وقد أحاط خصرها بذراعه ، فهتفت وهى تنظر الى ضيفاتها : « يالهما من زميلين بديعين ! »**

وابتسمت السيدات ، فقد كان القوم يدركون أن السيدة لاجيشاردى ، لا تلقى الكلام على عواهنه .. وأطرقت السيدة دى سافينياك ، وتهدجت أنفاسها .. وتضرج وجه «فالنتين» .. وما لبثت السيدة لاجيشاردى ان استدرجت الأولى

الى حديقة القصر .. وتحت أشجار البلوط ، فى معزل عن الباقين ، قالت لها : « هل قدر لصديقتى الصغيرة كوليت روميللى ان تحظى بقسط من انتباهك يا عزيزتى آن ؟ »

فقالت آن دى سافينياك بصوتها الذى كان يشبه هديل الحمام : «أجل ، انها فاتنة .. فيها براءة العذارى .. لقد اصطحبناها فى رحلة الصيد ، فى هذا الصباح ! »

ــ انها فتاة نادرة المثال ، توفرت لها كل الصفات .. فهى جميلة ، متعلمة ، وربة بيت حاذقة .. لقد هبطت ذات يوم على ضيعة (بريساك) ، على غير موعد ، فارتبكت فالنتين . واذا كوليت تغيب ثلاثة ارباع الساعة ..

وانطلقت تروى القصة المعهودة ..

وفى تلك الاثناء ، كانت ايزابيل شميت تقول لفالنتين : «لقد اصبحت ابنتك ذات جمال خلاب ، وانى لاراها خير مثال لما يجب أن تكون عليه بنات الجيل الناشىء ، فهى ليست من الخجل بدرجة الجبن ، وليست من الجرأة بدرجة القحة .. وهى كاملة الجمال من الناحيتين الخلقية والبدنية .. ترى أين علمتها ؟ »

ــ فى البيت .. فنحن لا نقوى على فراقها ، ومن ثم فقد استجلبنا لها معلمة لقنتها اللغة والتاريخ ، بينما تولى زوجى تلقينها العلوم ..

وعادت ربة الدار والسيدة دى سافينياك الى القاعة فى تلك اللحظة .. ولكنها ما لبثت ، بعد قليل ، ان استدرجت فالنتين ــ بدورها ــ الى الحديقة ، حتى اذا أصبحتا بمأمن من الاسماع ، قالت لها : « ان لدى امرا هاما أحب أن أفضى اليك به يا صغيرتى فالنتين . . انك لتعرفين مدى اهتمامى بكم ، كما أدرك اهتمامكم بى .. لا تقاطعينى ! الواقع اننى أشعر بأن بوسعى اليوم أن أجازيكم عن لطفكم ، بان أعمل لسعادة كوليت ! »

ــ كوليت ؟ .. ولكن كوليت فى الثامنة عشرة ..

— بل هي امرأة مكتملة الأنوثة .. وقد ترينني أتعجل ، ولكن من الخطأ ان لاتقريني على التعجل اذا كانت ثمة فرصة سانحة .. ان « اندريه دي سـافينياك » مدله في هوى ابنتك !

فتجلى القلق على فالنتين ، وقالت : « اندريه ؟ .. انه لم يتجاوز الثانية والعشرين .. أو الثالثة والعشرين .. » . فقاطعتها السيدة قائلة : « لقد توسطت فى ثلاث وخمسين زيجة فى (بيريجور) يا صغيرتى .. ثلاث وخمسين، لم يتخللها سوى طلاقين وانفصال واحد .. الا ترين فى هذا ضمانا كافيا؟ .. »

— ولكن آل سافينياك خليقون بأن يتطلعوا الى زوجة نبيلة المحتد لابنهم

— لطالما تكلمت فى هذا مع «كسافير» ياعزيزتى ، وهو اذكى وارقى من أن يعلق أهمية على « المحتد » ، لا سيما وان أولاده ذكور ، ولن تلصق بهم أسماء زوجاتهم . فالابن يخلع اسمه على زوجته ولذلك فلا داعى لان يحفل باسمها . ولكن آن هى الخليقة بان تولى هذا الأمر أهمية .. ولكنها عاطفية ، وانى لاعرف كيف أعالجها من هذه الناحية .. ومن الطبيعى أن «كسافير» يفكر لابنه الاكبر فى زيجة طيبة ، وكوليت — من هذه الناحية — غنية .. ما الذى تعذانه لها ؟

— أظن ان « جاستون » يعتزم أن يهبها الضيعة والقصر .. أو قيمتهما ، اذا كان للشاب الذى ستتزوجه ضيعة !

— اذا قبلتما أندريه فان أبويه سيمنحانه ضيعة (بروبى)، وسيلحقانه بالمعهد الزراعى ليعداه لكى يدير المزرعة بنفسه ، بعد فراغه من الخدمة العسكرية ، وسينزلان له عن دخلها ..

وراحت السيدة لاجيشاردى تحطم كل صخرة من صخور التردد ، لدى « فالنتين » ، فقد كانت أسرة « سافينياك » من الاسرات التى تعيش منذ خمسة اجيال على الدخل الذى تدره عليها أراضيها وعقاراتها .

على أن شيئا ظل فى نفس « فلنتين » .. شيئا كان يجعلها تخشى عقبات ما ، فلم تزد ــ فى النهاية ــ على أن وعدت بأن تتحدث الى زوجها فى الامر . ولكن السيدة لاجيشاردى لم تقنع بهذا الوعد المتخاذل،بل ذكرت لها انها ستزور «جاستون» بنفسها ، في اليوم التالي .

***

. وعندما خلت « فالنتين » الى زوجها ــ فى ذلك المساء ــ أفضت اليه بحديث السيدة لاجيشاردى ، وهى بادية الحيرة، فهتف : « يا للعجب ! آل سافينياك .. هذا ما كنا نخشاه بالذات ، فهى أسرة صعبة المراس ، متعجرفة .. ان كوليت جديرة بأن تسعد ! »

ــ اننى لم أقل لك أشد مافى الامر .. ان الشاب يحب كوليت ، وهى تحبه ! .. انها لم تقل لى ، ولكنى لا أشك فى أنهما بحثا الامر فيما بينهما ، فان أعجب مافى هذا الجيل ، هو أنه مرهف العواطف ، وكلمة « أحبك » كافية لكى تدير راس أية فتاة ! .. وانى لأوقن من ان كوليت تحب اندريه

وظل الزوجان مخلدين الى صمت مثقل بالافكار . ومالبثت فالنتين أن سألت زوجها : « فيم تفكر ؟ » .. وتردد برهة ، فقد كان يستعرض صور مهد صباه .. **وادى نهر (لور) ،** فقد اشتهر وادى (لور) بغزل ونسج الصوف ، وقد احتلت اسرة « روميللى » فى هذه الصناعة مكانا مرموقا منذ مطلع هذا القرن . اذ كان مصنعها أعرق مصانع الاقليم ، وكان قدم عهدها بالصناعة ، وعلو مكانتها المالية والاجتماعيـة ، ومركز عميدها « ديودا روميللى » ، تفرض على أفراد الأسرة لونا خاصا من الحياة ، جعلهم ينظرون فى استنكار الى ما أبداه « جاستون » ــ منذ صباه ــ من انسياق لعواطفه .. وما أقدم عليه من مغامرات غرامية مع نسوة ، ما كان أهل وادي

(لور) يعتبرونهن من الآدميات !

على أن الاستنكار انقلب الى هم مقيم ، عندما هام «جاستون» – فى سنة ١٩٠٣ – براقصة فى «سيرك» ، وراح يتعقبها اينما ذهبت ، وكاد يتزوجها ، لولا أن أرسلته الاسرة الى انجلترا ، ليقضى عامين فيها ، عسى أن يبرأ من هواه .. ولكنه كلف هناك بفتاة انجليزية ، أوشك ان يتزوج منها ، مما جعل أباه يتساءل فى دهشة : « يتزوج ؟! .. مابال هذا الولد مجنونا بالزواج؟» .. ورده – مرة أخرى – الى واديه ، ليقطع عليه هذه المغامرة

وفى سنة ١٩٠٧ ، أقعدت الشيخوخة « ديودا روميللى » عن الرحيل الى باريس ، مرة فى كل اسبوع – ليتصل بعملائه ويتعرف رغباتهم ، ويعقد الصفقات لتصريف انتاج مصنعه – فحل « جاستون » مخله ، واستطاع ان يوفق توفيقا عظيما . ولكن هذه الرحلات الاسبوعية الى (باريس) ، وفرت له فرصا جديدة للغواية . فاتخذ له خليلة .. ممثلة صغيرة ، عاشرها زهاء سنتين ، ثم ابدت له ما جعله يرى فى البعد عنها غنيمة !

* * *

• وفى ذات يوم كان يستعرض عينات انتاج المصنع ، مع أسرة « ديلاندر » ، التى كانت أكبر عملائهم ، فاذا « جورج ديلاندر » يقول لأبيه : « اننا لا نكاد نجدد اطلاقا ! .. لقد خطرت ببالى فكرة .. سأصحب « روميللى » الى دار « فالنتين » ، فان لديها دائما أصوب الآراء ! »

وكانت « فالنتين جونتران » – اذ ذاك – شابة فى الرابعة والعشرين ، تدير مؤسسة للازياء فى شارع (جودو – دى – موروى) ، بالقرب من ميدان (لاماديلين) . ولم يكن فى (باريس) ماهو أغرب من قيام دور الازياء هذه ، ومن نمو واتساع مايقدر له النجاح منها ..

ولقد بدأت « فالنتين » من اول السلم فى هذا الميدان ، اذ

نزحت من (سارلا) الى (باريس) وهى فى الرابعة عشرة من عمرها . وكانت قد نشأت فى اسرة ريفية متحضرة ، تنتشر فروعها فى أقاليم (بيريجور) و (ليموزان) و (جاسكونى) . وحرصت امها ـ التى كانت أرملة استاذ فى احد المعاهد العليا ـ على ان توفر لها من التعليم أقصى ما استطاعت ، ولكنها ماتت دون أن تترك لها شيئا ، فاذا بقريب لهذه الأم ـ كان مديرا لاحدى دور الازياء فى باريس ـ يدعو الصبية الى العاصمة ، ويلحقها بالدار التى كان يعمل بها .. وسرعان ما أثبتت براعة فى ابتكار الازياء ، وكشفت عن نبوغ طبيعى ، يرافقه شغف بالعمل .. **غير أن سوء معاملة خالها ـ كما كانت تدعو ذلك القريب ـ وغيرة صاحبة الدار من ظفرها باعجاب عميلاتها ، دفعا ((فالنتين)) ـ عندما بلغت العشرين من عمرها ـ الى ان تقدم على الاستقلال بالعمل ، فى سنة ١٩٠٦ . فلم تنقض ثلاث سنوات ، حتى كانت لها مؤسسة مؤلفة من ست قاعات ـ تعمل فى كل منها خمس وثلاثون عاملة ـ فراحت تديرها فى حكمة ، وحذق ، وتفان !**

ولم يكد « جاستون » يرى « فالنتين » ـ أول مرة ـ حتى أحبها فى صمت وتكتم .. ولم يكن جمال الشابة باهرا ، يلعب برؤوس الرجال ، ولكنه كان جمالا ترتاح اليه العيون ، وتسكن اليه النفوس .. ولقد وجد فيها «جاستون» نقيض من اعتاد قلبه أن يهفو اليهن من نساء ، فأخذ يتردد عليها فى كل اسبوع ، وان يعرض عليها عينات انتاج مصنع الاسرة ، وان يتعرف رأيها فى كل تصميم جديد لنقوش أو ألوان الاقمشة .. ولكى يعبر لها عن تقديره ، اعتاد أن يدعوها الى الخروج معه فى المساء ، خلال الايام القلائل التى كان يقضيها فى باريس ، فى كل أسبوع . **واستطاع أن يلمس ابتهاجها بهذه الفرص ، اذ بدا له أنها كانت قليلة الاصدقاء .. حتى اذا كان صيف سنة ١٩٠٩ ، قام معها برحلة الى (فينيسيا) .. فلما كانت سنة ١٩١٠ ، وضعت**

« فالنتين » طفلة !

والانباء تسرى بسرعة ـ فى العادة ـ فسرعان ما علم « ديودا روميللى » بوجود « كوليت » ، وهى بعد قطعـــة من اللحم الاحمر ! .. ولم ينقض شهر على مولدها ، حتى كان ذكرها على كل لسان فى بلدة (بون دى لور) . **والطباع الاجتماعيـة قد تكون أقوى من الغرائز الطبيعية .. ومن ثم فان السيدة روميللى ـ التى كانت رؤوما لاحفادها الشرعيين ـ أبت أن تعترف بابنة ابنها الاكبر ، التى انجبهـا دون زواج .** وظل «جاستون» أربع سنوات لا يجرؤ على أن يذكر لابويه شيئا عن حياته فى (باريس) .. وكان يزور فالنتين ثلاثة أيام من كل أسبوع ، ويكاد يعبد ابنته ، ولكنه كان يعرف (بون دى لور) معرفة جعلته يدرك استحالة التفكير فى توحيد شطرى حياته !

* * *

• **وجاء** اعلان الحرب صدمة قاسية له ، فقد كان ضابطا فى احتياطى المشاة ، ومن ثم فانه اضطر الى الرحيل فى الايام الاولى للحرب .. وحاول أن يستغل الانفعالات العاطفية التى اعترت أمه ـ فى هذه المناسبة ـ فما كان منها الا ان قالت له : « لك أن تطمئن الى أننى لن ادعهما تموتان جوعا ، ولكنى لا أريد أن أراهما .. ولا مجال للحديث فى أمر استقبالهما هنا ! »

وفى سنة ١٩١٥ ، حصل « جاستون » على أول عطلة ـ خلال الخدمة العسكرية ـ فقضاها الى جوار « فالنتين » .. وما لبث بعد شهور ، أن تحرر من خوفه من (بون دى لور) ، فعقد قرانه على «فالنتين جونتران» شرعيا ومدنيا ، واعترف بأبوته لابنتها !

ولقد طلب الى « فالنتين » عند ذلك ان تهجر مهنتها ، املا منه فى أن يساعد هذا على أن تفسح أسرته صـــدرها لها . فوافقت الشابة لفورها ، واقدمت ـ وهى مفعمـــة النفس

بالاسى ـ على تصفية دار الازياء التى كانت تملكها . وقضت الاعوام التى بقيت من الحرب ، تعيش فى شبه عزلة فى (باريس)، لا تكاد ترى احدا ، وقد قصرت كل جهودها على تربية ابنتها. فلما أعلنت الهدنة ـ فى سنة ١٩١٨ ـ لم يساور «جاستون» أى شك فى أن أسرته ستتقبل زوجته . ومادرى أن مكانة « ديودا روميللى » الادبية كانت قد تضاعفت أثناء الحرب ، ومن ثم فقد اشتد تشبثه بمبادئه ، وازداد تعنته .. كما ازدادت امه صلابة ، حتى انها قالت له : **« اننى لا أفهمك .. لو أننى تقبلت هذه المرأة ، لما تقبلتها (بون ـ دى ـ لور) .. اما الطفلة سواء كنت معترفا بأبوتها أم لم تكن ، فانها ستظل دائما ـ فى نظر العالم كله ـ ابنة سفاح ! »**

ولم يعد «جاستون» يقبل هذا الهوان من أسرته ، فانفصل عن أبيه فى العمل ، وقرر الاقامة فى الريف .. ولما كانت «فالنتين» فلاحة الأصل ، فقد اقترحت أن يشتريا ضيعة فى (بيريجور) .. وطلب «جاستون» من ابيه ان يسوى له حسابه ، ويدفع اليه نصيبه فى «شركة ديودا روميللى وابنائه» . وبقسط من هذا المبلغ ابتاع ضيعة (بريساك) ، بمشورة السيدة لاجيشاردى .. وانصرف الى استثمارها

وعندما مات « ديودا روميللى » فى سنة ١٩٢٤ ، لم يستطع أن يحرم ابنه نصيبه الشرعى فى الميراث ، وان لم يصفح عنه.. فازدادت حياة الزوجين رخاء ، ولم يكن يعكر عليهما صفوهما، سوى صدود أسرة « روميللى » . على ان رعاية السيدة لاجيشاردى للأسرة ، عوضتهما عن هذا الصدود .

ولم يكن ثمة سوى سر واحد ، حرص « جاستون » و « فالنتين » على ان يخفياه عن كل مخلوق .. فلقد ذكرا للجميع انهما تزوجا فى سنة ١٩٠٩ ، ولم يخطر لاحد فى (بيريجور) أن « كوليت » ولدت قبل هذا الزواج ! .. وكانا أشد حرصا على كتمان هذا السر عن «كوليت» نفسها .

فبالرغم من ان «فالنتين» كانت تؤكد لزوجها أن ضميرها لم يكن يؤنبها - فى شيء - على كل ما جرى بينهما ، الا انها كانت تخشى أن تقسو ابنتها فى الحكم عليها ، اذا ما عرفت السر !

ومن أجل هذا تلقت « كوليت » علومها فى البيت ، اذ ان شهادة ميلادها - التى كان لابد من تقديمها الى أية مدرسة تلحق بها - كانت تحمل هذه العبارة : « ابنة طبيعية ، اعترف ببنوتها جاستون روميللى وفالنتين جونتران الاعزبان » .. يلى ذلك تعقيب فى هامش الشهادة : « اعترف بشرعية بنوتها بعد ذلك بزواج الابوين » !

ومن أجل هذا أيضا ، اضطرب الزوجان عندما أثير امرزواج « كوليت » ، فقد كان هذا كفيلا باعلان السر .. وقد يرفض آل سافينياك أن يرتبطوا بابنة سفاح . ومن ثم فقد تشقى « كوليت » وتحقد على أبويها ، كما أن أهل (بيريجور) لابد أن يتنكروا للاسرة .. وبعد ان عرف الزوجان طعم الهناء ، شعرا بالصواعق تتهددهما !

* * *

• **وطال** تفكير الزوجين - فى تلك الليلة - والأسى يخيم على نفسيهما .. وراح « جاستون » ينتحل العلل لرفض زواج « كوليت » من « أندريه سافينياك » ، ولكن زوجته نبهته الى أن هذا الرفض قد يوقع الشقاق بينهما وبين آل سافينياك ، كما أنه قد يغضب منهما السيدة لاجيشاردى .. وهنا هتف جاستون متحمسا : **«اذن، فلست أرى سوى وسيلة واحدة .. يجب الافضاء بالحقيقة الى السيدة لاجيشاردى ، فاننى أوقن من أنها تحبنا ، وأن ما سنكشفه لها لن يكون شديد الوقع عليها .. ومن يدرى ؟ ! لعل لها من السلطان ما ييسر الأمر ! »** . وفكرت فالنتين مليا ، ثم قالت : « وكوليت ؟ » .. وكانت مصارحة كوليت بحقيقة مولدها مشكلة أخرى ، شعر



كل من الأبوين انه اجبن من أن يقدم عليها .. ولكن « فالنتين » كانت ترى أن لا مفر من أن تعرف الفتاة كل شيء ، فقد كانت أسرة أبيها تنكرها ، وكان زواجها - من ناحية - واستقلالها بالعيش - من ناحية اخرى - خليقين بأن يسوقا مناسبات كثيرة تكشف لها السر !

ومرة أخرى ، تطلع الابوان الى السيدة « لاجيشاردى » كصخرة يلوذان بها .. فقد كان حبها للفتاة ، واهتمامها بأمرها ، واحترام الفتاة اياها .. كل هذه كانت عوامل تجعلها خير من يؤدى المهمة الاليمة !

وكان اثر الاعتراف على نفس السيدة لاجيشاردى ، أبعد ما يكون عن كل ما تصوره الزوجان .. والحق انهما لو كانا قد ادركا شخصية صديقتهما العجوز ، لما عز عليهما أن يتوقعا منها هذا التصرف ، فقد كان للسيدة لاجيشاردى نزواتها وزلاتها فى صدر شبابها . ثم انها كانت قد عرفت الأسرة منذ عشر سنوات ، وراقبت سلوكها عن كثب ، فكانت « فالنتين » فى نظرها أطهر منها هى نفسها .. حتى بعد أن أعترف لها « جاستون » بالسر !

على انها كانت من الخبرة بحيث تدرك ان المجتمعات لا تحكم على الناس بأعمالهم أو بآرائهم ، وانما تحكم عليهم بمظاهرهم ، أو بالأحرى .. بما يبدو - من هذه التصرفات - متمشيا مع ما تقره هذه المجتمعات ! .. ولكم خدعت زوجها السيد

لاچيشاردي - قبل الزواج وبعده - ولكنها كزوجة لسيد رفيع الشأن ، استطاعت أن تعمي المجتمع عن حقيقتها ، وأن تنعم فى النهاية بشيخوخة هانئة !

وقالت أخيرا لجاستون : « ترى ما وقع هذه القصة على آل سافينياك ؟ .. ان « كسافير » قد لا يهتم بالأمر فى حد ذاته ، ولكنه يهتم بما قد يقال عنه ، وقد لا يكون ثمة ضير - فى رأيه - اذا ظل الأمر مكتوما .. أما « آن » ، فعلى النقيض منه .. انها تهتم بالمبادىء الاخلاقية ، وما اصطلح عليه الناس من عرف .. على انها عاطفية ، مرهفة المشاعر ، وفى وسعى أن أسيطر عليها من هذه الناحية ! »

وهزها التدبير ، فأصبحت متحفزة للعمل .. ولكن « جاستون » نبهها الى ضرورة اطلاع «كوليت» على السر .. واذ كان « جاستون » قد بهت للطريقة التى تلقت بها السيدة لاچيشاردى اعترافه ، فان العجوز كانت أشد منه ذهولا للطريقة التي تلقت بها « كوليت » السر . فانها لم تبد كثير اكتراث بما صارحتها به العجوز من أن أبويها لم يكونا قد تزوجا ، عندما ولدت هى فى سنة ١٩١٠ ! .. بل قالت فى النهاية : « وبعد ؟ ! » .. فحملقت فيها العجوز مبهوتة ، وهتفت : « وبعد ؟ ! .. أتسخرين منى ؟ »

- **لقد كنت أعرف ، طيلة عمرى ، أننى ولدت سفاحا .. لقد أنبأني بذلك كثيرون !** .. ان مربيتى القديمة - التى فارقتنى وأنا فى الرابعة من عمرى - أفضت به الى «ميلانى» الوصيفة الزنجية الجميلة ، التى كثيرا ما أوضحته لى .. وسمعته كذلك من « تيريز » ، ومن غيرها .. ولعلى كنت اتألم فى البداية ، ولكنى لا أدرى عن يقين .. كل ما أذكره ، هو اننى سمعت اننى كنت كاليتيمة ، بلا أسرة أنتسب اليها. ومع اننى لم أفقه معنى عبارتها تماما ، الا انها انطبعت فى ذهني ..وكم تذكرتها بعد ذلك،فلم أدرك بدقة ماكانت تنطوي

عليه ، ولكن عقلي أوحي الى بأن ثمة أمورا فظيعة وراءها .. ثم لمست معناها الحقيقى ، عندما حدثتنى «ميلانى» بما كانت تعرفه .. ان أبوى لم يذكرا لى هذا الأمر يا سيدتى ، ولا أنا جرؤت على أن أفاتحها بصدده ، فاننى أحبهما كل الحب .. وأعبد أبى ، بوجه خاص .. ولقد التمست لهما الاعذار ، ولم ألبث أن تبينت ــ عندما كبرت ــ ان حب أمى لأبى ــ قبل أن يتزوجها ــ أفضل بكثير مما لو انها أحبت كثيرين غيره بعد الزواج !

ووجمت العجوز ، ولكنها حمدت الظروف اذ سهلت عليها مهمتها .. وتحولت توصى الفتاة بأن لاتذكر هذا السر لأندريه ، ريثما تدبر الامر ، ولكن « كوليت » قالت ببساطة : « ولكن أندريه يعرفه ! »

ــ اندريه يعرفه ؟ ! .. ومنذا الذى انبأه به ؟

ــ انا يا سيدتى .. انه الشخص الوحيد الذى أأتمنه على كل ما أعرفه عن طفولتى !

وبعد دقيقتين من انصراف الفتاة ، عاد جاستون مصطحبا فالنتين ، فروت لهما السيدة لاجيشاردى حديثها مع «كوليت» وقالت لهما : « والآن ، لقد انتهى دورى ، فاذهبا وقبلا ابنتكما ! » . ولكن فالنتين اقتربت منها ، قائلة : « لا .. لست أريد أن أكشف نفسى أمام كوليت ، بل اننى لآمل أن تسأليها أن لا تثير هذا الموضوع ــ مرة أخرى ــ أمامي أو أمام أبيها .. فيم يدهشك هذا ؟ ! .. اننا نعرف الآن انها قد علمت بالسر ، فلم يقلل هذا من حبها لنا .. ولكن من القسوة ان نتحدث معها عن هذا الماضى .. ذلك لأننى لا أزال أتألم ، فما الذى يدعو الى أن ننكأ الجراح القديمة ؟ ! .. لقد ظهر ان كوليت كانت تعرف هذا السر منذ عشر سنوات ، ولكن الفتاة لم تحدث أحدا منا عنه .. وقد عشنا سعيدين ، وعاشت هى الاخرى سعيدة ، فلماذا نخلق جو المأساة حولنا ، مادام الامر

لم يتطور الى شيء يعكر صفو سعادتنا ؟ .. ان ثمة جروحا تندمل اذا تركت وشأنها ! »

* * *

• وشاءت السيدة لاجيشاردى أن تتبع – فى مهمتها لدى آل سافينياك – المبادىء التقليدية التى كان نابليون يتبعها فى الحروب .. مباغتة الغريم ، وتفرقة صفوفه لضرب كل منها على حدة ، واختيار موقع المعركة لضمان المركز الأعز والأمنع .. لذلك أوعزت الى صديق بأن يدعو « كسافير سافينياك » الى رحلة قصيرة للصيد ، وأوصته بأن يستبقيه حتى الساعة الخامسة ، ثم يسأله ان يعرج – فى العودة – على قصرها

وفى غياب « كسافير » ، فاجأت زوجته « آن » بزيارة ، على غير موعد .. وبادرتها ، عندما استقر بهما المقام : « لقد جئت لأحدثك فى أمور هامة ، أرى أن رأيك فيها أعز عندى من آراء كسافير .. فأنا أعتد بمشورته فى مسائل البيع والشراء ، ولكنى أنشد آراءك فى الأمور العاطفية ! » .. وتضرج وجه « آن » ، بينما استطردت السيدة لاجيشاردى قائلة : « **لقد درجت على أن أعتقد أن ليس لأحد أن ينقم على زلات الحب ، مادامت تعقبها توبة خالصة .. ومادام مسلك المرأة يظل متسما بالعقل والحكمة ، بعيدا عن كل تثريب !** ».

وتحولت – بعد ذلك – تروى قصة « فالنتين روميللى » بأسلوب مؤثر ، يحرك المشاعر .. فلما لمحت مسحة من الاستهجان ، على محيا السيدة سافينياك ، فى النهاية ، هتفت بها : « انما أروى لك قصة امرأة تعسة ، اضطرت الى ان تشق طريقها نحو السعادة ، خلال صعاب ما كان لك أو لى أو لأية امرأة اخرى قبل بها ! .. ولقد ظلت دائما وفية لغرام واحد ، وكفرت عن زلتها بحياة مثالية .. انك اذا عبت عليها

مسلكها ، تنسين ان الكنيسة قد غفرت لها مذ تزوجت من رجلها »

فتمتمت السيدة سافينياك : « **ولكن الكنيسة لا تقر انجب الاطفال سفاحا ! »**

ـ ان الكنيسة ، يا عزيزتى ، تلوم الخاطئة ، ولكنها تغفر للتائبة .. ثم أن الكنيسة لا تعرف اولاد سفاح ، وانما هى ترى ان هناك فريقين من الأطفال : معمدين ، وغير معمدين .. وهى لا تحمل الطفل الذى تعمده خطيئة أبويه !

ومرة أخرى ، تضرج وجه آن دى سافينياك ، وقالت : **« لست أحب أن أكون أول من يرمى أى شخص بحجر .. كل ما هنالك هو اننى لن أرضى بأن ترتبط أسرتى ـ التى أحرص على طهرها ـ بأسرة حاق بها العار ! »**

ـ ما هذه اللغة يا آن ؟ ! .. العار ؟ ! .. أتستطيعين أن تذكرى لى أى عار لوحظ على فالنتين المسكينة ؟ من التى نهجت ـ فى هذا الأقليم ـ مسلكا يفوق مسلكها ؟ . أليس من العجيب أن يكون ابنك ـ الذى لم يتجاوز الثانية والعشرين ـ أعقل منك ، اذ عرف هذه السيرة من عهد بعيد ؟ .. لقد روتها له كوليت ، أفتدرين ما الذى قاله ؟ . قال : « يا لها من قصة شاعرية ! » .. وانه لعلى صواب ، وانى لأقدر فيه ذلك ، لأننى عرفت الحب وأحببت .. أما أنت ، فانك تنطوين فى عزلة ، غير حافلة الا بنفسك ، ومن ثم فانك لا تعرفين الحب !

وعلى هذه الوتيرة ، راحت السيدة لاجيشاردى توجه حملاتها ، حتى اذا انصرفت ـ بعد نصف ساعة ـ كانت قد ظفرت من « آن » بالموافقة على زواج ابنها من « كوليت » ، اذا وافق « كسافير » من ناحيته ! .. وهكذا تغلبت على نصف المعارضة ، فعادت الى قصرها ، تتأهب للجولة الثانية

ولكن « كسافير » أثبت انه غريم صعب المراس ، فما ان

سمع بالقصة ، حتى تجهم وجهه ، وقال : « اذن ، فقد ظل السيد روميللى — طيلة سنوات عشر — يخدع الأسرات الشريفة في هذا الاقليم ، لكى يزوج من ابنى الأكبر ابنة عشيقته ؟ ! » .. وصاحت فيه السيدة العجوز ، مستنكرة هذا الوصف ، ولكنه لم ينثن عن غضبته الأبية ، فلما واجهته بأن ابنه يحب « كوليت » ، أعلنها بأنه لن يتورع عن حرمانه من الميراث .، لو انه تزوجها ! .. وأثارها موقفه ، فصاحت فيه:

« ان الذى يسمعك يخال ان أسراتنا جميعا خالية من الشوائب . لعلك لا ترفض زواج ابنك من ديانا مونتال ، ومع ذلك فانت تدرك تماما السبب الذى من أجله دخلت اختها الدير .. انها نفس قصة الزوجين « روميللى » !.. وهل ترى بيت سافينياك أطهر البيوت يا صغيرى كسافير ؟ .. أفنسيت ان أخاك «جوزيف» عاش لعشر سنوات مع خادم فى (تونكين) ، انجب منها اطفالا صفر البشرة ؟ .. وهناك ابن عمك ريمون ، أفترى حياته فى باريس مشرفة ؟ .. ولقد كدت أنسى كسافير دى سافينياك نفسه ، اذ بلغ من شغفه بالصيد ، أن راح يتردد على (سولونى) ليصيد « البطات » الشقراوات ، بينما تكون زوجته التقية .. »

وتداعت صلابة « كسافير » ، فاذا بمعارضته تنتهى الى ابداء رغبته فى ان تظل القصة محصورة فى نطاقها الضيق ، بين الأسرتين .. ثم أردف قائلا : « واعتقد — فى هذه الحال — ان من واجب روميللى أن يضخم صداق ابنته بدرجة محسوسة .. ان أى عقد يجب أن يتضمن المساواة بين طرفيه . واذا كان روميللى يعتزم أن يمنح ابنته أراضى تفتيش (برويياك) ، فلماذا لا ينزل عنها فورا ، مع مبلغ مالى طيب ؟ »

وأضافت نصرا ثالثا وخمسين ، الى قائمة جهودها فى جمع الرؤوس فى الحلال !

* * *

• كان الليل ساجيا عليل النسمات ، فى ضيعة (بريساك) .. وما ان انفض القوم عن مائدة العشاء ، حتى تأبط جاستون ذراع زوجته ، والتفت الى « كوليت » وخطيبها « اندريه » قائلا : « لن نفرض عليكما صحبتنا ، فنحن ندرك انكما تودان ان تبحثا معا الف موضوع .. خذيه ياكوليت الى الحديقة »

وأسرع الشابان الى طريق اشجار الجميز ، والطرب يستخفهما .. وقال اندريه : « ان أبويك لطيفان ! » .. فهتفت كوليت : « لا سيما أبى .. اننى أحبه أكثر مما يحب الآباء ، ولكنى لا أملك أن أتحدث اليه على سجيتى ، بل أرانى مضطرة الى الحذر فى انتقاء عباراتى ، لأتفادى موضوعات معينة ! .. ألا تراه أحيانا يبدو كالطائر الجريح ؟ لماذا ؟ » .. فقال اندريه : « انها تلك القصة القديمة ! »

ـ ولكنها ليست بذات قيمة ، ولقد اعتاد « بابا » ان يكون صريحا مع أمى ومعى ، فهو لا يكتم عنا شيئا .. لا ، لا بد أن ثمة شيئا آخر ، ولكن .. ما هو هذا الشيء ؟

ـ هذا ما لا أفهمه ؟ .. انه عين الشيء الذى جعلهما يتحاشيان موضوع مولدك منذ طفولتك .. لقد كانت فى حياتك أمور غير عادية . فأنت ـ مثلا ـ لم ترى أسرة أبيك ، فبماذا تفسرين هذا ؟

ـ لقد اعتدت منذ صغرى أن أسأل أمى ، لماذا لا تزورنا جدتى التى فى (بون دى لور) ؟ فكانت تراوغ فى الاجابة . ولقد فهمت أن أسرتى أبى وامى غاضبتان لزواجهما ، ولكنى لم أسمع أى ذكر لمحاولة اصلاح ذات البين .. ان ابوى لطيفان .. انهما غامضان حقا ، ولكنهما جد متحابين ، يعيش كل منهما للآخر .. وانى لأشعر احيانا بأن أمى هى « الأب » ، لأنها تحب الحياة الرتيبة ، وتعاف التجديد .. أما أبى ، فانه يبتهج

لأى تغيير يطرأ على حياتنا .. ثم انه يدع لى مطلق الحرية ، افعل ما اشاء !

وروت له كيف انهـا تنطلق فى كل صبـاح ـ على صهوة جوادها ـ فتزور الفلاحين ، وتعنى بالزراعة وتربية الدواجن فى المزرعة .. فهتف الشاب : « اذن فسوف تكونين عونا لى فى استغلال ضيعة (برويى) .. انها لن تكون مهمة يسيرة ! »

وضحكت « كوليت » ، فاحتضنها « اندريه » .. وسمع « جاستون » الضحكة وهو يجلس مع زوجتـه فى الشرفة ، فقال : « ما أجمل ضحكها ! .. ترى فيم يتحدثان ؟ .. لكم يحزننى دائما أن « كوليت » تكون معنا ـ عادة ـ صامتـة ، واجمة ! » .. فقالت فالنتين : « ربما كان ذلك راجعا الى أن صحبتنا تثقل على النفس ! »

ـ أتظنين ذلك ؟ .. أتثقل صحبتى على نفسك ؟

ـ ولا دقيقة واحدة ..

وسادهما صمت وادع ، ما لبث أن عكره وقع أقدام الشابين وهما عائدان !

* * *

• **وغادر** آل سافينياك الريف ، فى أواخر شهر سبتمبر .. وانساب شهر اكتوبر وئيدا ، وأقبل نوفمبر ، وأخـذت أيامه تنطوى تباعا ، فى سـلام وجو بديع .. وكان « جاستون » ـ طيلة هذه الأثناء ـ لا يكف عن اصطحـاب « كوليت » فى سيارته ، لينطلقا فى الريف ، او ليهبطا الى قرية (بيريجودى) .. وفيما كانا فى احدى هـذه الجولات ـ فى ١٢ نوفمبر ـ اتصلت « فالنتين » تليفونيا بالسيدة لاجيشاردى ، حتى اذا اطمأنت الى أن بوسعها أن تراها فى عزلة ، واعدتهـا على ان توافيها بعد الظهر . وظلت السيدة العجوز تفكر فى سر هذه الزيارة مشفقة ، فقد خيـل اليها ان صوت « فالنتين » كان طافحا بالأسى !

ووصلت « فالنتين » الى قصر السيدة فى الساعة الثالثة — قبل موعدها بفترة طويلة — فبادرتها السيدة لاجيشاردى فى لهفة : « ماذا جرى يافالنتين ؟ » .. وقالت فالنتين ، وهى تجلس الى جوار صديقتها العجوز : « **انما جئت أستشيرك فى أمر لا بد — لايضاحه — من أن أروى لك قصة طويلة .. ذكرى عتيقة كدت انساها ، لولا حادث وقع هذا الصباح .. فقد دعانى الاستاذ « باساجا » موثق العقود فى (شاردوبى) الى أن أزوره ..** »

وشرعت تروى لها قصة حياتها مذ وصلت الى باريس فى باكورة صباها ، فالحقها خالها بالعمل فى دار الأزياء التى كان يديرها .. وكانت « روزى » — صاحبة الدار — فى تلك الأثناء نجما متألقا فى أوساط الطبقة الراقية فى (باريس) ، فلم تلبث أن أعجبت بالريفية الساذجة ، وبما أوتيت من ذكاء وبراعة فى ابتكار الأزياء ، فسرعان ما أصبحت تعتمد على « فالنتين » اعتمادا كبيرا ! .. بيد انها لم تلبث أن بدأت تغار منها ، اذ رأت ان سيدات الطبقة الراقية — من عميلاتها — أصبحن لا يسألن الا عن « فالنتين » ، ولا يعتددن الا برأيها ، ولا يعهدن بابتكار أزيائهن الا اليها ، فبدأت « روزى » تسىء معاملتها .. وبدأ « فانسان جونتران » — خال الفتاة — يعنف فى معاملة قريبته ، تقربا الى مخدومته وربة نعمته ..

وسرحت فالنتين بصرها خلال النافذة ، ثم استأنفت قصتها : « وكان أكبر مورد لدار « روزى » رجلا من أصحاب المصانع فى (ليون) يدعى «مارتان — بوسيير» .. كان يقيم فى (ليون) مع زوجته وطفليه ، ويتردد على « روزى » ليمدها باصناف الحرير ، وليبحث معها مشروعات انتاج اصناف جديدة ، أو أنواع ذات رسوم وألوان مبتكرة ، وليدرسا معا مشروعات ابتكار أزياء تعتمد على اصناف من الحرير ، ينتجها خصيصا

للدار وحدها .. ومن ثم فقد كان له دور رئيسى ، عظيم القيمة ، فى نجاح الدار ! »

وكان من الطبيعى أن توثق « روزى » الصلات بين «مارتان ـ بوسيير » ، وبين « فالنتين » ، التى غدت ساعدها الأيمن .. وراح الاثنان يعقدان الاجتماعات الطويلة المتتابعة .. « ترى كيف أشرح لك ما تبع ذلك ؟ .. بوسعى أن أقول لك : اننى احببت مارتان ـ بوسيير ! .. ولكن هذا لا يوضح الأمر ، فالواقع اننى لم احببه ـ وان كان جديرا بالحب ـ ولكنه كان ذا نفوذ عظيم فى تلك الدار ، التى كانت ـ بالنسبة لى ـ كل دنياى .. .. وفى الوقت ذاته ، **كانت معاملة « روزى » و« فانسان » لى تزداد سوءا على سوء ، واصبحت «روزى» تتهمنى بأننى استغل مكانتى فى الدار ، حتى اشتد الشجار بيننا ذات يوم ، فقالت لى : « بوسعك ان تتركى العمل ، اذا لم تكونى قانعة به ! » . وكان « مارتان ـ بوسيير » يلاحظ تطورات الأمور ، خلال زياراته الاسبوعية** . وفى ذات يوم ـ وقد طفحت كأسى ـ دعانى الى ان أزوره فى الفندق ـ الذى كان ينزل فيه ـ ليحدثنى فى أمر هام .. وفى ضيقى ، وحيرتى ، وضعفى ، لم أر بأسا من ان ألبى الدعوة ، لأتبين كنه ذلك الأمر ! »

وعرض عليها « مارتان ـ بوسيير » ـ فى ذلك اليوم ـ ان يخلصها من عنت « روزى » و« فانسان » ، وأن ينشىء لها دارا خاصة للأزياء ، يؤثرها بأنواع خاصة من انتاج مصنعه ، فيضم براعته فى التصميم الصناعى ، الى براعتها فى ابتكار الأزياء ، ويجلب لها العملاء ! .. وكانت الفرصة باهرة ، ولكن الثمن كان فادحا .. كان لا بد لها من أن تغدو خليلة لمارتان ـ بوسيير .. كانت الصفقة أشبه بالزواج الذى يستهدف المصلحة المتبادلة للطرفين ، ولكنه زواج بلا عقد .. **بل كان لا بد من ابقاء أمره سرا مكتوما ، حتى لقد استأجر الرجل مسكنا خاصا لفالنتين ـ بعيدا عن دار الأزياء التى انشأها**

لها ـ لكى يوافيها فيه مرتين فى الاسبوع ، اذ كان يخشى ان يتسرب السر الى زوجته !

ولازم التوفيق هذه الشركة خلال عامها الأول .. ولم يعرف أحد قط مصدر المال الذى استغلته « فالنتين » ، ولا اطلع مخلوق على العلاقة التى كانت بينهما ، والتى كانت « فالنتين » لا تسميها غراما .. فالواقع ان المصلحة كانت رائدها الأول ، فضلا عن أن « مارتان ـ بوسيير » كان من ذلك الصنف من الرجال ، الذى يعنى باشباع شهوته ، وليس بارضاء المرأة التى يتخذها عشيقة له !

ليس هذا فحسب ، بل ان حرص «مارتان ـ بوسيير» على ابقاء علاقته بفالنتين سرا ، كان جرحا أدمى كرامة أنوثتها ، فلم تلبث طويلا ، حتى أحست بأنه لا قبل لها بأن ترتضى لنفسها أن تكون ذات مكانة ثانوية فى حياة رجل يضحى بها فى سبيل ارضاء مخلوقات يرفعها الى ذروة التقدير ، والرعاية ، حتى ليكاد يقدسها : زوجته وطفليه !

* * *

• ثم استفحل عدم الرضى ، حين قدر لروزى أن تعلم ـ فى سنة ١٩٠٩ ـ بالعلاقة التى كانت بين « مارتان ـ بوسيير » و « فالنتين » ، وبالرابطة الغرامية التى كانت تربط بين الاثنين .. **وزاد الامر سوءا ، ان تلقت زوجة «مارتان ـ بوسيير» خطابات ـ بدون توقيع ـ تفشى هذا السر الذى كان محوطا بكتمان شديد . فقامت بين الزوجين مشاجرات حامية ، انتهت بأن رأى «مارتان ـ بوسيير» ألا مفر له من ان يهجر فالنتين**

واستطردت فالنتين ، وهى تروى قصتها للسيدة لاجيشاردى : « وفى تلك اللحظة بالذات ، عرفنى احد موردى الأقمشة بجاستون روميللى .. وانت تعرفين كيف انه ساذج وعاطفى . فوضعت له تصميمات رسوم مبتكرة لأقمشته ،

وتردد على مؤسستى عدة مرات ، فسرعان ما اكتشفنا ان لنا عين الاذواق والميول .. وكان يستشعر الوحشة ، كلماجاء الى باريس ، فأخذ يدعونى الى العشاء ، والى المسرح.. وبدأت أتحرر من العزلة التى كان « مارتان – بوسيير » يحبسنى فيها . وتدله «جاستون» فى هواى ، فلم ينقض على تعارفنا خمسة عشر يوما ، حتى عرض على الزواج ، دون أن يخفى عنى أن حمل أبويه على قبول هذا الزواج ، امر جد عسير ومع اننى أرجأته ، الا أننى شعرت للمرة الاولى بكرامة أنوثتى، وبأننى محبوبة .. ويبدو لى اننى كنت بحاجة الى ان احب رجلا ، اجده قويا فى شخصيته مع الغير ، ولينا وديعا كالطفل معى ! وهكذا احببت جاستون ! .. وعندما شاء ان يقوم برحلة الى (فينيسيا) ، عرض على – باستحياء – ان اصحبه، فقبلت ! »

وفى (فينيسيا) أسلمته نفسها ، فاذا بها تشعر لأول مرة، بلذةعلاقة البدن عندما يكون ثمة حب عاطفى بينالشريكين!.. ووجدت فى «جاستون» الرجل المحب ، الكريم النفس ، الطيب القلب ، الذى تستطيع ان تحبه طيلة عمرها ! .. وعرفت طعم السعادة الحقة ، لاول مرة فى حياتها . ولكنها عادت من ايطاليا ، لتجد نفسها فى موقف حرج ازاء « مارتان – بوسيير» الذى كانت مؤسستها تقوم على ماله ، والذى عاد يحاول أن يسترجع علاقتهما من جديد !

« وعدت من الرحلة فى شهر مايو .. وفى شهر يونيو ، عرض على « مارتان – بوسيير » ان ارافقه فى رحلةالىانجلترا .. فلما عدت – فى شهر يوليه – تبينت اننى حامل ! .. وأزعجنى هذا كثيرا ، فقد جاء هذا الحمل فى الوقت الذىبدأت أوجه فيه حياتى وجهة اخرى ، فكان خليقا بأن يسببلىكثيرا من المشكلات .. ولم اشك فى أن الجنين كان من «مارتان – بوسيير » ، فكان هو اول من صارحته بهواجسى ، واذا به

يجبن ، ويرتبك ، ويبدى الشك فى أبوته له ، ويعلن خوفه من أن تعرف زوجته بالامر .. ومع انه تعهد بان يكفل لى وللطفل حياة طيبة ، الا أنه صارحنى برغبته فى أن لايحمل الطفل اسمه. فقد كان له فى (ليون) مركز اجتماعى وسياسى واقتصادى يعتمد كثيرا على مؤازرة أهل زوجته ، وعلى مالهم من نفوذ وسلطان ! .. وهكذا لم يكن يفكر - ابان محنتى - الا فى نفسه !))

أما ((جاستون)) فلم يكد يعلم ان ((فالنتين)) حبلى حتى كاد يطير فرحا ، واقبل يغمرها بحنانه ، دون ان يداخله شك فى ان الجنين ابنه . ووعدها بأن يعترف بأبوته عند مولده ، وبأن يتزوجها بعد ذلك . ولقد حاولت ((فالنتين)) - فيما بعد - ان تصارحه بالحقيقة ، ولكنه لم يكن يدع لها الفرصة ، كما ان ظروفها كانت تضطرها احيانا الى الارجاء ، خشية ان تفقد الرجل الذى كان اول من احبها واذاقها طعم الحب ! .. وما لبثت هذه الخشية ان سيطرت على عقلها وعواطفها ، فحالت بينها وبين الاعتراف !

ومضت ((فالنتين)) تذكر كيف انها حاولت ان ترتاب فى نسب الجنين الى ((مارتان - بوسيير)) ، ولكن للنساء أساليب تمكنهن من ان يعرفن آباء الاجنة التى فى احشائهن !.. وعلمت يوما ، ان الوسط الذى يحيط بالحامل ، يترك طابعا قويا على الجنين ، فأحاطت نفسها بصور ((جاستون)) وثبتتها فى كل مكان - حتى فى مخدعها - عسى أن تنتقل الصورة ، خلال عينيها الى وجه الجنين ! .. وكان ((مارتان - بوسيير)) يتردد عليها - فى تلك الاثناء - فراحت تبدى له كل فتور واعراض ، وأفهمته أن ثمة رجلا آخر فى حياتها ! .. حتى اذا وضعت حملها ، اغرقها بالهدايا . ولكنه لم يكد يرى الطفلة الوليدة ، حتى بهت ووجم .. وانتهزت ((فالنتين)) هذه

الفرصة ، لكى تقضى تماما على كل علاقة بينهما ، فاختفى من حياتها من ذلك الحين !

* * *

• واستطردت فالنتين قائلة : «ولم ارغب — منذ ذلك الحين — فى ان أرى «مارتان — بوسيير» ، بل ان هذه الفترة من حياتى اصبحت تثير فى نفسى السخط والاشمئزاز . وازددت ارتباطا بجاستون ، فقد كان يعاملنى كامرأة ، وكان يعتز بى ويقدمنى لاصدقائه ، كما كان يعنى بكوليت ، وهو موقن من انها ابنته . وكانت الصغيرة تحبه ، حتى لقد كنت أراها تفضله على أنا .. وبوسعك ان تتصورى مدى الهناء والقلق اللذين كانا يتوزعاننى اذ ذاك !

« ولقد روينا لك تاريخ زواجنا .. وكانت الصلة بين جاستون والصغيرة قد توثقت — فى تلك الاثناء — الى درجة بدا لى عندها ان من القسوة ان اعترف بالحقيقة . ومن البديهى ان الاعتراف — بعد تسجيله بنوته للصغيرة — كان أقسى وأمر . ولعلى أخطأت ، ولكننى كنت اشفق على الاثنين ، فلم اجد سوى أن أنسى الماضى !.. وفى السنوات التى قضيناها هنا ، لم يعد «مارتان — بوسيير» سوى طيف ، بل ذكرى حلم انقضى ! .. ولعلك تعجبين من ندرة زياراتنا لباريس ، ولكنى فى الواقع أرى فى ضيعتنا الريفية معقلا وملاذا ! .. ولقد يعرض لى — فى بعض الاحيان — حادث عارض ، وجيز ، ينكأ جراحى ، كحركة من «كوليت» تذكرنى بمارتان — بوسيير ، أو كصوتها الشبيه بصوته .. على أننى لا ألبث ان أطمئن واغتبط ، اذ اتبين ان «كوليت» اذا كانت تشبه مخلوقا ما ، فانما تشبهنى أنا .. وهذا الشبه يزداد كلما نمت وترعرعت !

« وهكذا توالت الاعوام سعيدة ، لم يتحرك الماضى خلالها ويهدد صفائى سوى مرتين .. وكانت أولاهما فى العام الماضى ،

اذ ذهبت «كوليت» الى دار للازياء فى (بيريجور) ، فراقها نوعان من الاقمشة ، أحدهما من مصانع «مارتان ــ بوسيير» ، وكان هو أبدعهما . على أنها لم تشأ أن تبت برأى فى الاختيار ، بل احضرت معها عينةمن كل من النوعين ، لتسألنى رأيى ، فما ان ذكرت اسم «مارتان ــ بوسيير» ، ــ حين قدمت عينة انتاجه ــ حتى نظرت اليها بغضب .. **وليس بوسعى ان أعلل مدى العار الذى استشعر به اذ مس هذا الاسم شفتيها .. وكان «جاستون» معنا ، فبدا لعينى ــ انا المرأة المذعورة من شبح الماضى ــ ان شفتيه ارتجفتا** . ووجدتنى أتحمس فى تحاملى فى انتقادى قماش «مارتان ــ بوسيير» ، ثم أقول آمرة : « لست اسمح لك بأن ترتدى هذا القماش البشع ! » .. وبهتت الفتاة وقالت : «ولكننى لم اختره ، وانما سألتك رأيك ! » .. وقال جاستون برفق : «ولكن الثوب لها ، فدعيها تختر مايروق لها!»

« وقضيت اسبوعا وأنا فريسة للارق فى كل مساء ، وقد خيل الى أن انبعاث ذلك الاسم على شفتى كوليت نذير شؤم ، .. فمع أن ابنتى نشأت فى (بريساك) ، ولم تتح لها أية فرصة لمغادرتها ، الا اننى وهمت انها ربما كانت قد عرفت ان « مارتان ــ بوسيير» هو أبوها ، مع أن احدا لم يعرف هذا السر ! .. ولكن مسلك كوليت استطاع ــ بعد وقت طويل ــ ان يبدد هواجسى !

« اما المناسبة الثانية ، فكانت اكثر واقعية . . كان جاستون قد ذهب الى باريس ليجتمع بأخوته لتصفية تركة ابيهم بعد موته . ومن هناك ، أرسل يستدعينا ، فرحلنا فى سيارة .. وفى اثناء الرحلة ، عرجنا على مطعم على الطريق ، فما ان ولجناه ، حتى وجدتنى أمام كهل نحيل ، أنيق ، أوشك على أن يفرغ من غدائه .. **واذ رآنا ، اقبل يحيينى فى دهشة ، فاذا به «مارتان ــ بوسيير»** . **وشعرت بالدم يجف فى عروقى ، وهممت بأن ابرح المكان ، لولا ان اخشيت ان يبدو مسلكى**

لكوليت حمقا مثيرا للريب .. وتقدم الرجل فرمق كوليت طويلا ، ثم قال : «أهذه ابنتك ياسيدتي ؟.. لشدمانشبهك!». واحتبس صوتي ، اذ أن مرآى كوليت الى جانب هذا الذى كان ـ بالنسبة لها ـ غريبا ، أشعرني بالرابطة القوية التي تربطهما رغم كل شيء .. ولاحظ «مارتان ـ بوسيير» جزعي واضطرابي ، فحول مجرى الحديث ، ذاكرا لي ان ولديه قتلا في حادث ، وان زوجته ماتت في العام السالف ، وانه أصبح يعيش وحيدا .. ورثيت له ، ولكنني بادرت قائلةاننامضطرتان الى تناول وجبتنا بسرعة ، لنستأنف الرحيل ، فودعنا قائلا : «حسنا ، انني سعيداذ التقيت بك ، واذ رأيتابنتك الفاتنة !» .. وما ان انصرف ، حتى سألتني «كوليت» عنه ، فأجبتها : « شخص عرفته في الماضي .. وجـــه من تلك الوجوه التي يصادفها المرء ، فلا يحفل بتذكر اسمائها ! »

« وترك هذا اللقاء في نفسي اثرا عظيما ، فقد عشت طيلة السنوات الثماني عشرة الاخيرة ، وأنا أتوقع ان يوجه لي القدر ضربة قوية مفاجئة . فخيل الى ان هـــذا اللقاء كان نذيرا باقتراب هذه الضربة ! »

* * *

• **وهنا** فرغت « فالنتين » من قصتها ، فتحولت تذكر السبب الذى دعاها الى أن ترويها لصديقتها العجوز . ففي ذلك الصباح ، دعاها الاستاذ «باساجا» المحامي في (شاردويي) الى مقابلته . فلما وافته ، ذكر لها ان زميلا له في (ليون) ، كتب اليه ليعاونه بشأن وصية تركها عميل له مات أخيرا ، ويدعى «مارتان ـ بوسيير» ، وقد خلف ـ بمقتضاها ـ كل ثروته للآنسة «كوليت روميللي» ، على ان تحاط السيدة حرم «جاستون روميللي » بالامر قبل أى شخص آخر ، وان يظل سرا الى أن تبت فيه .

ولقد رفضت « فالنتين » قبول التركة ، ولكن المحامى ــ وقد ألم بقصتها ــ قال لها ان زوجها هو الذى يملك الرفض ، لأنه ولى أمر الفتاة . وزاد على ذلك ، بأن للفتاة ــ اذا بلغت سن الرشد ــ الحق فى ان تحاسبه على تصرفه قانونا !.. وقد أمهلها اسبوعا لتحاول تدبر الامر مع زوجها . فقالت له : « لست نادمة الا على اننى لم أصارح زوجى بالحقيقة منذ اليوم الاول .. لقد اخطأت ، ولعلى كنت مسوقة الى ان ادمر حياتى وحياته ! » فأجابها المحامى الشيخ : **«لست على صواب فى هذا ياسيدتى ، فلو أنك شهدت ــ مثلى ــ كل المآسى التى تتوارى وراء ما الكثير من الاسرات من مظاهر الدعة والطمانينة، لوجدت ان مشكلتك أهون حالا ! »**

على أن قوله لم يخفف من جزع «فالنتين» وشقوتها ، فقد رأت الصرح السعيد ــ الذى انفقت اعوام عمرها الثمانية عشر الاخيرة فى بنائه ــ يوشك أن ينهار .. ولم يكن اشفاقها على نفسها ليعادل اشفاقها على «جاستون» الطيب ، و «كوليت» البريئة ! .. وفى الغيوم المدلهمة التى خيمت عليها ، اومضت بارقة من امل .. تلك هى ان تجد المشورة عند مدام لاجيشاردى الكريمة النفس ، التى طالما اولتها عطفها وغمرتها بحنانها !

وكانت السيدة العجوز تدرك ان مهمتها عسيرة ، عندما دعت « جاستون روميللى » الى قصرها . واشتد ادراكها عندما رأته ــ بعد ان روت له القصة ــ يذرع القاعة الكبرى ، وقد دس يديه فى جيبى سرواله ، ونكس رأسه ، وهو متجهم ثم هز كتفيه ــ اخيرا ــ وقال : **« وكيف ــ بحق الشيطان ــ قدر لفالنتين ان تعرف ؟ .. لقد قلت لى انها ترددت طويلا ازاء «الابوة الحقيقية» .. فمن أين لها ــ بعد ذلك ــ باليقين ؟ .. تقولين انها اقتنعت بما تبدى لها من شبه ؟ .. ان كوليت تشبهها هى شبها تاما ، يلاحظه اى**



غريب عنهما .. فلماذا تعكر فالنتين اليوم صفو حياتى بهواجس سخيفة ؟ »

وأصغت اليه السيدة لاجيشاردي ، وقد رأت فى حديثه بارقة من أمل . ثم قالت: « اننى أجد فى حديثك كثيراً من الحجى ، ومن السخف حقا ان تفكر فالنتين فى وساوس مر عليها عشرون عاما . والمسألة الآن تنحصر فى أن سيدا كهلا ترك ثروته لابنتك عند موته ! » .. فهتف : « ولكننى لا اريدها .. لن اقبل ثروة محوطة بالشبهات ! »

وعاد «زوميللى» يجوس فى القاعة كحيوان هائج ، بينما قالت السيدة لاجيشاردى ، وكأنها تحدث نفسها : « **حقا ، ما اكثر الظلم فى هذه الدنيا ! .. ان فالنتين المسكينة ، جديرة بان تكون قديسة ، ومع ذلك ، فهى تعيش مهددة بأن تفقد هناءها بين يوم وليلة .. لماذا ؟ .. لأنها صادفت فى بداية حياتها صعابا ، ما كان بوسعها أن تتغلب عليها دون ان يعلق بها أثر منها .. ولو أنها ولدت فى أسرة من تلك التى نسميها «أسراتنا الراقية» ، لظلت ـ امام الناس ـ طاهرة الذيل ، راضية الضمير ، ولو ارتكبت عشرات الزلات ! »**

وهنا قال جاستون : «من العسير على المرء ان يجد نفسه مدفوعا فجأة الى خارج حياة كان جد مطمئن اليها طيلة خمس عشرة سنة .. ما أشبهنى بطائر الليل اذا ألفى نفسه فى ضوء باهر ! .. لقد كنت أوشك أن أقوم بمهزلة امامك .. مهزلة أمثلها امام نفسى منذ عشرين عاما ، وكانت عونا لى على الحياة،

لأن الحقيقة كانت جد قاسية ، ولكنها اليوم غـدت ـ فيما بيني وبينك ـ فارغة ، بل هباء ! .. فيم نقسو على أنفسنا والامر سهل ، ولن نلبث أن نسير بسرعة الى الموت ؟ ! »

* * *

• ونكس راسه ، ومسح بيده عينيه ، وشرع يقول :

« الحقيقة انني كنت اعرف ـ منذ خمس عشرة سنة ـ ما قصصته اليوم على !.. وقد يطوف بخاطرك انه كان من الخطأ ـ مادمت قد عرفت ـ أن أمثل دور الجاهل . ولكن ، مهلا ! .. لقد كان دور «مارتان ـ بوسيير» فى حياة فالنتين سرا مكتوما عنـدما التقيت بهـا .. ثم تزوجنا بلا احتفـال ومن ثم فاتنى لم ألتق بأصدقاء كثيرين لها . ولقـد تلقيت خطابات من مجهولين ، تسعى بالوقيعة بيننا ـ اذ ذاك ـ فعزوتها الى بعض زميلاتها اللائى كانت الغيرة تأكل قلوبهن . والواقع ان تلك الخطابات ذكرت اسم «مارتان ـ بوسيير» ، واكدت انه والد كوليت . وبلغ من دقـة أحدها ، أن المرأة التى كتبتـه ـ فقد نم الخط عن انها امرأة ـ ذكرت انها سألت المولدة التى أشرفت على الوضع ، وعلمت منها ان «مارتان ـ بوسيير» زار «فالنتين» بعد الوضع بخمسة عشر يوما .. أفتظنين ان هذه المعلومات ضايقتنى ؟ .. لقد كنت ـ اذ ذاك ـ وحيدا ، مريضا أكاد أشرف على الموت ، فلم أشـأ أن أبتر العلاقة الوحيدة التى كانت تربطنى بالحيـاة .. ولم أكتب لفالنتين شيئا عن هذه الاتهامات ، فلما التقينا ـ بعد ذلك ـ طغت فرحة اللقيا على كل شيء !

« والواقع أن فالنتين لم تكن قد زعمت أننى أول عاشق لها، وانما قالت ـ عندما تحاببنا ـ أننى « أول رجل احبته حبا صادقا» .. انما الذى أزعجنى ـ فى بداية الامر ـ هو أننى خلت انها من الخبث بحيث تظاهرت بحبى لكى أسبغ ابوتى على

الابنة التى أنجبتها من راعيها .. كاد الشك فى انهـا خدعتنى وغررت بى أن يقتلنى ، حتى لقد عولت على أن أتحرر من علاقتى بها ، بمجرد انتهاء الحرب .. ولكن هذا العزم تبخر بحرارة العودة عقب اعلان الهدنة .. ثم ، ما الذى كنت استطيع ان أفعله ؟ ان أية طريقة للتحرى عن صحة المعلومات التى تلقيتها ، كانت كفيلة بأن تحـط من شأنى أمام نساء كالمولدة او الخـادم أو الطاهية .. وأدى استبشاعى لهذه الفكرة ، الى أن أوثر الثقة بامرأتى ، فعزمت على أن أسألها هى عن وساوسى ، ولكنى كنت أحجم كلمـا هممت ، واحسب أن غريزة الخوف من المجهول هى التى كانت تصدنى .. اذ كنت أسائل نفسى : ترى بماذا تجيب ؟ .. وكيف تكون حياتنا بعد المواقف المليئة بالشك ؟ .. لذلك لم أهتم الا بالتأكد من أنها أحبتنى حبـا لا يتطرق اليه أى ريب !

« ومالبثنا ان قررنا النزوح الى الريف ، لنبدأ معا حياة جديدة . فكيف كان للشك ان يساورنى ازاء امرأة قبلت فى فرح صادق ، واخلاص وطيد ، ان تعيش معى فى عزلة عن العالم ، مضحية — فى ذلك — بالحرفة التى أحبتها ، وبالدار الناجحة التى كانت تمتلكها ، وبالمستقبل والشهرة اللذين كانا يرتقبانها ، وبحياة (باريس) البهيجة ؟!

« أما كوليت ، فكانت قد أحبتنى ، كما احببتها حبا صادقا ، لا لانها كانت تشبه فالنتين فحسب ، وانما لاننى وجدت فيها شيئا غريبا وضعيفا مرهفا ، عذبنى وفتننى فى آن واحد .. والواقع ان حبى لكوليت يكاد يكون أشد من مجـرد الحب الابوى ، فاننى ألمس فيه شيئا من الاسى والعذاب .. وأن الجهد الذى كنت أبذله لاطرد الافكار المعادية ، ولاوفر للفتاة الحنان الذى كانت ترتقبه منى ، ادى الى اضفاء صبغة على الحب الابوى .. صبغة فيها شىء من العنـاء ، وشىء من الشجاعة ، مما جعل هذا الحب من طراز نادر وثمين ! ..

ولعل الذكرى التى سأرويها لك فيما يلى ، تطلعك على صورة منه . فلقد حدث ـ فى اوائل استقرارنا هنا ـ ، أن أصيبت كوليت بالتيفويد . وأنت تعرفين مدى وطأته ، لا على المريض وحده ، بل وعلى من يعنى به .. ولقد اضطررت ـ فى هذه الفترة ـ الى أن ألازم «كوليت» ، فلم تكن تتكلم أو ترغب فى شىء اللهم الا ان تظل قابضة على يدى، وهى تردد بلا انقطاع : « بابا .. بابا ! »

« وفى الصباح ، تلقيت خطابا ضم صورا احاط بها شريط من الورق ، طبع عليه بالآلة الكاتبة : « قارن ، اذا لم تكن اعمى برغبتك .. ! » . ولم استطع أن أتجاهل الشبه .. **أضيفى الى هذا اننا لم نستطع ان ننجب اطفالا آخرين ، رغم رغبتنا فى ذلك ، ورغم أن «فالنتين» لم تبلغ سن اليأس .. ثم أضيفى كذلك اننى لم أنجب قط اطفالا من خليلاتى قبل التقائى بفالنتين ! .. وفى هذا كله تجدين عناصر اليقين ،**

« على أننى لطول تفكيرى فى الامر ، لم أجد الصدمة قوية ـ فى ذلك الصباح ـ بل قلت فى نفسى: « اذا لم تكن كوليت ـ عند مولدها ـ ابنتى ، فهى الآن ابنتى بكل تأكيد .. ابنتى بهذا السهر ، وبهذه الرعاية ، وبالحياة التى أحيطها بها ، وبالحنان الذى أغمرها به .. وبالحب ! » .. واذ ذاك شعرت بسعادة واعتزاز بنفسى على علاتها ! »

* * *

• ولم تعد السيدة لاجيشاردى ترى « جاستون » ، اذ حالت بينها وبينه طبقة من الدموع .. وشعرت بالاكبار والتقدير نحو رجل له هذا النبل !.. أما هو ، فقد عاد يذرع الحجرة بانفعال . وهتفت العجوز : « انك لنبيل يا صديقى ! » . فتوقف عن السير ، وهز كتفيه ، وقال :

ـ لا ، كل ما هنالك أننى رجل .. انسان فحسب !.. ففى

كل قرار اتخذته كان ثمة حنان ، وانصاف ، و .. وكثير من الجبن ـ الجبن الناشىء عن الخوف من أن أفقد المخلوقين اللذين أصبحا كل من لى فى الوجود ـ وعن اليقين من أننى لا أستطيع العيش بدونهما .. لكم تعذبت !.. ولقد كان من المحتمل أن أضحى بفالنتين ، ولكن .. ماذنب كوليت المسكينة ؟ انها بريئة بلا شك !.. بل ماذنب فالنتين هى الاخرى ؟!.. لقد حاولت ـ مرتين أو ثلاثا ـ أن أصارحها ، لا لكى أصب نقمتى عليها ، وانما لكى أطمئنها وأبدد الظلمات عن كل ركن فى حياتنا المشتركة ، فقد كنت أدرك أنها الاخرى كانت تتعذب !.. وكنت أخال أحيانا ، أن صمتنا ازاء هذا الامر ، سمم حياتنا .. ولكم وددت أن أسرى عنها ، وأطلعها على اننى اعرف كل شىء ، ولكننى لم ألبث أن خشيت أن تؤدى النتيجة الى سوء ، وليس الى خير !.. وخشيت ـ بوجه خاص ـ أن تعرف كوليت الامر ، أو أن يؤثر على مستقبلها ، فرأيت أن الصمت هو أول مستلزمات النسيان .. **فهل أخطأت ؟ من يدرى ؟.. ثم ، ماقيمة ان أكون قد أخطأت أو أصبت ؟.. ألا ما أصعب الحياة !**

وكان التأثر قد بلغ مداه بالسيدة لاجيشاردى ، اذ حركت القصة بعض رؤى ماضيها ، ولكنها غالبت عواطفها ـ فى النهاية ـ وسألته : « وما الذى اعتزمت فعله ؟.. وماذا ترانى أقول لفالنتين ؟ »

ـ اننى موقن من أنه من الخير لكوليت ولى ، أن أرفض هذه الثروة . ولكننى أريد ان أعرف الوضع القانونى اولا .. ومهما يكن الامر ، فلست أطلب من فالنتين سوى أمر واحد .. ذلك هو أن لاتفاتحنى قط فى هذه القصة ، وأن تعيش الى جوارى ـ كما اعتادت دائما ـ وأن تنسى !

وصمت برهة ، ثم عاد يقول فى حرارة : « يجب أن لاتروى القصة لكوليت .. والى أن أبلغ البيت ، أرجو أن تتصلى

بفالنتين تليفونيا ، وأن تذكرى لها أننى كنت أعرف كل شىء ، وأننى غفرت لها منذ أمد طويل ، وأننى أرجو أن تستقبلنى عند وصولى ، كما اعتادت أن تستقبلنى كلما عدت من نزهاتى .. انك لتعرفين أننى مولع بالمشى فى الغابة وحيدا ، وقد اعتدت فى تلك النزهات أن أستعرض حياتى ، وحياة الغير .. **ويبدو لى أن الشطر الاكبر من آلامنا ـ آلامنا النفسية طبعا ـ انما ينبعث من الكلمات التى نصف بها هذه الآلام ، اذ أننا بالكلمات نجعل للآلام كيانا ليس لها أصلا .. وبالتالى ، فان الكلمات تطيل من أعمار اللوعات التى ولت وانقضت .. أما الفطر الحيوانية ، فتنحو نحو النسيان !..** انظرى الى حالى مثلا ، فان فى حياتى مأساة فظيعة ، ولكنها أصبحت تبدو لى وكأنها غريبة عنى ، لانها ظلت دائما خرساء صامتة ! فهل يجب أن نوقظها ؟.. ان هذا لن يؤدى الا الى جدال مؤلم ـ بينى وبين فالنتين ـ لاينتهى الا بموتنا !.. فلماذا نعذب نفسينا ؟.. ان « مارتان ـ بوسيير » يرقد اليوم على عمق ستة أقدام من سطح الارض .. وعلى عمق ستة أقدام سنرقد نحن يوما ! »

وارتجفت العجوز ، بينما استطرد الرجل قائلا : « هبى أننى طردت من دارى ـ فى ثورة مسرحية ـ فالنتين التى أحبها وتحبنى .. فالنتين التى ربما كانت قد أذنبت منذ عشرين يوما ، ولكنها لم تعد اليوم نفس المرأة التى كانتها ، ولا تكاد تذكر تماما تصرفاتها ـ فى ذلك الحين ـ ولا بواعثها الحقيقية .. فما الذى أجنيه سوى أن تنهار كرامتى وشرفى أمام الناس ؟ »

ـ وكوليت ؟.. أتراك ستقوى على أن تعاملها كما اعتدت من قبل ؟

ـ أفلا ترين أن ثمة رابطة قد توثقت بينى وبينها ، أقوى وأشد من تلك التى كانت بينها وبين « مارتان ـ بوسيير » ؟..

لقد رويت لك أنها ما كانت تنادى — ابان مرضها — سواى .. وأنا الذى اعتادت أن توجه اليه الحديث اذا تكلمت !.. انها ابنتى أكثر مما هى ابنة ذلك الكهل الذى قابلها — مصادفة — فى مطعم على قارعة الطريق ، ثم انصرف دون أن يكلمها أو يترك أثرا فى نفسها !

وما أن انصرف الرجل ، بعد أن ظل ساعتين يتكلم — وهو الذى كان صامتا بطبعه — حتى أسرعت السيدة لاجيشاردى الى الاتصال بفالنتين تليفونيا ، لتوصيها بأن تستقبله — عند عودته — كما اعتادت أن تستقبله دائما !

* * *

• **راح** بصر « جاستون روميللى » ينساب خلال نافذة سيارته ، خلال الليل ، وقد أخذ القمر يسكب ضياءه الواهن على الاشجار السامقة فيكسيها بهاء غير طبيعى .. وراح « جاستون » يستعرض ما دار بينه وبين السيدة العجوز من حديث ، دون أن ينصرف عن الانتباه الى الطريق .. وقال يحدث نفسه : **« لعلها ظنتنى معتوها ، ولكنى غير نادم على شىء .. ان أمامى سبيلين ، فهل ترددت يوما فى اختيار السبيل التى أسلكها منهما ؟.. كلا ، فما ينبغى أن أعيش فى وجود مهدد ، بعد أن جاوزت منطقة الخطر ! »**

وقفزت أمام عينيه صورة « كوليت » ، عندما قدمت الى هذه البقاع ، وهى بعد صبية صغيرة .. ثم قفز خاطره الى أمه العجوز فى (بون دى لور) ، حين قدر له أن يراها — مرة أخرى — عند موت أبيه . لقد خيل اليه ان بوسعه ان يلين فؤادها ، اذا ما حدثها عن صحة « كوليت » وضعفها ، فاذا بها تقول له عابسة : « ما أراك ستظل تعذب نفسك — طيلة الوقت — من أجل **هذه** الطفلة ! » .. ولقد كبح لسانه عن الرد بعناد ، ولكن .. لكم تألم ، ولكم شعر بالهوان ، ولكم أرقته

هذه العبارة ليالى بأسرها !.. ولكم بدا له كل شيء زائفا ، عند موت أبيه .. كان كل ماحوله ينطق بالرياء .. لقد جاء أكبر مزاحم لابيه ، يقول للارملة المحزونة : « أواه ياسيدتى ، لقد فقدت أعز صديق ! » .. ولقد جاءت مطلقة أخيه «لوى» متناسية كل سخائم الماضى ، طمعا فى أن تؤدى التركة الى زيادة معاشها !

أما هو ، فلم يشأ أن يرائى عندما قالت له أمه : « لقد كان أشد ما أحزن أباك المسكين ، أنه لم يستطع أن يراك قبل موته ! » .. لكم ود – اذ ذاك – أن يقول لها أنها كانت تكذب ، وأن أباه ظل مريضا ستة أشهر ، ولو أنه كان يود أن يراه ، لاستدعاه !.. صحيح أنه كبح لسانه عن هذا الرد ، ولكنه لم يقل عكسه تملقا لامه ، فماذا كانت النتيجة ؟.. لقد جاءه محامى الاسرة – فى اليوم التالى – يذكر له أنه حاول أن يتوسط بينه وبين أمه ، كى يتولى – وهو الابن الاكبر – شئون المصنع والتجارة .. ثم استطرد قائلا : « ولكنها – بصراحة – قالت لى ، عندما حاولت استدراجها : « ان جاستون يسبب لى هما ثقيلا .. انه لم يتزوج خليلته فحسب ، وانما هو يصر على أن يفرض علينا ابنة السفاح .. لا ، هذا كثير ! » .. ومن ثم فقد اعتزمت أن توزع نصيبها من التركة على أحفادها الآخرين » .

فكيف استطاع – عند عودته من هذه الرحلة – أن يظل صامتا على سره ؟.. لقد أغلقت فمه – فى هذه المرة أيضا – غريزة أقوى من الالم واللوعة .. **غريزة الشعور بالسعادة ، وبالاشفاق من أن تتبدد هذه السعادة اذا هو أفضى بآلامه فأكسبها كيانا ووجودا !**

وألفى نفسه بعد خمس دقائق ، ينفذ الى داره ولم تكن هواجسه الدفينة قد فارقته ، ولكن أثرا واحدا لها لم يبد على محياه !.. وأسعده أن وجد فالنتين وكوليت معا ، فان

هذا كان يحول دون أى موقف عاطفى بينه وبين زوجته !

واستقبلته فالنتين هاتفة بمرح : « مساء الخير !.. أرجو أن لاتكون قد صادفتك مضايقات فى الطريق ! »

ـ لا ، لم تكن ثمة مضايقات .. انك لتعرفين أننى أحفظ معالم كل سنتيمتر من هذه الطرق ، حتى أننى لانطلق فيها وأنا مغمض العينين !

وكانت كوليت قد نهضت ، وتقدمت فقبلته ، كعادتها ..

وشعر بالقلق ـ الذى كان يراوده ـ يخمد .. كان كل شيء يجرى فى سهولة ويسر !.. وقبل أن ينقضى نصف ساعة ، كان الثلاثة يجلسون الى مائدة العشاء . فتحول جاستون يسأل كوليت : « وماذا فعلت فى هذا النهار ؟.. هل كتبت خطابا من عشرين صفحة لخطيبك ؟ » .. وانساب الحديث فى مجراه الطبيعى ، متنقلا من موضوع الى موضوع ، فى بساطته العادية .. فلما فرغوا من العشاء ، جلسوا حول المدفأة فى القاعة الكبرى .. وكانت النار قوية ، حتى أن دفئها كان يلفح وجوههم .. وكانت فالنتين تشغل المقعد الذى الى يسار المدفأة ، وجاستون المقعد الذى الى الجانب الايمن ، وكوليت بجواره . ولقد اعتاد الاب والابنة أن يتباريا فى لعب الشطرنج ، فيما مضى ، ولكن كوليت انصرفت ـ منذ خطبتها ـ الى قراءة القصص ، لان أندريه دى سافينياك كان يحدثها عنها فى رسائله .. وانصرف « جاستون » الى صحيفة زراعية .. أما فالنتين ، فعكفت على « التريكو » ، وهى تحصى الغرز بصوت خافت .

ومن طرف خفى ، تحول « جاستون » يتأمل الام والابنة طويلا ، ثم قال لنفسه : **« ليس ثمة أى تغير .. لو أننى انسقت لمزيد من الكبرياء والكرامة ، ولو أننى كنت أقل تأثرا بالحب ، لفقدتهما معا ! » .. ومع ذلك فقد بقى فى نفسه ألم ممض .. الالم من أن فالنتين ظلت ـ طيلة هذه الاعوام ـ تخفى عنه**

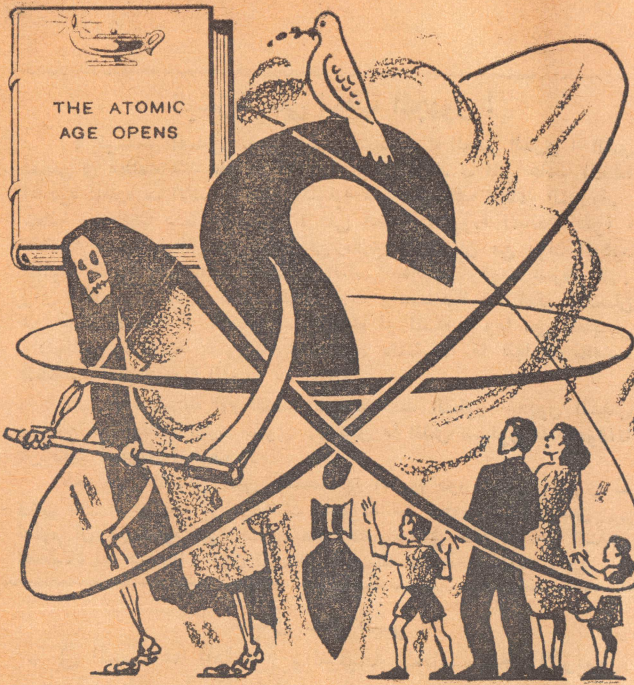
الامر الذى لم يكن يفارق خاطرها .. لماذا لم تحدثه قط عن ذلك ؟

. . . .

وشرد بصره خلال النافذة لحظة . ثم ارتد بصره الى فالنتين، فخيل اليه أنها تقول فى نفسها : « يالجاستون المسكين ! » .. كان يعرف ان فالنتين نفسها لم تكن تتالمك ـ فى لحظات ضعف عابرة ـ أن ترثى لسذاجته . وخيل اليه أنه لمح فى عينيها سخرية حنونا ، عابرة !.. **ألا كم من خواطر تنساب هكذا بين الكائنات .. خواطر أرق وأدق وأرفع من أن تصورها الكلمات ، ولكنها موجودة ، وواقعية ، وخطرة .. كتلك الكائنات الدقيقة التى لاتبصرها العين ، والتى تكمن تحت الاورام الضخمة الخطيرة ، فلا يحس الانسان بوجودها ، الا بالآلام التى تولدها !..** وما أكثر المرات التى عانى فيها « جاستون » آلاما من هذا القبيل .. آلاما موجعة كانت تجعله يتمنى الموت . أفليست علله الموهومة ـ على كثرتها ـ وليدة الحاجة الى أن يمحو ، بخيال روائى واسع النطاق ، ماضيا كثير الايلام ؟!

واذ بلغ من خواطره هذه النقطة ، رفعت « فالنتين » عينيها ، فساورها القلق اذ رأته مستغرقا فى شوارده . ولكنه ابتسم لها ، فأدركت انه لا يزال يحبها . وقالت لنفسها : **« ياله من شجاع طيب النفس !... لقد ظل عشرين عاما يطوى جوانحه على هذا السر الفظيع ، دون ما سؤال ، ودون ما لوم !.. وما من تصرف واحد من تصرفاته أيقظ فى نفس كوليت أتفه شك فى انتمائها اليه . ولقد تحمل ـ بنفس الشجاعة والكرم ـ أن يبدو فى نظرى مغفلا ، وماهو بمغفل !.. ما أشد الارتياح الذى ترتب على الاطمئنان الى أن العاصفة قد انقضت ! »**

وكانت كتل الوقود قد بدأت تخمد وتستحيل الى جمرات صغيرة فى المدفأة ، فخفت الحرارة .. وانتزع هـذا التغير « كوليت » من قراءتها ، فانكمشت فى مقعدها .. **وتطلعت الى أبويها ، فلم تدر لماذا كانا يبدوان لها سعيدين ، وانما راحت – بدورها – ترمقهما فى حنـان !..** وساءلت فالنتين نفسها : « مما أخاف ؟ » .. وفتحت شفتيها لتتكلم ، ولكنها أحست بنشوة تجعلها تؤثر الصمت ، فاكتفت بأن قالت : « لقد أفلتت غرزة ! » .. ثم عكفت على النسيج !



هكذا بدأ العصر الذري

الكتاب الذى اشترك فى تأليفه سبعة أخصائيين، ليكشفوا لك أسرار الذرة!

عرض وتلخيص : فوزى الشتوى

البشرية على ابواب المجهول !

• ليست القنابل الذرية أخطر مشكلات ((العصر الذرى)) الذى نعيش فى مطلعه منذ عام ١٩٤٥ .. بل ان هناك ـ الى جانب الطاقة المدمرة للذرة ـ آلاف المشكلات المترتبة على اكتشاف الطاقة النووية .. فماذا سيحدث مثلا اذا سيطرنا على الطاقة النووية البالغة القوة ، فأغنتنا بضعة أرطال من المادة عن ملايين الاطنان من مواد الوقود المألوفة التى يكسب منها ملايين الناس معاشهم وقوت أسرهم ؟.. وأى انقلاب سيحل بالعلوم الاقتصادية والصناعية اذا تمكن الانسان من صنع الذهب أو الحديد من الهواء أو الماء ؟ وما هى المقاييس والقوانين والتقاليد التى سوف تسود عالمنا اذا ما انهارت نظمنا الحاضرة أمام الطفرة الذرية ؟

.. ان البشرية الآن لتقف مترقبة ذلك التطور المجهول الذى سينتج عن انطلاق المارد الذرى .. ترى ما الذى سيكون عليه موقفنا من ذلك المجهول المخيف ؟!

تلك هى المشاكل التى جندت لها احدى دور النشر الكبرى ـ وهى دار ((بوكيت بوكس)) ـ مجموعة من محرريها العلميين .. لعلهم أن يتوصلوا الى حل بعض معمياتها فى هذا الكتاب الذى لخصناه لك مبسطا ، دون ان يخل تبسيطه بالامانة العلمية .

سباق نحو الشر !

• فى الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والاربعين من سادس أيام اغسطس ١٩٤٥ ، فوجىء العالم باذاعة اخطر سر عسكرى فى الحرب العالمية الثانية .. ففى صوت رهيب اعلن هارى ترومان ـ رئيس جمهورية الولايات المتحدة الامريكية وقتئذ ـ نبأ اسقاط قنبلة جبارة على مدينة (هيروشيما) ـ احدى القواعد الهامة للجيش اليابانى ـ وقدرت قوة القنبلة باكثر من ٢٠ الف طن من اقوى المواد المتفجرة ، اما الدمار الذى احدثته فزاد على فتك ألفى قنبلة من أضخم واخطر القنابل التى عرفها الانسان فى تاريخ حروبه ، تحملها حوالى الفى طائرة من قاذفات القنابل الثقيلة

كانت ((قنبلة ذرية)) .. تمثلت فيها القوة الاساسية فى

الكون ، تلك القوة التى تستمد منها الشمس جبروتها ، وهى القوة التى آمن العلماء منذ عام ١٩٣٩ بأن من الممكن اطلاقها ، ولقبوها بالطاقة الذرية ، ولكن واحدا منهم لم يعرف وسيلة عملية للظفر بها ! ..

وكانت الانباء قد تطايرت منذ عام ١٩٤٢ — والحرب العالمية على أشدها — بان الالمانيين يعملون ليل نهار لاضافة هذه القنابل الجبارة الى ادوات القتال فشن الحلفاء معركة مستترة خلف أنابيب الاختبار ، وفى معامل العلوم الطبيعية .

ولاسباب مالية وصناعية وعسكرية ، حشد الغرب كل جهوده فى امريكا ، وتحت اشراف جيشها . وسار السباق حارا ، مضنيا ، لا يأبه لاموال تنفق ، ولا لجهود تبذل .. واشتغل نحو ١٢٥ الف فرد فى سرية تامة ، فلم يكن ليسمح لواحد منهم بالاطلاع على اعمال الآخر ، بل ان كثيرين منهم كانوا يؤدون خدمات واعمال لايعرفون قيمتها ولا الهدف منها

على ان القلة الضئيلة من العقول المنظمة الواعية — التى سمح لها بمعرفة الغاية والهدف — عرفت كيف تتلقى نثار المعلومات من كل حدب وصوب ، فتنسقها وترتبها لتنسجم مع سواها ، حتى تلتقى كل المعلومات فى الهدف المنشود فى أقصى فترة . فكان عملهم من ابرع الاعمال ، بل كان مثلا فريدا فى تاريخ تنسيق الجهود العلمية ، وحشدها للسير فى طريق واحد .

وكان القول بان الانسان سيستطيع اطلاق هذه الطاقة الجبارة من عقالها ، يؤكد بأن الانسان مقبل على عهد جديد ، وفهم حديث للقوى الطبيعية التى لن يقتصر أمرها على الحرب والدمار ،وانما سيمتد ايضا الى المستقبل ، والى أزمان السلم، فان هذه القوى يمكن أن تحتل مكانة ممتازة بدلا من الطاقات الناشئة عن استغلال انواع الوقود من فحم وزيت

أبحاث وتبادل للمعلومات بين العلماء

• **على** أن هذا كله كان حلما .. كان مغامرة غير معروفة المصير ، ومن الحقيقى أن سلسلة الاكتشافات المؤدية الى معرفة سر الطاقة الذرية بدأت فى أوائل القرن العشرين ،عندما عرف النشاط الاشعاعى ، وان كثيرا من الدول كانت تعمل فى ميدانه فى عام ١٩٣٩ ــ لا سيما امريكا وبريطانيا والمانيا وفرنسا وايطاليا ــ ولكن هذه الدراسات كانت تسير فى تؤدة ، وكان الباحثون يتبادلون فيها المعلومات على انها أمل بعيد التحقيق، ويحتاج الى كثير من البحث والدراسة .. ولكن قيام الحرب أوقف هذا التبادل العلمى ، اذ وضعت الابحاث الذرية تحت سلطان الرقابة العسكرية

وكان اكثر العلماء تفاؤلا ، هم البريطانيون ، فقد استمروا فى ابحاثهم ــ فى الجامعات ــ برغم الحرب واعبائها .. **وفى صيف عام ١٩٤١ ، سجلت احدى اللجان ــ برياسة العالم سير ((جورج تومسون)) ــ انه من الممكن صنع القنابل الذرية قبل نهاية الحرب . حتى اذا تم توحيد الجهود العلمية فى هذا الميدان ــ بين امريكا وبريطانيا فى أكتوبر ١٩٤١ ــ سافر فريق من الخبراء البريطانيين الى امريكا لمواصلة دراساتهم مع زملائهم من العلماء الذين تجمعوا من شتى بلاد العالم**

وبمرور الزمن واكتشاف المعلومات الجديدة ، زادت الامال فى الظفر بسر الطاقة الذرية ، وبدأت المعامل والمصانع الضخمة تشيد على نطاق واسع ،حتى تستوعب كل التجارب.

مولد العصر الذرى

• **وعلى** هذا المنوال انطلق السباق ، حتى كشفت الطبيعة عن سرها الدفين ، الذى حرصت على تكتمه رأفة بالبشرية ، لأن خطره وضراوته يثيران الخشوع والرهبة فى ضمير كل

انسان ، وتدفعه الى الابتهال الى ربه ان يجعله عامل سلام ورفاهية لا عنصر دمار وتنكيل بالبشرية كما حدث فى هيروشيما التى تحول ثلثاها الى انقاض وقتل آلاف من اهلها.

ولقد اختلف الناس — فى كل بلاد العالم — حيال القنابل الذرية وخطرها ، وأجمع الرأى العام على انها ستؤدى الى نتيجة من اثنتين : اما الى القضاء على الحروب ، واما الى القضاء على المدنية . فالقنبلة الذرية سلاح المفاجأة البتار ، وليس له من وسائل دفاع معروفة الا ان تسبق عدوك وتهاجمه به ، فتدمر اكبر جانب من بلاده . **وفى وسع أية دولة أن تستعد فى الخفاء ، ثم توجه ضرباتها المتلاحقة الى عدوها فجأة ، فتقضى عليه قبل أن يفيق .. بل ان من يفلت من الموت ، يتعرض للاصابة بالاشعاعات الذرية التى تنزل به الامراض ، أو تنزل بنسله التشوه فى الخلقة والشذوذ فى العقلية** . وقال احد الكتاب ان هذه الحالة لن تدع للناس ملجأ أمينا ، وان سياسة التفاهم والتعاون والاتحاد هى الامل الوحيد لحياة الرفاهية فى العصر الذرى الجديد ..

ولكن هذا يتطلب ان نغير كثيرا من اساليب تفكيرنا ، وان يكون هذا التغيير بسرعة لم نألفها فى كل تاريخ البشرية. اذ أن امامنا مسئوليات جسيمة يجب ان نعالجها فى أقصر وقت .

البحث عن حقيقة الذرة

• ولعلنا فى حاجة — ازاء هذا الانقلاب الشامل — الى ان نعرف صفات هذا النوع الجديد من الطاقة .. **وأول الصفات المميزة ، هو ان هذه الطاقة تتولد من داخل الذرة — أى من نواتها — فى حين أن أنواع الطاقة التى عرفناها من قبل ،كانت تتولد من غشاء الذرة** .

وقد بدأ التقدم العلمى فى هذا السبيل منذ خمسين سنة ،

عندما اكتشفت حالة الاشعاع فى المادة . وظهر من تفجر عنصر « الراديوم » واشعاعاته انها ظاهرة لايمكن أن تعزى الى قوى عادية مألوفة ، بل ترجع الى وجود مجموعات من المادة والطاقة فى مراكز الذرات . وسار العلم حتى استطاع — خلال ثلاثين سنة — ان يعرف ان الذرة ليست كتلة صماء — كما عرفها سير اسحاق نيوتن — بل هى عالم لا يقل فى تعقيده عن العالم الشمسى .. وان الذرة تتألف فى مركزها من نواة تدور حولها مجموعة من الجسيمات ذات الشحنة الكهربائية السالبة ، المعروفة باسم « **الكترون** »

ومنذ تلك اللحظة والعلم يحاول التغلغل فى نواة الذرة ، الى ان كانت سنة ١٩٣٩ ، حين تمكن العلماء الالمان « اوتو هان » و« ليز مينتز » و « فريشى » و « ستراسمان » من خلق النواة . وفى هذه التجربة تحول جزء من مادتها الى طاقة ، مما حقق نظرية العالم الالمانى « اينشتاين » ، القائلة بانه من الممكن تحويل المادة الى طاقة ، والطاقة الى مادة . وبتحقيق هذه النظرية ، والتمكن من خلق الذرة — مع قيام الحرب العالمية الثانية — ظهر شبح مخيف يؤثر على الروح المعنوية عند الناس ، كما فرضت السرية على البحوث الذرية ، وفرض حظر نشر انبائها حتى لاتتسرب للعدو اية معلومات جديدة عنها

على ان هذا الحظر لم يمنع الناس من التساؤل عن سر تلك الطاقة الضخمة . **فما هى الذرة ؟ .. وما هى الطاقة ؟ .. ولماذا كانت الذرة مصدر كل هذه الطاقة الجبارة ؟**

والاجابة عن هذه الاسئلة — وغيرها من المسائل التى يسيل لها لعاب الناس — يمكن ان تصاغ فى صورة مبسطة تقربها الى الاذهان ، فيتسنى للمرء العادى ان يعرف شيئا عن الاكتشاف الذى ينذر باحداث انقلاب شامل

الطاقة لا تفنى وان تغير شكلها

• **ان** الطاقة التى دمرت هيروشيما كانت مركزة بدرجة لم ير لها الانسان مثيلا على الارض . ولكنها لم تكن طاقة نقية ، مجردة .. بل ان انهيار المنازل نشأ بفعل طاقة ضغط الهواء الجبارة ، كما أن احتراق المبانى واندلاع اللهب فى كل ما كان قريبا من مركز الانفجار ، جاء نتيجة لارتفاع الحرارة آلاف الدرجات .. وقد كانت كل هذه العوامل خامدة ساكنة الى أن تم تفتت المادة فى قنبلة صغيرة ، فأطلقت طاقة .. وهذه الطاقة أطلقت بدورها طاقة أخرى

ومن الصعب ان نفصل بين الطاقة والمادة ، فهما مرتبطتان سويا ، كما نشاهدهما على الارض . ولعل روح المشكلة ، هى ان نفهم العلاقة بين الاثنتين . فمن المستحيل ان تعرف اى الاثنتين هى الطاقة ، وايهما هى المادة وان كان كل منا يميز الواحدة عن الاخرى بطريقة عامة . فلسنا ندرى من أى شىء تتالف المادة ، وان كنا نعرف انها تشغل حيزا من الفراغ ، وانها تتجاذب مع غيرها من المواد بقوة نسميها الجاذبية ، وانها تؤثر على حواسنا بطريقة ما ، فنستطيع رؤيتها ، والاحساس بها ، وتذوقها . فهى روح الاشياء . فى حين ان الطاقة هى روح الحركة . **فكل جسم يتحرك ، لا بد أن يحتوى على طاقة ، وهو يتخلى عنها عندما يتوقف .. وكل شىء ساكن يحتاج الى طاقة كى يتحرك !**

وعندما تصدمك كرة ، فانما المادة هى التى تصدمك ، ولكن الطاقة هى التى تؤذى . ومن المستحيل أن تقذف طاقة مجردة ، لان الطاقة يجب أن تحملها دائما مادة . ولعل الظواهر الوحيدة التى يمكن استثناؤها من هذه القاعدة ، ذبذبات الضوء والحرارة وغيرها من الاشعة التى تصل الينا من الشمس والنجوم بعد ان تعبر الفراغ . وحتى هذا الفراغ يتعذر علينا ان نتخيل

حدوث الذبذبات فيه ، دون أن نعرف وسيلة معينة لنقل هذه الذبذبات . وهذا هو السبب الوحيد الذى جعل العلماء يفترضون وجود ما يسمى : ((**الاثير**))

ومن المعروف لنا ان المادة تتحول من شكل الى آخر . فمواد التربة والجو ــ مثلا ــ تتحول الى نباتات فى الحقول. ومن الجائز ان يأكلها الماعز فتتحول الى صوف ولحم ، ثم تتحول الى منسوجات وغذاء يأكله الانسان . **وبرغم كل هذه التحولات ، فان المادة تبقى كما هى ، وان تغيرت واختلفت اشكالها .. حتى النار لا تستطيع افناء المادة ، فان احتراق قطعة من الخشب او الشمع ، يحول مادتها الى رماد ومواد غازية كثانى اكسيد الكربون والماء . ولو جمعت كل هذه المخلفات المحترقة ، لوجدت وزنها مساويا لوزن المادة الاصلية . ومن الجائز ان تختفى المادة فلا تراها بعينيك ، ولكنها تظل ــ فى الواقع ــ موجودة بنفس مقاديرها السابقة، وان اختلف شكلها**

وما يقال عن المادة ، ينطبق ايضا على الطاقة ، فهى لاتفنى وان تغيرت من شكل الى آخر ، كما يحدث عندما تستغل الحرارة الناشئة من احتراق قطعة فحم فى تشغيل مولد كهربائى يدير مصنعا او يضىء مكانا . فان هذه الطاقة تؤدى عملها ثم تتسرب وتنطلق فى الجو . ومن المعروف ان الطاقة معناها الحركة ، فانت تحتاج الى طاقة لتقذف كرة ، او تدير محرك سيارة ، وهذه بدورها تحتاج الى طاقة لتسير فى طريقها . فان اردت ايقاف السيارة احتجت الى الطاقة ايضا ، وهى هنا تتمثل فى « الفرامل » التى ترتفع درجة حرارتها من جراء الاحتكاك الذى يؤدى الى تخفيض سرعة السيارة . وفى هذه الحالة تتحول الطاقة الى مانسميه بالحرارة ، وهى ــ فى الواقع ــ حركة . ومن الصحيح ان «الفرامل» ذاتها لاتتحرك ، ولكن جزيئياتها تتعرض لاضطراب عنيف يجعلها تتذبذب فى شدة تؤثر على اعصابك اذا قربت يدك منها ، فتحسها كحرارة

وهى فى الواقع ذبذبة حركة جزيئيات المادة

الطاقة المختزنة فى الماء والفحم والبترول

• **والضغط** من انواع الطاقة كذلك . ويمكنك مشاهدته فى الغازات التى تختلف عن المواد الصلبة فى ان جزيئياتها غير مرتبطة بعضها ببعض ، فهى لاتبدو فى شكل صلب . والغازات فى حركة دائمة ، ويسهل فصل بعضها عن بعض . واذا ماسخنت غازا ، فان حركة جزيئيات هذا الغاز تزداد سرعة وعنفا ، ويزداد اصطدامها بعضها ببعض ، كما تصطدم ايضا بجدار الوعاء الذى تشغله . وهذه الصدمات هى التى تحدث الضغط . فاذا كان الغاز المسخن فى وعاء اسطوانى به اسطوانة اخرى (بستون) ، فان الغاز يدفع الاسطوانة الى الخارج . وهو ما يحدث فى محرك السيارات لادارة عجلاتها

ويمكن تخزين الطاقة بعدة وسائل . ومن امثلتها ذلك الطفل الذى يعبث بنبلته .. تعال نراقب حركاته ، فنجده يضع حصاة فى وسط قطعة المطاط ، ثم يجذب المطاط ، ويصوب ، فاذا ما أفلتت يده المطاط اندفعت الحصاة الى مداها .. والتفسير بسيط فى الواقع : فعندما يجذب الطفل المطاط ، يختزن فيه طاقة تكفى لقذف الحصاة .

ومن انواع الطاقة المختزنة ، مايتمثل فى البحيرات الجبلية . فهى فى أصلها طاقة مستمدة من الشمس . لأن مياه البحر تمتص الطاقة الشمسية فتتحول ـ بفضلها ـ الى بخار يسبح فى الجو ، ثم يسقط على الجبال مكونا البحيرات . ومن هنا تسنى اسقاط الماء على هيئة شلالات ، لادارة المولدات الكهربائية . فالطاقة هنا مستمدة من الطاقة المختزنة فى الماء ، وتسمى : « الطاقة الكامنة » . وأى شىء يرتفع عن سطح البحر ، ويمكن اسقاطه الى الأرض ، يسهل تحويله الى طاقة حركة فى حالة سقوطه

على ان الطاقة المختزنة ليست قاصرة على المرتفعات ، بل ان فى اعماق الأرض طاقة أهم مما فى المرتفعات ، ومن ابرز مكامنها مواد الفحم والبترول . فان طاقتهما مستمدة ايضا من الشمس منذ عهود سابقة للتاريخ . اذ كانت الشمس - اذ ذاك - تغذى النباتات ، وتعطيها القدرة على النمو . ومن المعروف أن النباتات الخضراء تستطيع أداء أعمال لا يزال الانسان عاجزا عن ادائها . ومن أمثلتها الاستعانة بالطاقة الشمسية وغاز ثانى اكسيد الكربون - من الجو - وبعض العناصر من التربة ، فان النبات يجرى بهذه المواد تفاعلا كيميائيا ، ويصنع منها موادا شديدة التعقيد كالنشاء والزيت والروائح العطرية والألوان وغيرها من مواد بناء النبات ونموه . فاذا اكل الحيوان هذا النبات ، كانت الطاقة التى اختزنها النبات سببا فى حياة الحيوان ونشاطه

ويختزن النبات هذه الطاقة الشمسية بواسطة المادة الخضراء الموجودة فى أوراقه ، والمعروفة باسم « الكلوروفيل » . وعلى حسابها تعيش الكائنات الحيوانية ، بما فيها الانسان . فان كل هذه الكائنات لم تعرف بعد كيف تستغل الطاقة الشمسية بطريقة مباشرة ، بل هى تقتصر على استمدادها من النبات!.. فالنبات هو الذى يغذينا بالطاقة التى اختزن لنا منها قدرا كبيرا ، كما نجد فى مناجم الفحم وآبار البترول . فان هذه المناجم ليست الا بعض الغابات الكثيفة التى نمت فى تلك الحقب التاريخية ، ثم تعرضت لتقلبات الارض ، فردمت تحت ضغط هائل حولها الى فحم لايزال يحتفظ بالطاقة الشمسية. وكذلك البترول والزيوت المعدنية ليست الا بقايا الحيوانات والاحياء القديمة التى تحللت ، وكونت ما نعثر عليه الآن من آبار لها فضل كبير فى نشوء الحضارة الحالية وصناعاتها

ومن ميزات الطاقة المختزنة فى الفحم والبترول ، سهولة اطلاقها فى أفران المساكن او المصانع ، فى أى مكان . ومنها تنطلق الطاقة بطريقة كيميائية حين تتحد الذرات بعضها ببعض ، لتكون جزيئات جديدة لاشكال جديدة للمادة . ومن أمثلة هذا الاتحاد تكوين جزيىء ماء من ذرتى ايدروجين وذرة اكسوجين . **ومن المعروف ان ذرة اى عنصر تتألف من نواة ، وعلى بعد منها تدور حولها الجسيمات ذات الشحنة الكهربائية السالبة ــ المعروفة باسم « الكترون » ــ وهى تلك الجسيمات التى تنشأ الكهرباء بفعل تدفقها فى الاسلاك المعدنية**

وفى حالة التفاعل الكيميائى ، تنشأ الطاقة الاحتراقية من اعادة تنظيم هذه الجسيمات فى المدار الخارجى للذرات عند اتحادها لتكوين الجزيئيات ، اذ تنسجم « الالكترونات » فى الذرات الثلاث ، وتدور كلها فى مدار حول نوايات الذرات . وفى هذا الانسجام ، تطلق هذه الجسيمات بعض نشاطها فنستغله فى حضارتنا البشرية القائمة الان . فالتفاعل الكيمياوى فى الواقع ليس سوى تفاعل ذرى يتناول ترتيب السطح الخارجى للمادة ، ولكنه لاينفذ الى داخل نواة الذرة . . وهذا ما يحدث فى القنابل الذرية . والفرق بين التفاعل الكيمياوى على سطح الذرة ، وبين التفاعل النووى فى داخلها ، ان الاول بطىء ضعيف ، بينما الثانى ضخم يتدفق بسرعة

ما هى نواة الذرة ؟

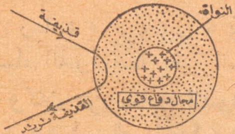
• **وتعال** بنا نتعمق فى دراسة هذه النواة التى توشك ان تقلب نظام العالم ، والتى صار من الخطأ البين ان نجهل امرها ، بينما هى تتحكم فى مصائرنا ومصير البشرية كلها . ومن العبث أن تحاول رؤية الذرة ، فهى أصغر من أن تراها بأكبر مجهر ،

وان كان العلماء قد رأوا آثارها بوسائل لامجال لذكرها هنا.

والذرة تشبه فى نظامها نظام الكون الشمسى . فكما ان الشمس تتوسط المجموعة التى تتألف من الأرض والقمر والكواكب الأخرى ، نجد ان النواة تتوسط الذرة ، وتحيط بها مجموعة من الالكترونات . وتزيد نسبة الفراغ فى الذرة على نسبة الفراغ فى المجموعة الشمسية ، فان حجم النواة يقدر بنحو واحد على مليون من بليون من حجم الذرة كلها . اما وزن هذه النواة الدقيقة فهو وزن الذرة كلها تقريبا

ومن العسير أن تعرف على وجه التحقيق ما هى النواة ، فهى ليست مصنوعة من شىء نستطيع القول بانه مادة ، وان كان من الواضح ان المادة ذاتها تتالف من ذرات أكثر حجمها فراغ ، ولكن كتلتها أو وزنها الكلى يتركز فى النواة التى تعد ايضا مركز نشاط دائم . وقد عرفنا هذه الحقيقة منذ اكتشف « كورى » وزوجته عنصر الراديوم ، ووجداه يحتفظ لنفسه بدرجة حرارة تزيد على درجة الحرارة العادية للغرفة التى يوضع فيها ، فالحرارة كما قلنا تعنى الحركة . وهذا العنصر يظل مشعا وحارا عدة قرون . وهو يتحول ببطء الى رصاص . ولو جمعت الطاقة التى يشعها فى حياته لكانت كميتها ضعف طاقة قطعة فحم مساوية لها فى الكتلة ٢٥٠ الف مرة !

وتبعا لهذه الملاحظات ، كان من الميسور أن نعرف أن نواة الذرة تتألف من مادة وطاقة . وقد جار العلماء فى محاولة معرفة سر المواد المشعة أو تغيير درجة اشعاعها . وظلوا يتخبطون فى حيرتهم حتى وفقوا منذ ٣٠ سنة الى ابتكار جهاز اسمه « السيكلوترون » ، وبه استطاعوا تفتيت النواة بقذفها بجنيمات أصغر منها ، وتنطلق بسرعة كسرعة الضوء (١٩٨ الف ميل فى الثانية) . وبهذا الجهاز استطاعوا ان يفصلوا جزءا من نواة الذرة ، مما أتاح اجراء تجارب أخرى لمعرفة



مزيد عن طاقة هذه النواة ومن أى شىء تتكون .

ومن العلماء الذين ساهموا بنصيب وافر فى دراسة هيكل الذرة ونواتها ، العالم النيوزيلندى لورد «ارنست رذرفورد». فقد كان يطلق اشعة «ألفا» ــ الناتجة من اشعاع الراديوم ــ على رقيقة معدنية . فكان بعض هذه الاشعة يخترق الرقيقة ، وبعضها يرتد بزاوية انحراف ، وبعضها يرتد فى نفس الطريق الذى قدم منه . ودرس «رذرفورد »وزملاؤه حالات انطلاق هذه القذائف وارتدادها ، فعرف منها ان نوايات الذرات كثيفة للغاية ، وانها محاطة بفراغ كبير . ولو ان نواة الذرة كبرت الى حجم البندقة ، لكان مدار الالكترونات حولها على بعد ميل .

بناء الذرة

• **وكان** « رذرفورد » هو ايضا أول من حقق حلم الاقدمين بتحويل عنصر الى آخر ، اذ حول غاز « الأزوت » الى غاز « الاكسوجين » . فقد كان يستعين فى تجاربه لدراسة نواة الذرة باشعاعات « الراديوم » ومنها يطلق جسيمات « الفا » ــ المؤلفة من جسيمتين موجبتى الشحنة الكهربائية وجسيمتين محايدتى الشحنة ــ على ذرة غاز « الازوت » المؤلفة من سبع جسيمات موجبة الشحنة الكهربائية وسبع اخرى محايدة . فان القذيفة كانت تصدم ذرة « الازوت » ، وتتحد معها بعد أن تطلق احدى جسيماتها ذات الشحنة الكهربائية الموجبة التى عرفت فيما بعد باسم « بروتون » . وكان معنى اتحاد جسيمتين بعد اطلاق واحدة أن يصبح عدد « البروتونات » فى الذرة ثمانية وليس سبعة ، مما يحول الازوت الى اكسوجين

لان زيادة « بروتون » فى النواة ، تحتم زيادة « الكترون » فى غشاء الذرة مما يغير الخواص الكيماوية للعنصر

وكان من نتائج الدراسات المتواصلة ان كشفت الذرة عن كثير من اسرار بنائها ، فصار من المعروف ان النواة تتألف من جسيمات بعضها موجب الشحنة الكهربائية ويسمى «بروتون»، وبعضها محايد الشحنة الكهربائية ويسمى « نيوترون » .. وحول النواة ، تدور جسيمات سالبة الشحنة الكهربائية ، تسمى « الكترون » ، وعددها يساوى عدد « البروتونات » . وظهر ايضا ان العنصر الكيمياوى الواحد قد يتألف من عدة نظائر ، أو أنواع تختلف فى وزنها الذرى وان اتفقت فى خواصها الكيمياوية . وقد اطلق على هذه الانواع اسم « نظائر » او « توائم » . فلغاز الاكسوجين مثلا ثلاثة نظائر . الوزن الذرى لأحدها ١٦ ، وللثانى ١٧ ، وللثالث ١٨ . وكلها موجودة فى الطبيعة ، وان كان أكثرها هو الأول ، اذ يؤلف ٧٦ر٩٩ فى المئة من الاكسوجين الطبيعى . ويوجد ايضا من غاز الايدروجين — وهو أخف العناصر الذرية — ثلاثة نظائر أوزانها الذرية ١ و٢ و٣ . وتختلف النظائر بعضها عن بعض فى بنية النواة ، الكهربائية . وهذه الزيادة لا تؤثر على عدد الالكترونات — او الجسيمات السالبة الشحنة الكهربائية — فى غلاف الذرة ، لأن عملها هو موازنة كهربائية النواة

صناعة الذهب من الزئبق

• **ولهذه** الالكترونات أهميتها من الناحية الكيمياوية ، لان ترتيبها هو الذى يقرر الخواص الكيمياوية للعنصر . ولهذا كانت خواص نظائر العنصر الواحد متشابهة ، لان ترتيب الكتروناتها واحد . اما اذا زادت كهربائية النواة باضافة « بروتون » او جسيمة موجبة الشحنة ، فانه يتحتم أن تظفر بما يعادلها فى غلاف الذرة ، ومن ثم يزيد عدد الالكترونات

واحدا مما يغير خواص العنصر . وهذا ما حدث فى تجربة « رذرفورد » على الأزوت الذى اكتسبت نواته « بروتون » ثم « الكترون » فتحول الى اكسوجين . **وبطريقة مماثلة امكن تحويل الزئبق الى ذهب غير ثابت ، اذ تحلل بعد أيام قليلة الى مواد أخرى**

وليس معنى هذا ان النيوترونات — او الجسيمات المحايدة الشحنة الكهربائية — عديمة القيمة فان العالمين الالمانيين « اوتوهان » و « ليز ميتنر » استعانا بها على شطر ذرة « اليورانيوم » ، فى عام ١٩٣٩ . والنتائج المالوفة لاضافة جسيمة محايدة الى عنصر ما ، هى انها تجعله غير مستقر فتشطره او تجعله مشعا ، كما هى الحال فى النظائر التى تستخدم فى علاج بعض الامراض **(كان عدم استقرار الايدروجين ٢و٣ من أهم العوامل فى انتاج القنابل الالتحامية التى تعرف باسم الهيدروجينية)**

والنظائر المشعة أهمية كبيرة فى علاج الامراض ، ودراسة كثير من الظواهر فى الحيوان ، والنبات ، والصناعة ، والزراعة . وترجع هذه الاهمية الى سهولة صنع هذه المواد المشعة ، والى أن بعضها لا يستمر فى اشعاعه مدة طويلة تجعله خطرا كالراديوم الذى يبلغ نصف حياته ١٦٩٠ سنة . وعبارة «نصف الحياة» هى الاصطلاح الذى يستخدمه الخبراء فى الحديث عن حياة المواد المشعة . فالراديوم — مثلا — فى حالة انحلال ذرى دائم ، لأن الاشعاع الذى يخرج منه انما هو مواد تخرج من بنيته ، ولو انك تتبعت كميته بمرور الزمن ، فستجدها تهبط الى نصفها بعد ١٦٩٠ سنة . والنصف الباقى يهبط الى النصف (أى الرابع) بعد ١٦٩٠ سنة أخرى !

الذرة تفتح السبيل للقضاء على السرطان

• **وقد** اكتشف ان المواد المشعة شديدة الفتك بالخلايا

السرطانية ، ولكنها أقل تأثيرا على الخلايا العادية ، ولهـذا استخدم الراديوم فى علاج السرطان ، ولكن بقيود تحدد بقاءه فى جسم المريض لمدة محدودة ، لأن بقاءه فى الجسم معناه اتلاف انسجته السليمة ، ولهذا لا يسمح لغير الاخصائيين البارعين باستخدامه . أما النظائر المشعة كالفسفور - مثلا - فأخف خطرا ، لأن نصف حياته هو ١٤ يوما فقط ، مما يجعله من أفضل المواد المشعة لعلاج سرطان الدم المعروف باسم « لوكيميا » . ويمكن حقنه فى جسم المريض ، فيترسب فى العظام ليفتك بالخلايا السرطانية وهو فى قوته ، ثم ينحل ، فيصير عديم الاثر ، بعكس « الراديوم » الذى يظل فتاكا طول حياة المريض

ويمكن استخدام المواد المشعة - كذلك - كدليل او مرشد يبين مسار المواد الكيمياوية فى الاحياء من نبات وحيوان ، **وبالطريقة نفسها يمكن تعقب مادة مشعة كاليود الذى يوثر على نشاط الانسان ونمو الاطفال ، فتستطيع أن تحقن الجسم بكمياته ثم تراقب سيره الى الغدة الدرقية فى الرقبة ، وطريقة تحوله الى هرمون يؤدى نقصه فى الجسم الى انواع من الضعف العقلى والجسمانى ووقف نمو الصغار .**

ولقد عرفت هذه المعلومات وغيرها بالتدريج ، وبعددراسات مستفيضة ، وكان الهدف الاسمى هو الوصول الى سر الطاقة الذرية ، ومعرفةالوسائل الكفيلة باستغلالها . وقد حاول العلماء - فى أول الامر - شطر الذرة بقذفها بالجسيمات الموجبة الشحنة الكهربائية (البروتون) فكانوا يحتاجون الى زيادة سرعتها حتى تقوى على اختراق غلاف الذرة السالب الشحنة الكهربائية . ثم لجأوا الى استخدام الجسيمات المحايدة الشحنة (نيوترون) ولكنها كانت سريعة للغاية ، فتخترق الذرة ، وتسير فى طريقها دون ان تستقر فى النواة ، وتجعلها غير مستقرة . **وجاء العالم الايطالى « انريكو فيرمى » ، فلجأ**

الى حيلة طريفة استخدم فيها المحايدات بعد ان مررها فى مواد تضعف سرعتها ، وتجعلها تستقر فى النواة بغير عناء ومشقة. وكانت نتائج تجاربه مشجعة ، فاقت كل ما سبقها من تجارب، واعتبرت خطوة هامة فى تقدم العلوم الذرية ، ووسيلة سهلة للوصول الى حصن النواة

ولعل هذا الكشف هو الخطوة التمهيـــدية التى أتاحت الوصول الى سر الطاقة النووية . فبعد سنوات من كشف فيرمى للمحايدة البطيئة ــ فى عام ١٩٣٩ ــ قام العالم الالمانى « أوتوهان » ومســاعدته الدكتورة « ليز ميتنر » بتــكرار تجربة « فيرمى » بعد أن اعدا اجهزة دقيقة يستطيعان بهـــا معرفة المواد التى تتخلف من التجربة ، وما يطرأ عليهـــا من تغير كيمياوى ، بعد ان تستقر فيها الجسيمـــات المحايدات البطيئة . ولكى تكون التجربة مضمونة النتائج فانهما اختارا أثقل العناصر الذرية المعروفـــة اذ ذاك ــ وهو اليورانيوم ــ (رقمه الذرى ٩٢ وله ثلاثة نظائر اوزانها الذرية ٢٣٤ و٢٣٥ و ٢٣٨) ــ ففى مثل هذه الذرة الكبيرة تظهر النتائج بوضوح

وعمد العالم ومساعدته الى قذف العنصر الثقيل بالمحايدات البطيئة فاستقرت فى نواته ، ولكن النتيجة اذهلتهمـــا ، فان التجربة اسفرت عن طاقة بلغت ٢٠٠ مليون اليكترون فولت ، فى حين أن أقصى طاقة سجلها العلماء فى التجارب السابقة ، لم تتجاوز ٣٢ مليون اليكترون فولت . وزادت حيرتهماعندما فحصا المواد الناتجـــة ، اذ وجدا بينهـــا عنصر « الباريوم » (وزنه الذرى ١٣٧) . ولم يصدق العالمان عيونهما ، واعتقدا ان ثمة خطأ ، فكررا التجربة .. وتكررت النتيجة . ثم نفيت الدكتورة « ليز ميتنر » من المانيا ، فاســـتقلت القطار الى (ستوكهولم) . ولم تستطع برغم شيخوختها ــ اذ كانت فى الستين من عمرها ــ ورغم المستقبل المظلم امامها ، ان تزيل

شبح « الباريوم » من رأسها ، بل ظلت تفكر فى سر ظهوره فى التجربة

مفتاح الطاقة الذرية



• **واخيرا** أمسكت الدكتورة ورقة وقلما وبدات تجرى مجموعة من العمليات الحسابية عن تحويل المادة الى طاقة ، وعن القوة الضامة لجسيمات عنصر كاليورانيوم . ودلها الحساب على تفسير مقبول . فان الطاقة الضخمة التى نتجت جائزة الحدوث اذ انشطر عنصر اليورانيوم الى جزئين ، والف مادتين جديدتين ، فاذا كان احدهما هو « الباريوم » ، فان الثانى يكون « الكريبتون » (ووزنه الذرى ٣٨)

وعندما وصلت الى (ستوكهولم) ، كان أول ما عملته هو أن كتبت تقريرا علميا عن التجربة ، وأرسلته الى المجلات العلمية . وكان العمل الثانى ارسال برقية الى العالم الدانيمركى « فريتش » فى (كوبنهاجن) ، اخطرته فيها بالتجربة وتفسيرها لظواهرها . وذهل الدكتور « فريتش » لهذا الكشف العلمى الذى يعد اكبر اكتشافات القرن العشرين ، فاتصل بالعالم الدانيمركى « نيلز بوهر » — وكان فى زيارة لامريكا — فبادر هذا باجراء تحقيق عاجل لهذه التجربة البارعة فى معامل جامعة كولومبيا . ولدهشته البالغة تحققت التجربة كما ثبتت صحة التفسير الذى اكتشفته الدكتورة ميتنر !

ولم تمض أيام ، حتى كانت المعامل الذرية — فى كل امريكا — منهمكة فى تكرار التجربة ، واثبات صحة التفسير . **وظهر للعلماء فى وضوح انهم وصلوا الى احد المفاتيح الهامة لمعرفة سر الطاقة النووية واطلاقها . ومن الصحيح أنهم رأوا المارد**

يهب .. ولكنها كانت هبة محدودة لم تتجاوز الانشطار فى ذرة واحدة ، اعطت طاقة لم يسبق للبشرية أن عرفت لها مثيلا !.. كانوا يعرفون أن عنصر اليورانيوم النقى يتألف من ثلاثة نظائر، فأى هــذه النظائر هو الذى انشطر ، وأيها هو الذى يخمــد الانشطار ، ويمنع الطاقة الكونية من الانطلاق ؟

كانوا يعرفون ان (اليورانيوم ٢٣٨) يؤلف الجانب الاكبر من العنصر النقى ، ففى كل ١٤٠ رطـلا من اليورانيوم تجد رطلا واحدا من النظير ٢٣٥ . وفى كل ١٧ ألف رطل من اليورانيوم تجد رطلا واحدا من النظير ٢٣٤ . وكان من اعقـد الأمور وأشقها فصل أى هذه النظائر عن توأميه ، لأن فوارقها ذرية لا تتأثر بالعمليات الكيمياوية ، بل تحتاج الى عمليـات ذرية دقيقة وبالغة التعقيد ، وتحتاج الى وقت طويل . ولم يكن فى امريكا كلها من فكر تفكيرا عمليا فى فصل أى هذه النظائر بعضها عن بعض .

ولجأ العلماء الى النظريات والحسابات يستشيرونها، فأفتى صفوة علماء المانيا، بطرق للظفر باليورانيوم ٢٣٥، فنشطت جهود الجانب الامريكى .. وعبئت جهود العلماء فى كل مكان ــ لتحسين الطرق المعروفة لفصل النظير « ٢٣٥» . وفكر العالم السويدى « ولهلم كراسنى ارجين » فى استخدام طريقــة « الانتشار الحرارى » واستغلال فروق الحرارة للاسراع فى فصل النظير المنشود بمعدل ١٢٫٥٠٠ مرة على الطرق المعروفة . ولكن هذه الطريقة رغم انتاجها الكبير ــ نسـبيا ــ لم تكن مرضية للعلماء العمليين ، لأن انتاج الرطل من « اليورانيوم ٢٣٥ » بوساطتها ، كان يحتاج الى ٩٦٠ سنة . على أن هذه العقبة كانت ميسورة التذليل ، بحيث يتسنى انتاج رطل واحد فى كل ثلاثة أيام .. وفى زمن الحرب ، تهون كل نفقة فى سبيل تحقيق النصر بأى ثمن . فان رطلا واحـدا من

« اليورانيوم ٢٣٥ » ينتج طاقة تعادل طاقة ٢٥ ألف طن من المواد الشديدة الانفجار

وتشعبت الجهود والوسائل ، وكلها تسعى لتركيز « اليورانيوم ٢٣٥ » ، ولو بنسبة ٤٠ او ٥٠ فى المائة من كتله الخام النقى . وأنشئت المصانع الضخمة التى تعوض كثرة الوحدات ، فيها عن بطء العمليات ، بغية الظفر بأكبر كمية من المادة الثمينة . .

فى الطريق .. الى القنبلة الذرية

• **وبينما** كان فريق من العلماء يبذل الجهد لتحضير « اليورانيوم ٢٣٥ » ، كان آخرون يدرسون شتى الوسائل لنجاح القنبلة ، فيعدون أجهزتها الآلية ، ويتعمقون فى دراسة المحايدات (النيوترونات) البطيئة ، وكيفية توفيرها لاحداث الانفجار المتسلسل الكفيل باطلاق أكبر قدر من الطاقة . وفى هذا السبيل ظفر العلم بمجموعة وافرة من المعلومات الثمينة. **فقد تبين ان المحايدات موجودة فى جو الارض باعداد وفيرة، وهى تنشأ من اصطدام الغازات بعضها ببعض ، وتنطاق فى الجو بسرعة عظيمة .. على انها تبطىء اذا قدر لها ان تخترق قليلا من الماء البارد.**



وانت تعرف ان الماء يتالف من ذرة ايدروجين وذرة اكسوجين ، وان وزن الجسيمة المحايدة يتساوى تقريبا مع وزن نواة ذرة الايدروجين . فاذا ما اصطدمتا ، هبطت سرعة المحايدة الى ادنى حد . **واذا ما وضعنا قطعة يوارنيوم ٢٣٥ فى الماء ، فان المحايدة تستقر فى نواته بقوة تكاد تكون مغناطيسية ومعنى هذا ان النواة تنشطر على الفور ، وتطلق طاقتها المخيفة . وظهر ايضا أن هذا الانشطار فى الذرة الواحدة ، ينتج محايدتين فأكثر ، مما يزيد فى سرعة التفاعل المتسلسل**

ودلت الدراسات أيضا على أن هذا التفاعل المتسلسل ، عامل جوهرى فى القنابل الذرية ، فهو يتم بطريقة طبيعية ، بمجرد تجمع كتلة معينة من الخام القابل للانشطار . وقدر قطر كرة هذه الكتلة بنحو ست بوصات ، وهى الكتلة الانفجارية . ولهذا استقر الرأى على ان تصنع القنبلة من جزئين من المادة الانشطارية ، فتكون احداهما كهدف ، والاخرى كقذيفة . فاذا ما أريد تفجير القنبلة التحم الجزءان ، وبمعونة المحايدات الموجودة فى الجو ، يبدأ التفاعل المتسلسل المؤدى الى الانفجار المروع الذى شوهد فى هيروشيما

عنصر جديد ، يحقق الآمال

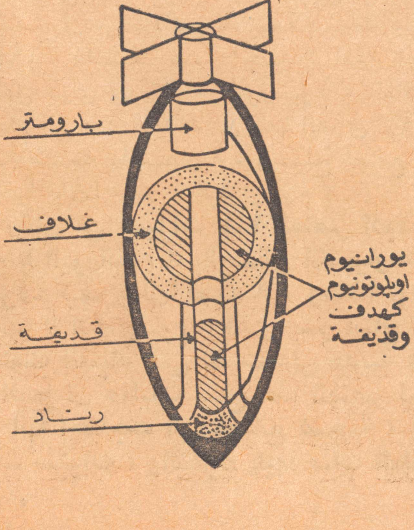
• كل هذه الدراسات تمت بمعزل عن تحضير المادة الانشطارية المتفجرة . وفى سبيل توفيرها ، اشتط العلماء فى كل سبيل ، فكافأتهم الطبيعة بسخاء على جهودهم . ففى عام ١٩٤٢ ، اكتشف عنصر جديد امكن تحضيره من احداث تفاعل ذرى فى خام « اليورانيوم » العادى ، اذ يتحول هذا الخام الى مادة جديدة رقمها الذرى ٩٣ ووزنها ٢٣٩ . وهى مادة مشعة وانشطارية ، وتصلح لصنع القنابل الذرية . وقد أطلقوا عليها اسم « البلوتونيوم »

وكان من مميزات هذا العنصر الجديد سهولة فصله عن أمه « اليورانيوم » بالوسائل الكيمياوية التى حذقها الانسان وعرف كيف يذللها لخدمته . وهكذا توفرت الجهود على انتاج عنصر « البلوتونيوم » الذى يسر انتاج القنابل الذرية ، ومنه صنعت القنبلة التى القيت على مدينة (هيروشيما) . ومن الواضح ان عمليات انتاج هذا العنصر لم تكن سلسة القياد ، بل انها احتاجت الى مصانع ضخمة ، وجهود استمرت نحو ثلاث سنوات ، واشترك فيها مئات العلماء من الاخصائيين فى

العلوم الذرية والتحاليل الكيمياوية

ويقول علماء الطبيعة أن القنبلة الذرية ليست قنبلة بالمعنى القديم المفهوم ، الذى يتضمن انطلاق الغازات لاحداث الضغط والاهتزازات المؤدية الى الدمار .. وانما يشمل الانفجار النووى ما هو اعمق . فهو فى الواقع اعادة تنظيم شاملة لكل **البيئة المحيطة بمركز الانفجار** . وفى وسعك أن تتصور مايحدث اذا ما أحضرنا قطعة من الشمس — أو أى نجم ملتهب تصل حرارته الى نحو ٥ مليون درجة — فان مثل هذه الحرارة الهائلة تغير البناء الذرى لكل ما حولها من مادة !

واذا أردت مثلا يوضح لك أثر هذه الحرارة الهائلة ، فتناول قطعة حديد ، وعرضها للتسخين المتواصل ، تجد أن لونها يتحول الى أحمر ، ثم الى أصفر ، ثم الى أبيض ، وعندئذ تنصهر ، وتتحول الى سائل . فاذا ما واصلت التسخين ، فان السائل يغلى ، ويكتسب لونا ازرق مائلا الى البياض . واذا استمر ارتفاع درجة حرارتها ارسلت اشعاعات بنفسجية ثم فوق بنفسجية .. واخيرا تجدها تطلق اشعة سينية. **وفى الانفجار الذرى تؤدى الحرارة المرتفعة الى اطلاق اشعة سينية نقية . وما ان تنفجر قنبلة ،**



حتى يفقد كل ما هو قريب من مركز الانفجار – من معادن وصخور – خواصه الكيمياوية ، اذ يتحول الى نوايات ذرات تلتحم عند زوال اثر الانفجار لتؤلف ماتشاء من عناصر جديدة !

وقد شوهدت نتائج هذه الظاهرة بعد ست عشرة ساعة من انفجار القنبلة الذرية فوق اليابان ، اذ كانت البقاع مغطاة بشبه مظلة من الدخان والسحب الصفراء التى كانت – فى الاصل – صخورا ومعادن ، ولكن الانفجار الذرى حللها الى جسيمات أولية سبحت فى الجو ، ثم تآلفت فى نثار دقيق يحتمل انه ظل سابحا فى الجو بضعة أشهر ملوثا المناطق التى يمر عليها بالاشعاعات القاتلة .. وتحتفظ بعض المواد باشعاعها آلاف السنين ، فيؤذى كل من يقترب منه من احياء

فنون الحرب فى العصر الذرى

• **ويواجه** انسان العصر الذرى مجموعة ضخمة من المشكلات الشديدة التعقيد ، التى يعجز الخيال عن حصرها اوتصورها. ففى القتال يواجه العسكريون سلاحا لايعرفون كيف يتقونه.. ذلك لأنه من المستحيل على أية قوة ان تمنع انفجار القنبلة النووية ، اذا ماانطلقت .. فاذا ما انفجرت ، فان فتكها لايقتصر على بقعة صغيرة من الارض ، بل انه يشمل بضعة اميال ، فضلا عما تنقله الرياح من اشعاعات . **وقد أدى هذا التطور الضخم الى انهيار كل الفنون العسكرية ، وصار تجمع الجيوش والاسلحة مصيدة . فان قنبلة واحدة كفيلة بأن تبيد جيشا كاملا .. بل ان أمة صغيرة تملك مجموعة من القنابل الذرية، تستطيع القضاء على أكبر دولة اذا هى أحكمت توزيع ضرباتها لشل حركة هذه الدولة !**

على أن الخبير العسكرى يعرف الآن ان الوضع السليم – فى الحرب الحديثة – هو أن يستعيض عن العدد بالخبرة والمران وحسن التدريب . فان استخدام الاسلحة الذرية لا يحتاج

الى الكثرة ، ولكنه يحتاج الى قلة مدربة ، يجيد افرادها استخدام أسلحتهم ، ومواجهة الطوارىء . وهو يعتمد أيضا على تناثر القوات فى مساحات شاسعة ، حتى اذا نزلت ضربة بجانب منها ، نجت الاجزاء الاخرى .. ومن وسائله أيضا سرعة الحركة واخفاء خططه وقواته ومرافقه ، ليستطيع بها مفاجئة عدوه ورد الضربات اليه ، والاستمرار فى القتال .

وبالقنابل النووية لم يعد المدنيون فى مأمن ، لان أقوى المخابىء واعمقها قد يقيهم حرارة هذه القنابل ، ولكنه لن يقيهم خطر ما تخلفه من مواد مشعة تسبح وتندس فى كل مكان . فما الذى تراه سيحدث للمدن بمرافقها العامة ؟ .. وهل ستبنى مدن المستقبل تحت الأرض ؟ .. وان صح هذا فكيف سيقدر لنا أن نقى الحقول والمزروعات التى يحتاج نموها الى اشعة الشمس ؟

هذه الاسئلة وعشرات غيرها تجعل الحرب مسألة فناء للبشرية أو المدنية على الاقل .. ومن ثم فان السبيل الوحيد أمام العالم ، هو أن يعيش فى سلام ، وان يتفاهم أبناؤه لابتكار أفضل سبل التعاون

ولا يؤمن علماء الاجتماع بأن فظاعة الحرب بالاسلحة الذرية ستؤدى الى الغاء الحرب ، فان الشعوب فى جميع العصور الماضية كانت تعرف ويلات الحرب وكوارثها ، ومع ذلك فانها استمرت فى التناحر أملا فى الظفر . على أن بعض الاجتماعيين ، يداعبهم الأمل فى أن تتمكن الهيئات الدولية العالمية من اطالة فترة السلام بعقد اتفاقات تجعل نشوب الحرب من المسائل المعقدة الصعبة . وقد أوجدت القنبلة الذرية هذا الموقف بما جبلت عليه من شدة التدمير ، وبالانقلاب الذى أحدثته فى الفنون العسكرية

مواد ثمينة من الخسيسة

• **ودعنا** من احاديث الحرب ، وتعال نتخيل العصر الذرى

فى زمن السلام ، على افتراض ان البشرية وفقت فى جعل الطاقة النووية خادمة الانسان لا سيدته .

لقد استطعنا بالتفاعل الكيمياوى ان نخلق معادن جديدة. ولكن التفاعل الذرى ابعد أثرا واكثر ثروة من التفاعل الكيمياوى فهو يتعامل مع المكونات الأصلية للعناصر التى تقوم عليها مدنية الارض . ومن ثم فهو يعيد تأليف الاصول ، مما يفتح افاقا واسعة فى مجال الخلق والابتكار . وقد كانت أول ثمراته صنع عنصر «البلوتونيوم» الذى عجل بانتاج القنابل الذرية.

وبالتفاعل الذرى يستطيع الانسان أن يحول هواء الجو ، وتراب الأرض الى ماس أو ذهب ، لأن الجسيمات الذرية الاصيلة المكونة لكل العناصر موجودة فى كل مكان، وفى كل مادة. وبهذا التفاعل ستزول من قواميس اللغة كلمة مواد ثمينة وخسيسة ، فمن الخسيسة تستطيع صنع الثمين ، وبهذا التفاعل يزول الجانب الاكبر من الوان الكفاح البشرى ، لأن كل انسان سيجد كفايته ، فلا يحتاج الى التطلع الى مافى يد أخيه . على ان هذا الحلم بعيد التحقيق ، ويحتاج الى عشرات السنين . ويغلب على الظن ان الانسان سيشهد فى العصر الذرى كثيرا من الطفرات القاسية التى تهدم الجانب الأكبر من نظمه الاجتماعية والاقتصادية .

وينصرف الشطر الثانى من الدراسات الذرية الى استغلال الطاقة التى تنشأ من اى تفاعل ذرى . فان مدنيتنا الحالية قائمة على الطاقة ، فكل شىء فيها يعمل بالقوة المحركة ، التى تطلق السيارات والطائرات ، والتى تدير الآلات لانتاج حاجات الانسان. **والرطل الواحد من «اليورانيوم» اذا ماتحول الى طاقة ، كفيل بأن يغنينا عن ستة ملايين رطل من الفحم ، اذا ما عرفنا كيف نسيطر على الطاقة الذرية ، ونتجهـا فى الحدود المطلوبة .** بل ان نسمة الهواء التى تستنشقها ذات قيمة كبيرة ، اذا ما

تحولت الى طاقة ، لأنها تكفى لتحليق طائرة ضخمة لمدة سنة كاملة .

والطاقة ـ أو مادة الوقـــود فى الطائرة او القطار ـ هى السبب الاساسى لارتفاع أجور السفر ، فاذا ما انخفض ثمنها، أمكنك السفر والتنقـل بأتفه الأجور .. **وكم من مـــلايين الجنيهات تنفق سنويا ـ فى ايامنا هذه ـ لاستخراج مواد الوقود التى تدير المصانع لانتاج السلع ، فاذا ما تحكمنا فى الطاقة الذرية ، وفرنا كل هذه الملايين ، وأمكننا ان نخفض نفقات الانتاج ، فتهبط اثمان السلع والخدمات . وقد يتاح للانســـان ـ اذ ذاك ـ ان يعيش فى العـــالم المثـــالى الخـــالى من الفقر ومن الخوف من المســـــتقبل** .. ذلك لأن المجتمع سيقوم على نظام جديد ، لديه كل السبل للعمل على اسعاد الفرد والمجموع بأقل جهد وابخس نفقة !

مسكنك فى العصر الذرى

• ومن الجائز ان نتمكن فى المستقبل ـ بفضـــل الطاقة الذرية الضخمة ـ من التحكم فى جو البلاد ، فنجعله مكيفا فى درجة الحرارة التى يريدها الانسان .. وهو ما تمكنا ـ حتى الآن ـ من تحقيقه فى المنازل بفعل الطاقة الكيمياوية . وعندئذ ستزول من العالم المناطق الحارة والاقطار القطبية ، ويعيش أهل الكرة الارضية كلهم فى جو واحد ، هو أفضل الاجواء ، واكثرها ملاءمة لصحة الانسان . ويرى بعض المفكرين **انمدن الانسان ستبنى داخل بطن الأرض .. أما ســــطح الارض فسيخصص للرياضة ، ورحلات المغامرات والترفيه**

و فى كل بيت من المساكن ـ التى ستبنى داخل جـــوف الارض ـ سيجد الانسان شتى المزروعات التى تتحكم فى انباتها الطاقة الذرية ، فتحصل ـ فى أى وقت ـ على طعامك وفاكهتك طازجة .. ولعلك تستطيع ان تزرعها وتستنبتها فى دقائق ،

وفق مزاجك . ولعلك تضيف اليها عوامل ومواد ليست فيها الآن ، فتزيد من كميات الفيتامين او الهرمونات — مثلا — حسب مطالب جسمك ، فيكون غذاؤك حاويا لعلاج عللك

ولسوف يضم بيت المستقبل مخزنا به كمية من «اليورانيوم» الذى يرسل اشعاعه فى أنابيب خاصة تسرى فى الغرف فتضيئها . وسوف يكون التحكم فيها دقيقا الى درجة كبيرة ، تتوزع بها أنواع الضوء والحرارة وفقا للحاجة

مواصلات مجانية وسفر الى الكواكب

• **أما** وسائل المواصلات الحالية ، فمن الجائز ان تكون من نصيب المتاحف ، وتحتل مكانها طائرات من نوع جديد تعتمد على بعض خواص اشعاعية يطلقها « اليورانيوم » والمواد المشعة . وفيها تنطلق الاشعاعات بقوة عظيمة . وسوف يتحكم الانسان فى هذه الاشعاعات ، ويجعلها تحمل الطائرات ، وتنطلق بها — الى حيث يريد — بمجرد التوجيه ، وبسرعة هائله يحتمل ان تفوق سرعة الضوء **(١٩٨ ألف ميل فى الثانية)** . أى انك تستطيع الطواف حول الارض فى ثوان معدودة !

وحلم استخدام هذه الأشعة بعيد ، ولكن الحلم القريب هو استغلال الطاقة الذرية فى محركات الطائرات . وقد لا تمضى شهور او سنوات حتى نراها تحلق فى آفاق الارض . فتظل الطائرة فى الجو أياما وسنوات دون أن تزود بالوقود ، لأنها تستمد قوتها من الطاقة الذرية . وتدل الدراسات النظرية على أن المحركات الذرية ستحل كثيرا من مشكلات الطيران ، لأن المحرك الذرى ينتج طاقة تفوق طاقة المحركات النفاثة المعروفة بنحو ثمانية ملايين مرة !

ومن المسائل التى وجه اليها الانسان اهتمامه مسألة السفر الى الكواكب . والصواريخ المعروفة لا تستطيع حمل ثقل له قيمة تذكر ، بسرعة تتغلب على جاذبية الارض . لكن هذه

العقبة ستغدو ميسورة التذليل باستخدام الطاقة النووية ، التى تولد قوة دفع تفوق قوة الدفع فى الصواريخ الحالية .

وتتجه أنظار العلماء الى استخدام الطاقة الذرية فى كل مجال يحتاج الى القوى الدافعة كالغواصات والسفن والقطارات والمصانع ومحطات توليد الكهرباء . وقد حقق العلماء بعض آمالهم فى المشروعات الذرية التي نفذوها فعلا ، ولكنها لا تزال - فى الواقع - مشروعات تجريبية نفذت بغرض دراسة النواحى العملية لاستغلال الطاقة الذرية .. فالعالم لا يعرف - حتى الآن كثيرا عن الطاقة الذرية ، وهو لا يزال معرضا لخطر حدوث أخطاء يحتمل أن تؤدى الى كوارث ، سواء بانفجار المشروعات أو بتسرب الاشعاعات القاتلة التى تنشأ عن التفاعل الذرى . ولهذا فالعالم يسير بكل حذر وبطء فى هذا المضمار .

مشكلات العصر الذرى

• ولا ريب فى أن البطء والحذر مفيدان للبشرية فى أول عهدها بالعصر الذرى ، فان استخدام الطاقة النووية على نطاق واسع سيؤدى حتما الى مشكلات اجتماعية واقتصادية على جانب كبير من الخطورة . اذ ان هذه الطاقة ستغنينا عن أنواع الوقود من فحم وبترول .. **ومعنى هذا تعطيل ملايين العمال الذين فى حرف تعدين هذه الخامات وتكريرها ونقلها .**

ويبدو أن مشكلة البطالة هذه ، ستكون من أخطر مسائل العصر الذرى ، الا اذا وجد الانسان سبيلا لتعديل الاوضاع الاقتصادية ، وجعل مسألة العمل غير مقيدة بالعرض والطلب . ويضاف الى هذه المشكلة مشكلة أخرى خاصة بالعقلية البشرية والتعليم : ففى العصر الذرى سوف يتعامل الناس بأشياء دقيقة ، وعلى جانب كبير من الخطورة ، كمحركات السيارات التى يتنبأ البعض بأنها لن تزيد فى المستقبل على قبضة اليد ، ولكنها تكفى لتسيير السيارة آلاف الاميال .

فاذا لم تتخذ تدابير حاسمة وفعالة لصيانة مثل هذا المحرك ومنع اشعاعه من التسرب وتلويث الجو ، فانه سوف يكون مصدر كوارث . **وهذا كله يحتم ان تتغير عقلية الناس بالاقلاع عن كل اهمال فى المسائل الذرية ، لا سيما وان جسم الانسان نفسه ــ بما يحوى من ماء ــ يعد من العوامل التى تدفع اية قطعة من ((اليورانيوم)) الى التفاعل الذرى .**

ولقد أمكن فى المعمل تحويل اكثر من ٣٠٠ مادة الى مواد مشعة رخيصة الثمن ، وتؤدى خدمات هامة استحال تحقيقها فى العصور الماضية . ومنها علاج عدد من الامراض المستعصية ، ودراسة المعادن والتربة والنبات ، فان جعل مواد السماد مشعة يتيح للعلماء أن يتتبعوا تحلله فى التربة ، ثم امتصاص النبات له ، والدور الذى يؤديه لزيادة المحصولات الزراعية . وبالمواد المشعة يمكن ــ أيضا ــ معرفة مزيد عن دقائق تركيب المعادن والسبائك .

ومن عقبات استغلال الطاقة الذرية فى العصر الحاضر ، ارتفاع نفقاتها . فنحن لم نعرف بعد كيف نطلق الطاقة من أية مادة وانما نحن نطلقها من مواد معينة معروفة بعدم استقرارها ، كالراديوم واليورانيوم والبلوتونيوم والثوريوم والايدروجين الثقيل . واعداد أى من هذه لمواد للاستغلال ، يحتاج الى نفقات طائلة تجعلها قليلة القيمة بالنسبة لانتاج السلع وادارة المصانع ، فان ثمن الرطل الواحد من الراديوم يبلغ نحو أربعة ملايين من الجنيهات !

على ان ضخامة الطاقة التى ينتجها التفاعل الذرى ، تجعلها ضرورية لبعض الصناعات والاجهزة التى تحتاج الى درجة حرارة مرتفعة لا يمكن توفيرها بانواع الوقود المعروفة . ومن امثلة ذلك الصواريخ التى يراد السفر بها الى الكواكب ، وكذلك عمليات العلاج الطبى التى صار الاشعاع من أهم موادها . ولا تنس فى هذا السبيل ان اطلاقنا للطاقة النووية

لا يحول كل اجزاء المادة الى طاقة ، بل انه يحول نسبة صغيرة منها ، بينما يتحول باقى المادة المنشطرة الى عناصر أخرى لم نعرف بعد كيف نستغلها

ويرى بعض الخبراء انه ـ حتى فى حالة تمكننا من استخدام الطاقة النووية بارخص الاسعار ـ فان هذا لن يقضى على تعدين البترول والفحم ، لانها مواد لا غنى عنها فى عدة عمليات أخرى كالشحم والشمع وغيرهما من مستخرجات هاتين المادتين . ويعتقد بعض الخبراء ان البترول سيظل ضروريا للمدنية عشرات السنين فى المستقبل ، مهما نتوسع فى استخدام الطاقة النووية !

اننا نتطور فى بطء

• **ويرى** خبراء الطاقة النووية ان افضل الميادين وايسرها لتجربة استغلالها ، هى الطب والنقل والوقود . على ان استخدامها فى أى من هذه الميادين لن يكون بالطفرة ، ولكنه سيكون بالتطور البطىء . ويبدأ هذا الاستغلال فى وحدات كبيرة ضخمة ، كالسفن والطائرات الكبيرة ومولدات القوى الكهربائية . فان المحركات الذرية تحتاج الى دروع ثقيلة لوقاية الناس من خطر الاشعاع الضار ، الذى ينتج من التفاعل الذرى ، ولهذا فان محركات السيارات او الطائرات الصغيرة ستكون آخر المحركات التى يمكن صنعها ، لا سيما وأنها تحتاج الى طاقة صغيرة يتعذر الظفر بها فى حالات التفاعل الذرى المعروفة .

ويرى بعض الخبراء ـ من ناحية اخرى ـ ان كل ما يقال من نبوءات عن الطاقة الذرية وتفاعلها ، سابق لاوانه . فان كثيرا من المخترعات لم يتحقق ما قيل عنه . بل ان الاختراعات الهامة لا تتجسم وتنضج عادة قبل مرور ٣٥ سنة على ظهور بوادرها . وفى حالات كثيرة تمتد فترة النضج الى نحو ٣٠٠

سنة او اكثر ! فان مثل هذه المخترعات تواجه فى الغالب الوانا من المعارضة من رجال الاعمال الذين تتأثر أرباحهم من ظهورها. ومن أمثلة ذلك : المنازل الجاهزة التى اخترعت من مدة طويلة ، ثم ظلت مهملة نحو ٥٠ سنة لأن المقاولين وشركات البناء قاومت عمليات تنفيذها . وهناك ايضا ما نسميه بالقصور الاجتماعى الذى ينشأ من حالة المجتمع المعقدة ، ومن شأنه ان يخلق نوعا من الجمود ضد كل جديد ، ولا يسمح له بالتقدم الا ببطء شديد .

والرأى ان المشكلات الصناعية والاجتماعية التى ستظهر من الاكتشافات الذرية ، ستكون بعيدة الاثر ، وستتناول كل حياة البشرية ونشاطها . فمن العسير التكهن بان المدنية الحالية ستظل قائمة بشكلها الحالى او بتطور طفيف . ويجب أن نذكر ان ظهور السيارات والطائرات وادوات النقل السريع ، أدى الى تفكك الأسرة وتباعد المدن بعضها عن بعض وقيام حكومات مركزية قوية . **ويبدو ان العصر الذرى سيشهد مزيدا من تناثر المدن وتباعدها ، كما أن حياة الأسرة ستكون مجالا طيبا لا نقلابات لا نستطيع تحديدها ومن ابرزها حالة الفراغ فى حياة الافراد ، فان تحسين الوسائل الالية ، وزيادة الطاقة المستخدمة ، تؤدى دائما الى خفض نسب العمل العضلى للانسان . ومن الجائز ان نرى المصانع ـ بعد فترة ـ وقد خلت من عمالها ، اذ تؤدى الالات اعمالهم . ومن الملاحظ فى الانقلابات التى أحدثتها الاختراعات الماضية ، ان التطور كان بطيئا ، مما اتاح علاج حالة البطالة التى ينتظر ان تكون ـ فى التطور الجديد ـ حالات مؤقتة ، لا سيما وأن الاتجاه الحالى يسير الى فرض سيادة الحكومات على كل المنشآت الهامة ذات القيمة الاقتصادية الكبيرة .**

والواقع ان القنبلة الذرية ليست اكبر مانخشاه فى العصر الذرى ، بل ان ما يجب ان نخشاه فعلا ، هو المجهول من

التقلبات التى ستصيب البشرية

ومن الواضح ان اكتشاف أسرار الذرة ، واستخدامها فى اغراض السلام ثورة خطيرة تنتاب المدنية ، ولكنها ثورة مقيدة ، وتسير ببطء وتؤدة لمصلحة البشرية التى يجب أن تستعد لهذا الاكتشاف الجديد ، الذى كان من أهم ظواهره أن الناس صاروا يؤمنون بأن العالم فى حاجة ماسة الى تغيير وسائله فى التفكير . فمنذ ظهر الانسان وهو فى صراع دائم مع اخيه الانسان . وكل الاكتشافات التى تغمر المدنية الآن ، تزيد من حدة هذا الصراع ، وتورث الفرد كثيرا من الهم والقلق ، رغم انها خففت كثيرا من أعبائه . فنحن فى حاجة الى التفكير فى طريقة رشيدة لادارة شؤون الناس ، حتى يعيشوا سعداء بغير قلق ، وبغير ان يخلقوا لأنفسهم عقبات ليس لها من مصدر سوى التنافس ، وحب السيادة ، والأنانية ! .. وهى أمور قد تعتبر غريزة طبيعية فى الانسان ، ولكننا هذبنا كثيرا من غرائزنا ، وأثبتنا ان الجانب الاكبر منها مكتسب .. **ومن الممكن تهذيب الباقى بالتربية والتنظيم ، حتى نفكر جميعا فى التعاون لاداء الأعمال الانشائية ، بروح تسودها العدالة والاخاء ، وان يكون كل منا وسيلة لاسعاد أخيه الانسان . وبهذه الروح وحدها يستطيع الانسان أن يعيش منعما فى العصر الذرى الذى فتحنا بابه !**

—*—



المركيز دى ساد

الرجل الذى ابتدع مذهب التعذيب فى الحبّ

الهمه الفجور العنيف .. فلسفة وادبا !

• كلما وقعت جريمة امتزج فيها الجنس بالعنف الضارى والقسوة الوحشية ، ترددت كلمة « السادية » و «الساديزم» دون أن يقال شىء عن الشخص الذى اشتقت هاتان الكلمتان ـ المتحدتا المعنى ـ من اسمه .. لقد كان مركيزا ، وقد نشأ فى رحاب البلاط الملكى الفرنسى، فى أشد عهود هذا البلاط خلاعة وفسادا ..

وكان رغم فجوره المصحوب بالتعذيب الوحشى ، أديبا مفكرا ، أكد بعض الثقات أن آراءه وتحليلاته النفسية للشئون الجنسية ، كانت الاسس الاولى التى أقام عليها «فرويد» نظرياته ، فيما بعد..

و « كتابى » يقدم لك على هذه الصفحات ، ملخصا لكتاب واف فى سيرة « المركيز دى ساد » ، على أن يوافيك فى العدد المقبل بتلخيص لاروع كتبه وأبقاها على الزمن ، وهو كتاب : « جرائم الحب »

طفل مدلل فى مجتمع عابث

• بالرغم من البؤس الذى ساد فرنسا ، فى عهد لويس الخامس عشر ، ومن الجهل والفقر والمرض التى جثمت على سواد الشعب ، فقد ظلت باريس مركزا لطبقة مترفة ، كما كانت مركزا لذوى الذكاء والمواهب اللامعة .. وما أسعد حظ من كان يقدر له أن يولد ـ اذ ذاك ـ فى باريس ، وفى احدى هاتين الطبقتين بالذات !

وفى هذا المجتمع الذى كان موزعا بين اللهو الجامح والسمو الفكرى ، وبين الاضطهادات الظالمة والانتاج العقلى الرفيع ،وبين الفساد المزرى والرقى الادبى والفنى .. فى هذا المجتمع ، وفى سنة ١٧٤٠ ، ولد لاسرة « كونديه » العظيمة ولد .. من سلالة أمير كونديه الذى كسر شوكة الاسبان ـ فى سنة ١٦٤٣

ـ وأفسح الطريق لفرنسا كى ترقى سلم الزعامة السياسية ، والذى قدر له أن يكون من رؤساء الوزارة ـ فى عهد لويس الخامس عشر ـ ثم مات فى سنة ١٧٤٠ .. فى عين العام الذى وضعت فيه الكونتة « دى ساد » الوليد الذى أشرنا اليه ، وقد أنجبته من زوج عسكرى ديبلوماسى

وعمد الطفل باسم « دوناسيان الفونس فرانسوا » ، وقد حمل لقب « مركيز » ـ منذ مولده ـ على ان يحمل لقب « كونت » ، عند موت أبيه ، وفقا للامتيازات التى كانت لاسرته !.. وقد شب الفتى أبيض البشرة ، ذهبى الشعر ، أزرق العينين واسعهما ، له كل المفاتن التى اعتاد الشعراء أن يخلعوها على عشيقاتهم ..

وحظى الصغير الجميل باعجاب السيدات ذوات المراكز الرفيعة فى البلاط الملكى ، فأسرفن فى تدليله ، حتى أنه اعتاد أن يتمادى فى حدة الطباع ، اذا ما عاكسته احداهن . ولكنه كان ـ الى جانب ذلك ـ حاد الذكاء ، مرهف العقل .. ومالبث ـ فى سنة ١٧٤٧ ـ أن أسلم الى رعاية عمه « الاب فرانسوا » ، ليلقنه بعض العلوم . وكان هذا العم ميالا للعلوم الدنيوية ـ برغم مركزه الدينى ـ مشغوفا بالدراسات الثقافية ، لاسيما التاريخية والادبية منها ، كما كان متبحرا فى علمى النبات والحشرات .. ولم يكن « الاب فرانسوا » ورعا متزمتا .. وقد كان بيته حافلا بالخادمات الحسان ، ولاشك فى أن الغلام الحاد الذكاء ، قد لمح أكثر مما كان يليق بمن فى سنه أن يلمحوا ، ولكن من المغالاة أن نرتب نتائج تتعلق بتطوره الجنسى على هذه الحقيقة ، اذ أنه دخل بيت عمه فى السادسة من عمره ، وغادره ولما يكد يبلغ العاشرة !

لم يكن يألف أباه !

والواقع ان « دوناسيان » ـ عندما غادر عمه وعاد الى

باريس ليستكمل فيها دراسته - لم يكن قد ألم بمعرفة بشئون الجنس تتجاوز معلومات اولاد الشوارع . وقد التحق بكلية « الجيزويت » التي سبقه اليها « موليير » و « فولتير » ، حتى اذا بلغ الرابعة عشرة من عمره ، أعده أبوه للتربية العسكرية ، وفقا لتقاليد نبلاء ذلك العصر .. **ومع أنه لم يكن فارع الطول ، الا أنه كان قوى البنية ، بديع التكوين ، لم يبق له من جمال الاناث سوى قسمات وجهه !.. وكان أنيقا ، معتدا بنفسه ، حاضر اللسان ، ميالا الى الرقص والمبارزة وركوب الخيل ، كما كان ذا موهبة للتمثيل .**

وقدر للفتى أن يعيش مع أبيه « جان بابتيست » ، وهو لايكاد يعرفه ، اذ أنه لم يعش على مقربة منه - من قبل - لاكثر من أشهر قلائل .. على أن الفترة التى أقامها مع أبيه - فى هذه السن - كانت ذات أثر حاسم فى حياته . فقد كان الاب جاف الطباع ، منطويا على نفسه ، لايخالط الناس ، وانما يعكف على عمله الديبلوماسي والعسكرى فى صمت . اما الفتى فكان قد جاوز سن البلوغ ، مقبلا على كل رذائل الجنس - التى كان المراهقون يعرفونها فى ذلك الحين - فى خيال جامح ، وذكاء ، وجرأة ، وعدم مبالاة !.. وكغيره من تلاميذ المدرسة العسكرية ، تعود « دوناسيان » التردد على دور البغاء

على أنه لم يبد على الفتى - فى هذه المناسبات - شىء من المعالم التى أصبحت تنسب اليه ، باسم **« الساديزم » أو « السادية »** .. وهى النزوع الى القسوة ، فى العلاقة الجنسية

زوجة بالاكراه !

• وفى سنة ١٧٥٥ ، قامت انجلترا بمهاجمة فرنسا فجأة ، وأصبح « دوناسيان » ضابطا ، ولكن ذكاءه وحبه للمغامرات لم يكونا من النوع الذى يتجه الى الحرب ، رغم أنه لم يكن جبانا أو مسالما .. **ولم يكن يهتم من الحياة العسكرية الا**

بالزى الانيق الذى كان يختال فيه . فلما رقى الى ((كابتن)) بدأ أبوه يتدخل فى شئونه ليحد من تبذيره ، مما زاد طباعه حدة ، فأصبح حقودا مشاكسا ، وأمعن فى حيـاة الاستهتار

واذ استمر « دوناسيان » فى ملاحقة أبيه بطلب المعونات المالية ، فكر أبوه فى أن يدبر له زواجا طيبا ، يقيه الحاجة ويخلصه من حياته العابثة .. فتريث حتى انتهت الحرب ، واختار له فتاة غنية ، سمراء ، طويلة القوام . ولكنها كانت ثقيلة الظل ، مجردة منأية جاذبية . فلما هم الشاب بالاعتراض ، هدده أبوه بأن يستغل ماكان له من نفوذ ــ كنبيل ــ فى القائه فى غياهب السجون !

وفى ابريل سنة ١٧٦٢ ، قام المركيز الشـاب بأول زيارة لخطيبته العريقة الغنية « رينيه دى مونتروى » .. وكان لابد من أن تستقبله أمها أولا . وفيما هو فى انتظار السيدة ، راح يتسلى بأن يطل على حديقة القصر البديعة . واذا به يرى حورية من حوريات الجنة ، تقتطف الزهور .. كانت مثـالا للجمال الكامل .. عينان زرقاوان ناعستان ، وشفتان شهيتان ، وقسمات دقيقة مرهفة ، وقوام ممشوق أهيف ..

وخفق قلب ((دوناسيان)) وقد أدرك من تصرفات الفتاة انها ابنة البيت .. وشعر بنشوة اذ ايقن من انها خطيبته .

ولكن التقاليد لم تشأ له أن يلتقى بهذه الخطيبة ــ فى ذلك اليوم ــ بل استقبلته أمها ، فأعجبت بحسنه وجماله ، واتفقت معه على موعد يتعرف فيه على خطيبته رسميا .. **وما ان حان هذا اليوم ، حتى فجع ((دوناسيان)) فى أحلامه ، اذ ان الفتاة التى قدمت اليه ، لم تكن تشبه حورية الحديقة فى شىء ، وانما كانت مخلوقة أخرى .. سمراء ، ممشوقة القوام ، تتبدى على أساريرها علامات الانفعال العصبى الممتزج بالخـوف**

وعرف ان حوريته لم تكن سوى « آن ــ بروسيير » ، التى كانت تدلل باسم « لويز » .. اخت خطيبته ، التى كانت ــ

اذ ذاك ـ فى السادسة عشرة من عمرها .. ووجد «دوناسيان» ماتوقعه فيها من اعتداد بالنفس ، ومن ذكاء .. وأوحت اليه الفتاة ـ بدورها ـ بأنه كان يروق لها ، وبأنها ماكانت لتتمنع عن مغازلته ، لولا انه كان خطيب أختها !

وتشاجر الشاب فى مساء ذلك اليوم ـ مع أبيه ، اذ صارحه بحبه للفتاة الصغرى .. وذهب ـ فى السر ـ الى مدام « مونتروى » يحاول اقناعها بأن تهبه «لويز» بدلا من «رينيه» ، ولكن الام أغرته بصداق « رينيه » ، الذى رفعته الى رقم خيالى ، ومنته بحياة البذخ والترف التى سيكلفها له زواجه من ابنتها الكبرى . وعاش المركيز الشاب أياما موزعا بين قبول الزوجة التى لايحبها ، والاستمتاع بثروتها وجاهها .. وبين رفضها والتعرض لنقمة أبيه .. وبين اغراء « لويز » على الفرار معه الى الخارج ، ليعيشا فى فقر ، طريدين

حماته تناصبه العداء !

• **وازاء** مطامعه وأطماعه ، لم يلبث أن انتهى الى الحل الوحيد .. وفى ١٧ مايو سنة ١٧٦٣ ، زفت اليه « رينيه » فى احتفال باهر ، فخم ، لم تشهده « لويز » ، اذ كانت أمها قد ألحقتها باحدى مدارس الراهبات الداخلية !.. وكان أعجب مافى الامر ، أن « دوناسيان » ـ الذى تسلم « دوطة » تقدر بمائتين وخمسين ألفا من الجنيهات ـ بدأ حياته الزوجية وهو يقتنى منزلا ، على بعد ساعتين من باريس ، ليرضى فيه نزواته الجنسية المشبوبة .. مع غير عروسه !

وكان جو الحياة فى باريس ـ فى ذلك العهد ـ جوا تسوده الدعارة والالحاد والرذيلة السافرة ، التى لم تشهد أوربا مثلها منذ القرون الوسطى !.. وكان السلطان للنساء

وما كان « دوناسيان دى ساد » ليشذ عن رجال مجتمعه ، وهو الذى كان مشبوب الشهوات ، متاجج النزوات . لذلك

كان المنزل الريفى الذى استأجره خارج باريس - وكان يعرف باسم (لومونيرى) - معبدا للشيطان . ولم يكن للجيران الريفيين ولا للبوليس أى اعتراض على ذلك ، الى صيف سنة ١٧٦٣ .. فان مدام « مونتروى » لم تلبث أن اكتشفت مغامرات زوج ابنتها . ولم تكن بالمرأة التى تكتم مثل هذه الامور .. وكانت كلمة هادئة من زوجة قاض مثلها الى موظف من كبار رجال الامن ، كافية لان تحمل السلطات على أن تضع عينها على الشاب وداره السرية ! .. وما ان اعتقل الشاب حتى تداعت روحه المعنوية ، الى الدرجة التى لم يتورع معها عن أن يكتب الى أحد ضباط البوليس - من حرس السجن - يقول : **« اعلم اننى أستحق هذه النقمة من الله ، لسوء مسلكى . وأكون شاكرا اذا سمحت لى برؤية كاهن .. وانى لاعتمد عليك كل الاعتماد ، فى ان لا يعلم اهلى بحالى ! »**

واستطاع خطاب من هذا القبيل ان يظفر له بالعفو - فى ١٣ نوفمبر - من لويس الخامس عشر ، الذى شاء أن ينقذ سمعة شخص من الارستقراطيين ليفوت فرصة حملة جديدة من دعاة الانقلاب ومهاجمى الطبقة الراقية .. ولاشك فى أن مدام « مونتروى » قنعت بهذا الدرس البسيط الذى تلقاه زوج ابنتها ، فساعدت على صدور العفو !

صفعة من شقيقة زوجته

• **وعاد** « دوناسيان » الى قصر (ايشوفور) - حيث كان يقيم وزوجته مع حماته - فاستقبلته الزوجة الشابة فى شوق واطمأنت المركيزة دى ساد الى زوجها .. وفى غمرة سعادتها ، دعت شقيقتها « لويز » - التى كانت قد أتمت دراستها - الى زيارتها .. وبرغم ماسمعته الفتاة عن فجوره ، فانها لم تتمالك من أن تعجب به .. وقرب بينهما شغفهما بالموسيقى ، وبالسير على الاقدام فى الريف . **وبينما كانت « رينيه » منهمكة**

فى الاشراف على شئون الدار والاسرة ، كانت الحجب تتلاشى بين زوجها واختها تباعا ، الى ان فوجئت « لويز » بالمركيز يقتحم عليها مخدعها ذات مساء .. وتمكنت الفتاة من ان تصفع زوج اختها ، فاذا به يطأطىء رأسه وينصرف فى الحال !

وعاد « دوناسيان » الى باريس – فى ابريل سنة ١٧٦٤ – فجدد علاقاته بخليلة من اشرف أسرات الريف ، لم تؤت من الجمال والجاذبية ، قدر ما اوتيت من النبوغ فى أساليب الغزل والدلال . وقضت مع المركيز – فى داره الريفية أشهرا كانت حافلة باللهو العابث والملذات الصاخبة .. وما كانت حماته لتطيق على هذا صبرا ، فلم تنقض خمسة أشهر ، حتى تلقى المركيز امرا ملكيا يحدد اقامته بقصر (ايشوفور) ، المقر الرسمى له . فعاد الى قصر حماته ، تحف به اشاعات واقاصيص ، عن الحياة الماجنة التى كان يمارسها فى داره

دراسات وتجارب جنسية

• **وبموت** أبيه – فى يناير سنة ١٧٦٧ – انفكت ضائقته المالية ، واصبح رئيس الاسرة ، فازداد انطلاقا فى لهوه . ولقد يقال أن اغراقه فى الفجور كان رد فعل لخيبة امله فى حب الفتاة المراهقة « لويز » .. اخت زوجته . على ان ذكاءه المشبوب ، دفع به – فى تلك الاثناء – الى ان يشغف بعلم وظائف الاعضاء وعلم النفس ، وان يربط بينهما وبين دراساته وتجاربه الجنسية .. **ووجه عناية خاصة الى الجهاز العصبى والغريزة الجنسية ، وارتباط الآلام البدنية باللذة الجنسية ، وبدأ يجرى تجارب تطبيقية على هذه الابحاث فى المنزل الذى كان قد اتخذه لنزواته فى (اركويى)**

ولكن حماته والبوليس كانا يفرضان عليه رقابة قاسية ، لم تلبث ان حفزته على ان يسعى الى الفوز بما كان لكبار الارستقراطيين من حصانة ، فى ذلك الحين . وبمساعدة عمه

حصل من الملك على اعتراف ظفر بفضله بالحصانة التى تقيه شر العقاب وسلطات القضاء ، اذا ما ارتكب أى خرق للقانون .

ولا تنم دراسة الوثائق المتعلقة به — فى هذه الفترة — على شىء سوى أنه كان لايعرف الكلل فى جريه وراء شهواته ،وكان نزقا عديم الصبر فى نيل أهوائه .. ولكن سجلات البوليس لم تلبث أن عرفت ناحية جديدة من حياته وشخصيته . فقد اعترضت طريقه ذات يوم سيدة فى الثلاثين من عمرها ، انيقة الملبس ، وسألته — همسا — أن يهبها شيئا من المال ، لان زوجها توفى وتركها مغرقة فى الديون والفاقة . وأعجب المركيز العابث بها ، فلم يشأ أن يفلتها من يديه ، بل عرض عليها ان تعمل مدبرة لداره ، فتكسب عيشها من عمل أشرف من التسول . وكادت المرأة ترتمى على قدميه عرفانا بفضله .. وهكذا قدر له أن يقلها فى عربته الى داره الريفية (اركويى) . وقادها — خلال باب خلفى — الى حجرة فى الطابق الاعلى من الدار ، أفهمها انها ستكون حجرتها . وفيما كانت الشابة تتأملها ، اذا به يغلق الباب بالمفتاح ، ويسألها ان تخلع ملابسها .. وعبثا حاولت المرأة ان تفهمه انها شريفة ، فسرعان ماألقى بها على السرير ، وقيدها بشرائح اقتطعها من قميصها ، حتى اذا لجأت الى الصراخ ، كمم فمها . ثم أحضر شمعا ، وحزمة من الخيوط المعقودة ، ومطواة صغيرة ، وعصا !

وشرع يضرب المرأة على ردفيها بالخيوط المعقودة ،حتى احمر جلدها وبدأ الدم يتفصد منه . واذ ذاك راح يحدث جروحا — بمهارة الجراح الماهر — فى الاماكن التى تورمت ، بمطواته الصغيرة ، ثم صهر الشمع ودمغ به هذه الجروح !

واستطاعت المرأة ان تهرب من الدار ، بعد ثلاث ساعات ، وان تلجأ الى البوليس .. ودار تحقيق طويل ، ومحاكمة قضى عليه فى نهايتها بغرامة قدرها ٢٤٠٠ جنيه . ولكن المبلغ خفض



ـ بفضل الحصانة الملكية ـ الى مائتى جنيه ، وافرج عنه بشرط أن لايبقى فى باريس !

يهرب بشقيقة زوجته

• والى هنا ، كان المركيز مجرد شاب خاب فى حبه ،وقد أوتى شهوة جنسية ضارية ، وفضولا مشبوبا ازاء وسائل اشباعها .

وما أن أفرج عنه ، حتى ذهب الى الدير الذى كانت حماته قد أودعت فيه ابنتها « لويز » ، فأقنع رئيسة الراهبات بأنه مفوض ـ بوصفه زوج شقيقتها ـ بأن يصطحب الفتاة لقضاء فترة مع الاسرة ، واخذها الى (أركويى) ! .. **ولا يدرى أحد كنه العلاقة التى نشأت بينهما فى الاشهر التى قضياها معا ، ولكنهما كانا سعيدين بها ، على أية حال • وما أن علمت حماته بالامر ، حتى خشيت الفضيحة ، ولكنها راحت تدبر له مكيدة تمكن البوليس من اعتقاله • وفطن الشاب الى ذلك ، فحمل الفتاة الى ايطاليا**

وغابا هناك عاما كاملا ، نعما فيه بكل أطايب الحب • وكان هذا العام هو العام الاوحد الذى حظى فيه المركيز بالمتعة الحقيقية الكاملة ، التى وافته بعد تجارب كثيرة مع البغايا والعشيقات ، وبعد متاعب مع البوليس والقضاء وحماته : مدام « مونتروى » !.. على ان العاشقين افترقا فى نهاية ربيع سنة ١٧٦٩ ، فألحقت مدام « مونتروى » ابنتها بدير آخر ، ريثما دبرت لها زواجا ملائما .. وقد قدر للويز أن تموت

بعد اثنتى عشرة سنة ، فكانت المرأة الوحيدة التى ملكت زمام قلب « دوناسيان » وجسده !

ومن العجب أن « رينيه » لم تغضب على زوجها ، برغم كل هذا ، بل قنعت بأن تحافظ على مكانته الادبية ، وعلى سمعته التى كانت تستمد منها سمعتها .. فكانت لاتدخر جهدا فى انقاذه كلما وقع فى أيدى البوليس متلبسا بأشنع الجرائم الجنسية .

وعاشا معا فى دار (لاكوست) الريفية ، فترة أنجبا فيها ولدا وبنتا ، وكانا قد أنجبا ـ قبل ذلك ـ ولدا آخر . على أن حماته لم تنس له ـ طيلة هذه المدة ـ افعاله ، وخيانته لابنتها الكبرى ، وعبثه مع ابنتها الصغرى .. واعتمدت مدام « مونتروى » على الاستاذ « جوفريدى » ـ محامى المركيز ومستودع ثقته ـ فاستطاعت أن تبتاع عونه بالمال !.. وسعت بنفوذها الى حمل المسئولين العسكريين على ارسال « دوناسيان » على رأس فرقته ، الى مكان قصى فى شمال فرنسا ، رغم ان حالة السلم لم تكن تستدعى ذلك . وفى اثناء غيابه ، عمدت بمساعدة « جوفريدى » الى تدريب ابنتها « رينيه » على ان تسيطر على زمام شئون زوجها واملاكه . واطاعتها « رينيه » ، وان راحت تلح عليها فى أن ترد وزجها الى جوارها .

قضاء (مرسيليا) يحكم عليه بالاعدام !

• وعاد المركيز الشاب الى باريس ، ليجد احضان « رينيه » مفتوحة له ، وان لم يكن يستطيبها !.. وفى هذه الفترة من حياته ، وجه اهتمامه الى التمثيل ، وجعل من داره الريفية (لاكوست) مسرحا اخذ الممثلون والممثلات يرتادونه ، وكان المركيز بنفسه يقوم ببعض الادوار . وأطمع فيه ذلك بعض المحتالين ، فأثقلت النفقات كاهله ، وساءت طباعه ، واصبح

ثائر الاعصاب .. فلم يزد هذا التطور زوجته الا لطفا ولينا !

وفى شهر يونيو سنة ١٧٧٢ ، سافر ((دوناسيان)) الى (مرسيليا) ، مصطحبا وصيفه الخاص ، وكان شابا جميل الطلعة ، جريئا فى فجوره ، ذا دالة كبيرة على المركيز .

وحدث فى الساعة العاشرة من صباح ٢٧ يونيو ، ان زارالشابان دارا للدعارة ، كانا على اتفاق مع صاحبتها . وقضيا وقتا مع ثلاث من فتياتها فى فجور صحبه ضرب بالسياط ، ووزع المركيز خلالها على الفتيات وربة البيت بعض الحلوى ،فشعرت واحدة او اثنتان بغثيان ومرض !

وفى مساء اليوم ذاته ، زار المركيز ـ وحده ـ عاهرا فى طرف آخر من المدينة . وما لبثت هذه الفتاة ، أن أبلغت البوليس ـ بعد ذلك بثلاثة أيام ـ بأن العميل الذى زارها فى ٢٧ يونيو ، حاول أن يسمها . وفى أول يوليو ، أبلغت الاربع الاخريات البوليس شكوى مماثلة ! . وأثار الأمر ضجة فى (مرسيليا) ، لا سيما حين ذكرت الفتيات الأخيرات ان المركيز خلا بكل منهن على حدة ، فكان يسوطها بسوط من الجلد ، ثبتت فيه مسامير مكسوة بآثار الدماء . ثم يتحول فيسألها أن تسوطه بدورها ، بينما يسجل الوصيف عدد الجلدات على الجدار .

وحللت الحلوى ، فلم يوجد بها أى سم ، وان وجدت بها مواد مثيرة للمعدة . ولكن الذعر الذى ساد (مرسيليا) ، كان قد تناهى الى اذنى مدام «مونتروى» ـ حماة دى ساد ـ فى باريس ، فاستغلت الفرصة .. وعند ما أراد البوليس القبض على المركيز ووصيفه ـ فى ١١ يوليو ـ وجدهما قد فرا الى الخارج . ومع ذلك ، فقد عرضت القضية على القضاء فى (مرسيليا) فى شهر اغسطس ، بفضل مدام « مونتروى » ..

وبالرغم من ان العاهرات رفضن الشهادة ضد المركيز ، الا ان المحكمة اصدرت حكمها ـ فى ٣ سبتمبر سنة ١٧٧٢ ـ بأن يكفر ((دى ساد)) ووصيفه عن ذنبهما ((بأن يركعا أمام

الكاتدرائية ، حافيى الاقدام ، وعاريى الراس ، لا يستر جسم كل منهما سوى قميص ، وتحيط بعنقيهما الحبال .. وقد امسك كل منهما شمعتين متقدتين ، زنة كل منهما رطل! »..
ثم يساقان الى المقصلة فيعدمان ، وتحرق ـ بعد ذلك ـ جثتاهما ، ويذرى رمادهما فى الهواء ! .. هذا فضلا عن ٣٠ جنيها يدفعها المركيز غرامة ، ويدفع خادمه عشرة جنيهات
ولعل أغرب ما يدل على تفاهة العقول ـ اذ ذاك ـ ان البرلمان صدق على هذا الحكم ، ثم احتفل بتنفيذه على تمثالين!

زوجته تعود به وبعشيقته !

• **واثرت** كل هذه الأنباء على المركيزة « رينيه دى ساد » ، فلاذت بأحد الأديرة ، وراحت ترسل الخطابات الى الرؤساء والحكام ، احتجاجا على ما أصاب زوجها من زور وبهتان ! . أما المركيز نفسه ، فراح يتنقل فى ايطاليا ، تحت اسم «كونت مازون » . وما ان بلغ (سردينيا) ، حتى اعتقل ولكنه استطاع ـ بمعونة زوجته ـ ان يهرب .. وان يصطحب فى هربه وصيفه وثلاثة من المسجونين !

والتقى « دى ساد » بزوجته فى ايطاليا ، وعاد معها الى دارهما الريفية (لاكوست) . ولكن حماته وشت به . وقبل ان يداهم البوليس الدار ، كان « المركيز » قد لاذ بالفرار . **وما لبثت زوجته ان سوت الأمر مع أمها .. وما ان علمت انه كان يقيم فى (ليون) ، حتى وافته الى هناك ، حيث وجدته يعيش مع فتاة تدعى ((نانون)) ، كانت فى خدمتها من قبل .. فعادت بهما الى (لاكوست) ، واصطحبت كذلك فتاتين كانتا دون العشرين من العمر ، وكان المركيز قد اتصل بهما جنسيا، مستخدما اساليب قاسية وحشية !**

وكانت زوجته قد ألفت مسلكه الشاذ ، ولم يعد لها من هم سوى ان تحول بينه وبين السجن ، وان تتخلص من

الخادمة والفتاتين ، عندما أردن استغلال موقف زوجها .. على أن أعصابها لم تلبث ان انهارت عندما فارقها المركيز ورحل الى ايطاليا ، ومن هناك ، راح يلاحقها بطلب النقود ، ثم عاد فى نوفمبر سنة ١٧٧٦ ، مصطحبا «سكرتيرا» ، كانت كل مؤهلاته انه جميل الطلعة ! .. ولم تكد تمضى ثلاثة أشهر على استقراره فى (باريس) . حتى تلقى نبأ موت أمه . وقبض عليه البوليس عقب ذلك مباشرة ، لا لشكوى معينة ، وانما لان الرأى العام كان قد اجمع على ضرورة سجنه لوقاية المجتمع من اجرامه ، ولحماية الناس من شروره ! .. ولكنه راح يكتب الى زوجته ـ من سجنه ـ خطابات قاسية ، يطالبها فيها بالعمل على اطلاق سراحه . بيد ان « رينيه » شغلت عن ذلك بالسعى لاعادة نظر قضية (مرسيليا) .

وفى هذه المرة ، قضى ببراءته ، والغاء حكم الاعدام ، على ان تحرم عليه زيارة (مرسيليا) لثلاث سنوات ، وعلى ان لا يطلق سراحه الا بعد أن يدفع خمسين جنيها . فعملت حماته على عدم دفع هذه الغرامة . وقابل « دى ساد » هذا بأن هرب من سجنه ، ولاذ بقصر (لاكوست) فى الخفاء . ولكن البوليس لم يلبث ان داهم الدار ، ونقله الى (ليون) فى عربة مغلقة ، ثم وضع فى « زنزانة » رطبة ، ضيقة ، فى سجن (فانسين) .

« دى ساد » و «ميرابو» فى السجن

• **على** أن هذه القسوة خففت رويدا ، وما لبث محافظ السجن ان أمد المركيز بأدوات الكتابة ، فانهمك فى تسجيل ما أسماه « يومياتى » ، مستخدما فى ذلك «شفرة» خاصة!.. **كما أخذ يكتب أشعارا بالفرنسية والايطالية والالمانية الى جارة أحبها ، كانت تقيم على مقربة من قصر (لاكوست) ، وتدعى «الآنسة دى روسيه» .. وكأن حبهما خلوا من أى علاقة جسدية** . وسرعان ما وافته رسائلها زاخرة بعبارات الحنان

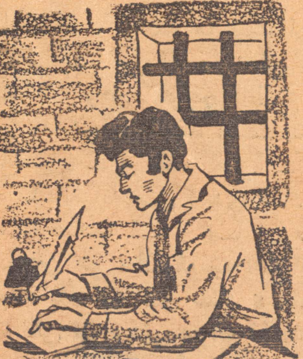
والمواساة . ولكنه ما لبث أن مل هذه العبارات بعد عام

ولم يكن من السهل على المركيز أن يألف حياة السجن الهادئة ، وهو المتأجج الطباع ، الجامح الشهوات ، الذى لم يكن قد تجاوز العقد الثالث من عمره .. وكان فى سجن (فانسين) — فى تلك الفترة — سيد آخر من المسجونين ، كان مغرما بالكتابة مثل « دى ساد » ، ولكن كلا منهما احتقر الآخر وسبه عندما قدر لهما ان يلتقيا ، ذات مرة .. **وكان ذلك السجين هو ، الفيكونت «ميرابو» ، الذى كان على صلة قرابة بعيدة بالمركيز دى ساد ، وان لم يفطن احدهما الى ذلك .**
ولم تكن تلوح على ميرابو اذ ذاك — فى سنة ١٧٨٠ — اية بوادر تنم عن ذلك السياسى الذى ذاع اسمه فى سنة ١٧٨٩ ، بل انه عرف — فى تلك الآونة — بجموحه الشهوى ، ولم يكن للكتابات التى انهمك فيها ، أثناء سجنه ، علاقة بالسياسة بل انها كانت موضوعات وقحة ، مستهجنة .. وان شرع — اذ ذاك — فى دراسة التاريخ والفلسفة .

وقد ذكره المركيز — بعد ذلك بسنوات — فى الجزء الثالث من «جوليت» ، فقال انه كان يحاول ، فى تلك الفترة ، ان يبدو ذا قيمة ، ولكنه «ليس شيئا مذكورا ، ولن يكون ذا قيمة مهما يقدر له أن يعيش » ! ..

دراسات أدبية وفلسفية .. فى السجن

• **وانصرف** المركيز دى ساد فى سجنه الى القراءة ، وشغف بمؤلفات « مونتسكيو » و « ميكيافيللى » و « فولتير » . كما درس اصول اللغة ، والتاريخ ، والموسيقى ، واللغتين اللاتينية واليونانية ، وقصص الفروسية الايطالية فى القرون الوسطى . وشرع يؤلف التمثيليات الشعرية والنثرية .. على أن طباعه كانت تزداد سوءا ، حتى لقد اضطر محافظ السجن الى أن يمنع «رينيه» من زيارته — فى سبتمبر سنة ١٧٨٢ — خشية



أن يصيبها أذى من الفورات التى كان يقابلها بها . ولا عجب فى استفحال سوء طباعه ، وقد طال حرمانه من حريته .. على أن الملل والضيق ظلا يلازمانه حتى فبراير سنة ١٧٨٤ ، حين تقرر اغلاق سجن (فانسين) - نتيجة التطور الذى الم بعقليات المهيمنين على حكم فرنسا فى عهد لويس السادس عشر - فنقل «دى ساد» الى سجن (الباستيل) ، حيث قدر له أن ينزل فى غرفة فخمة الاثاث ، تطل على منظر جميل . وسمح له بمقابلة الزائرين ، وبالاطلاع على الصحف اليومية

واصبحت زوجته تتردد عليه ، فتحمل اليه كل مطالبه ، وتقضى معه ثلاث ساعات او أربعا فى كل مرة . ولكنه مالبث أن فقد اهتمامه بشئون ضياعه واملاكه واولاده .. بل عاد يثور على زوجته ، حتى لقد أوشك ان يقتلها مرة . فمنعت بعد ذلك من زيارته .. ولم يعد له مايشغل به وقته ، سوى التفرغ للكتابة . وفى السنوات الثلاث - أو الاربع - التالية ، ألف : «مدرسة الفاسقين » ، و «حافظة أوراق أديب » - فى ٤ أجزاء - و «مغامرات خاطئة من فاسق » - وهى تمثيلية - و « آلين وفالكور » او « الرواية الفلسفية » .

يسبق « فرويد » فى التحليلات الجنسية

• وأهم هذه الكتب هو أولها ، فقد اعتبره عالم التحليل النفسى الالمانى « ايفان بلوخ » تحفة نادرة فى تاريخ البشرية ،

فطبع منه ١٨٠ نسخة فقط ، فى سنة ١٩٠٤ ، وقال انه اروع وادق تحليل للمجتمع فى عهد لويس الخامس عشر ، وانه الكتاب الذى مهد لنظريات « فرويد » . **فقد ضمنه ((دى ساد)) تحليلات عقلية طريفة ، منها ٦٠٠ تحليل تدور حول الغريزة الجنسية ، لا سيما السحاق واللواطة ، وألوان الانحراف الجنسى .. وكان أهم ما أفصح عنه ، هو ان القسوة والوحشية ـ فى العلاقات الجنسية ـ ليست الا نتاج عقل يائس ، أودت به الخيبة والفشل الى الانطواء ، والنقمة على المجتمع .. وقد أسهب ((دى ساد)) فى وصف اللذة الجنسية التى تاتى عن القسوة والتعذيب ، وحللها تحليلا نفسيا رائعا!**

وفى نوفمبر سنة ١٧٨٦ ، اصبح المركيز عرضة لنوبات من الدوار ، كما أخذ يبصق دما ، وساءت صحته فى السجن .. ولكن الاطباء استطاعوا ان يردوا اليه عافيته فى يونيو سنة ١٧٨٧ . فواصل مؤلفاته ، وانصرف الى وضع بعض القصص المحشوة بالجرائم الوحشية والجنسية .. والمهم فى الامر ، أن «دى ساد» كان يحاول ان يجعل من تجارب ابطاله ، نذرا للميسيحيين الاتقياء ، تنبههم الى شرور الحياة .

على أن كثيرا من انتاجه اختفى : اما لانه ضاع عندما هدم (الباستيل) ، واما لان السلطات اكتشفته فى غرفة السجين فصادرته واحرقته ! .. غير أن اتجاه «دى ساد» الى هذا النوع من التاليف ، دل على أن السجن جعله يغلب العقل على الحقد والتهور ، فأصبحت جرائمه ـ منذ ذلك الحين ـ «عقلية» .. أى مجرد خيال يطوف بذهنه ، دون تطبيق واقعى !

يدعو الثوار الى تحطيم (الباستيل)

• **وفى قصة** « آلين وفالكور » ، نجد ان المركيز دى ساد تنبأ ـ فى سنة ١٧٨٨ ـ بسقوط الملكية فى فرنسا ، وبثورة

الشعب بسبب جرائم ملوكه ومظالمهم .. فلما بدات الانباء تتسرب اليه ـ فى سجنه ـ عن قرب تحقق نبوءته ، عاد الامل يراوده فى استعادة حريته . وما ان اخذ مرجل الشعب يغلى ، حتى كتب المركيز نداءات على قصاصات من الورق المقوى ، راح يعلقها خلسة خارج نوافذ السجن ،داعيا الشعب الى أن يحطم أبواب (الباستيل) ، وينقذ المسجونين المظلومين .. وفعلا قرأ الناس النداءات !

وبدأت الثورة ، ففطن الحراس الى اعمال « دى ساد » ، وسرعان ما نقل فى عربة مغلقة الى معتقل فى احد الاديرة . ومن هناك ، راح يحاول الاتصال بزوجته ، لتبادر الى انقاذ ثروته الادبية التى خلفها فى (الباستيل) . ولكنها كانت قد لاذت بدير ـ تحت ضغط أمها ـ ثم هربت ، بعد ذلك ، باطفالها من باريس الثائرة .

على أن « دى ساد » لم يلبث ان استرد حريته فى أول ابريل سنة ١٧٩٠ ، عقب سقوط لويس السادس عشر وحكومته . وبدلا من ان تخف زوجته لاستقباله ـ كما كانت تفعل فى المرات السابقة ـ بادرت الى طلب الانفصال عنه .. وهكذا خرج المركيز الى عالم الحرية وهو معدم ـ اذ كانت أملاكه قد نهبت ـ فنزل ضيفا على صديق له من المحامين ، ريثما يطالب بحقوقه .. وكان قد بلغ الخمسين من العمر ، وترهل جسمه ، وضعف نظره لاسرافه فى الكتابة ، ولكنه كان راضيا عن الاوضاع الاجتماعية والسياسية الجديدة

ينجو من الاعدام .. للمرة الثانية !

• **وكتب** بعد ذلك بأيام ، الى محاميه « جوفريدى » يقول : « اننى أقيم مع سيدة ذكية ، كريمة ، قاست مثلى من الاضطهادات ، فاصبحت تعطف على المضطهدين . وهى تعيش منفصلة عن زوجها ، كما أعيش منفصلا عن زوجتى . ولكنها

فى الاربعين ، فيكون مجموع عمرها وعمرى تسعين عاما .. ومن هذا تستطيع أن تدرك حقيقة علاقتنا ! »

وفى ٩ يونيو سنة ١٧٩٠ ، قضى لرينيـــه بالطلاق منه ، وبنفقة تعادل ٤٠٠٠ جنيه سنويا . فأسلمه هذا الى نوبات من الغضب والهياج ، أدت الى أن طلبت منه صديقته أن يبحث له عن مأوى آخر

وقيض الله له اذ ذاك « مارى ــ كونستانس فيينيل » ، التى تولت رعايته الى أن توفى .. وكانت شابة فى الثلاثين من عمرها ، مطلقة ، ولها ولد . وقد احبته ، فتوفرت على العناية به . وكان قد بدأ يجنى بعض المال من مؤلفاته ، فاستطاع أن يفى ببعض نفقات اقامته . كما بدأت هذه المؤلفات ــ لاسيما المسرحيات ــ تكسبه شهرة . وما لبث ان لمع فى المجتمع ، وعين فى منصب أجداه نفوذا .. على أنه كان وديعا ومن أكثر رجال الثـورة طيبة واحسانا ، فى تلك الفترة التى عرفت باسم « عهد الارهاب » . وكان له اشراف على المستشفيات والمصحات ، فاستطاع انقاذ كثير من افراد طبقة الاشراف من المقصلة ، بأن كان يرسلهم الى مصحات العزل ، بحجة اصابتهم بأمراض خطيرة .

على ان الاعتدال كان تهمة خطيرة ، فى ذلك الوقت .. فى فترة الارهاب والتطرف . لذلك لم يلبث المركيز « دى ساد » أن اعتقل وصديقته « مدام كيسنيه » ــ أو « مارى ــ كونستانس » ، كما كانت تدعى ــ وقضى عليهما بالاعدام . غير أن القدر تدخل فى اللحظة الاخيرة ، اذ أعدم « روبسبيير » ، فانهار عهـــد المتطرفين ، وزال الارهاب .. وفى ١٥ أكتوبر سنة ١٧٩٤ ، أطلق سراح « دى ساد » ، بعد ان قضى فى السجن عاما !

وعاد ينعم بعطف صديقته « مدام كيسنيه » ، التى أفسحت له فى دارها ، وراحت توفر له أسباب الراحة . فازداد اكبارا لها ، وعرفانا بجميلها ، ورغب فى أن يسجل علاقته بها رسميا .. كابنة ، لا كزوجة ! .. ومن المحتمل ان علاقتهما كانت محض

زمالة فكرية .. على أن من المحتمل كذلك ، أن هذا الوصف كان ينطبق على هذه الفترة بالذات ، وليس على ما قبلها !

يطالب بالحرية الجنسية للنساء !

• **واستطاعت** مؤلفاته ان تشق طريقها الى الناس، فنشرت كتبه تباعا . وكان أهمها ـ فى التعبير عن آراء المؤلف وفلسفته ـ هو كتاب «تربية الفاسقين» ، الذى أورد فيه نظرياته فى الله، والطبيعة ، والقانون ، والتطور ، والآباء ، والنساء ، والزواج ، والامومة ، والحب ، والصداقة .. والقتل والسرقة !

وكان من رأى « دى ساد » ، ان المساواة أمام القانون مهزلة، طالما كان الناس طبقات ، وطالما كانوا متباينين فى الصفات والطباع .. وكانت الجرائم الاساسية ـ فى رأيه ـ هى: النميمة، والسرقة ، والقتل ، والجريمة الجنسية . ولابد من أن تتوقف أساليب علاجها على الظروف التى لابستها . كما انه لابد للنساء من أن يستمتعن بما يستمتع به الرجال من حرية فى الامور الجنسية !

وفى تلك الاثناء ، اشتد غلاء المعيشة فى (باريس) ، حتى استفحلت وطأة الفاقة على المركيز و « ابنته » ، لاسيما وان أملاك « دى ساد » كانت قد صودرت . واضطرت «مارى ـ كونستانس » الى أن تعمل ، وأن تترك له ابنها كى يعنى به ، فكان المركيز يحرم نفسه من أجل الصبى ، حتى تأثرت صحته .. على أنه ظل مكبا على التأليف ، كما احترف التمثيل ، وان لم يستطع أن يبارى المحترفين .

وفى بداية حكم نابليون ـ فى سنة ١٨٠٠ ـ نشر « دى ساد » كتابه المشهور : « جرائم الحب ، او هذيان الوجد ـ اقاصيص تاريخية وأساطير » (الذى سنلخصه لك فى العدد القادم من « كتابى ») .. وكان من رأى المركيز أنه لا يجوز للمرء أن يكتب قصصا ، الا اذا كان قد عانى الاهوال واللوعات فى حياته ، أو كان قد قام بأسفار ورحلات !.. **وكان من رأيه**

ان الكاتب يجب « أن يظهر الرذيلة عارية ، حتى تنجلى بشعة مقيتة . ولهذا فاننى أصورها فى أفظع مظاهرها ! »

وفى يوليو سنة ١٨٠٠ ، ظهر كتيب باسم «زولو والشماسان ـ أو بعض مراحل فى حياة ثلاث حسناوات » . ولم يكن من العسير على أى قارىء ان يدرك أن «زولو» هى بعينها «جوزفين» زوجة نابليون . وقد غضب نابليون لظهور هـذا الكتيب ، واستطاع ان يهتدى الى أن « دى ساد » هو المؤلف ، ومن ثم أمر بالقبض عليه . وتنقل المركيز من سجن الى سجن ، حتى انتهى أخيرا الى مصح (شارنتون) ، حيث انكب على الكتابة عن التمثيل والرقص ، واستطاع أن يقيم مسرحا فى المصح ، دعا اليه الممثلين والممثلات ، وحث أصدقاءه على التردد عليه . وسرعان ما اشتد الاقبال على هذا المسرح ، فأكرمت ادارة المصح « دى ساد » ، وانزلت ابنته « مدام كيسنيه » فى غرفة بجانب غرفته .

لم يكن وغدا ولا مجنونا وانما ...

• **بيد أن** الدهر لم يلبث أن قلب للمركيز ظهر المجن ، اذ مات الطبيب الذى كان يشرف على المصح ، وخلفه طبيب آخر رأى أن التمثيل والرقص لايليقان بالمصحات ، وأقصى مدام كيسنيه ، وحرم اتصال « دى ساد » ببقية المرضى . فعاد المركيز يتوفر على الكتابة . وما لبث أن أصيب ـ فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٨١٤ ـ بحمى ، وبنزلة شعبية . وفقد الطبيب الامل فى شفائه ، فاستدعى ابنه الاصغر ليكون مع مدام كيسنيه الى جوار فراشه .. أما ابنه الاكبر ، فكان قد توفى فى أسبانيا فى سنة ١٨٠٩ ، كما أن زوجته كانت قد فارقت الحياة فى سنة ١٨١٠ .

وتوفى فى الساعة العاشرة من مساء اليوم الثانى من ديسمبر . وقد دفن فى مقبرة المصح ، بينما أحرق البوليس كل ماوجد

فى حجرته من أوراق .

والواقع أن المركيز «دى ساد» لم يكن وغدا ولا مجنونا ، وانما كان مثالا لارستقراطيي فرنسا فى القرن الثامن عشر ، وان اختلف عنهم بكبريائه الرعناء ، ومرحه المستهتر ، وشهواته المتأججة ، وعقله النشيط الذى اتسم بجلاء فذ ، وجرأة فى التفكير والابتكار . ولقد أجبر على أن يرتبط رسميا ـ طيلة عمره ـ بامرأة كان يكبرها ، فى الوقت الذى تعلق فيه بأخرى كان خليقا بأن يقصر عواطفه وولاءه عليها ، لو لم يحرم منها . ولكن زواجه أذكى فى أعماقه روح العناد والتمرد ، مما ساقه الى ما يشبه الحقد على الجنس البشرى بأسره . ودفعته شهواته العاتية الى أن يتخذ من ارضائها وسيلة للانتقام لنفسه من البشر ممثلين فيمن كن يصادفنه من عشيقات وضجيعات !

ومع ذلك ، فان « الجرائم » التى اضطهد من أجلها ، لم تكن تذكر ، اذا قيست الى التداعى الخلقى الذى ساد عصره ، وقد زاد من حدة طباعه وثوراته ، ماتعرض له من سجن رأى انه عدوان على حريته لم يكن ثمة مايبرره ! .. **فلما طال حبسه فى (فانسين) و (الباستيل) ، بدأت العزلة عن المجتمع تحمله على أن يحلل مشاعره ويكيفها على ضوء العقل والمنطق .. وكان ينحو الى ما نحا اليه مثقفو عصره ـ فى فرنسا ـ من تحليل علمى ، اقترن بخيال ملتهب ، وواقعية مستهترة ، مما أنتج لونا من الفلسفة والادب ، قد لايكون لهما قيمة كبرى فى ميدانى الفلسفة والادب ، ولكنهما فتحا أبوابا امام الفلاسفة والكتاب . وقدر لنظرياته وآرائه أن تلقى اهتماما بعد حوالى قرن ونصف من تسجيله اياها !**

(وسنقدم لك فى العدد المقبل اروع كتب « دى ساد » وأبقاها .. وهو « جرائم الحب »)

عزيزى القارئ ..

بهذا العدد الذى بين يديك ، يبدأ (كتابى) العام السابع من كفاحه الأدبى فى سبيل التقاط أشعة الثقافة العالمية من كل اتجاه ، وتركيزها لك فى هذا القالب الفريد الذى يسيغه ذوقك ، ويتسع له وقتك ، ويوفر عليك مالك ، وينقل إليك ثقافة الشرق والغرب معا .. على طبق !

وإنه ليسر (كتابى) فى مستهل عامه الجديد ، أن يجدد لك العهد على أن يبذل كل ما فى طاقته من جهد ، ولا يضن عليك بتضحية ، كى يوافيك دائما بكل ما تتوق إلى قراءته من كتب ، جديدة وقديمة ، تفتح أمامك آفاق المعرفة على مصراعيها ، وتنير لك الطريق نحو حياة أفضل وأسعد ، وتزيدك إحاطة بأحوال هذا العالم الذى تعيش فيه ، وتيسر لك مشاركة شعوب الأرض فى سعيها الدائب نحو الرخاء والرفاهية والسلام لبنى الإنسان ..

والله ولى التوفيق

حلمى مراد

شركة فن الطباعة ٥٨١٤٩